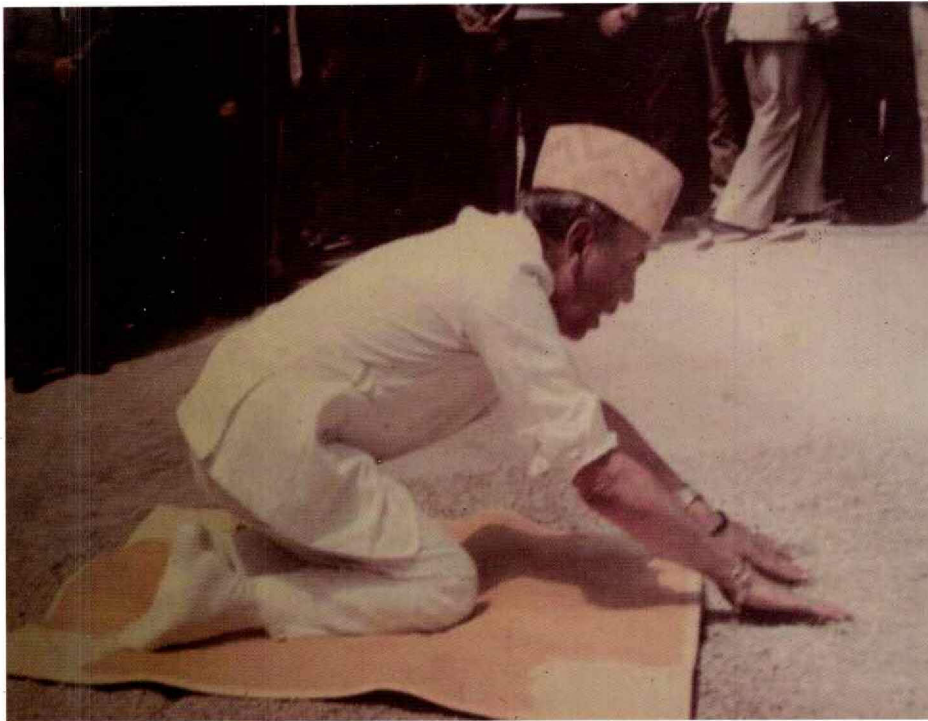


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالحراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص عن الصحراء المغربية



السنة التاسعة والخمسون - العدد 417 شعبان 1437 هـ / يونيو 2016 م

417

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالكراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة التاسعة والخمسون - العدد 417 شعبان 1437 هـ / يونيو 2016 م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957 م



”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت حولها أعمالة الفكر والثقافة والإصلاح في هذا
البلد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الثقافية
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhai.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

التوزيع

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

إن الحديث عن صيرائنا الغالية، يدخل في ماهية الدولة المغربية، تشهد لخلق الروابط
الكينية والثقافية والسياسية والأسرية، وترسمه الخرائط الدولية الناصفة بالحدود الجغرافية،
وتؤكد له الموائيق الدولية، وتؤكد له بيعات الفبائل الصراوية لسلالين الدولة العلوية.

وكل ذلك متفق بالشواهد المادية والوثائق الرسمية، وهذا مما لا يمكن لمجده
بالإحصاءات الواهية، وعلى النابج الدليل كما في الأعراف المرعية.

لذا أجمع حكماء الدول العربية والغربية على فبااعة نظرة المغرب الوافعية تجاه
الاستبغاء والكم الذات المعضية إلى تعذر الأول وإمكان الثاني، حيث اعتبر في نظر
المهتمين بعفه الفوانين الوضعية والنزاعات العملية من ثمرات حكمة وحنكة أمير المؤمنين
جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

والناظر في مختلف التصريحات الدولية يجد لها مؤيداً للموقف المغربي، باعتباره حلاً
واقعياً للنزاع المبتعل تجاه وحدتنا الترابية، لذا يسعد مجلة الدعوة الحق أن تقدم للرأي العام
الوطن والعالمي ما يثبت أحقيتنا في سيادتنا على أقاليمنا الجنوبية، من خلال مقالات
علمية أسهم بها ثلة من العلماء والأساتذة الأجلاء، من فقهاء ومؤرخين وحفوفين
وجغرافيين، لتكون نابعة في بابها، عملية لموضوعاتها بما يلزم من الأمانة الفصعية
والوثائق العينية.

رئيس التحرير

مفالات العدد

المسيرة الخضراء

حلقة من حلقات ثورة الملك والشعب

ومدرسة للتربية الوطنية الصادقة

ذ. عبد الحق المريني
مؤرخ المملكة
الناطق الرسمي باسم القصر الملكي

منذ ما يزيد على أربعين سنة، دوى النداء الملكي الحسنى مجلجلا في ربوع المملكة ينادي بالزحف المقدس وبالقيام بمسيرة نعتها مبدعها العظيم بالخضراء، تيمنا براية الرسول صلى الله عليه وسلم، وأطلق عليها "بيعة الرضوان"، تبركا بهذه البيعة تحت الشجرة التي ذكرها القرآن في سورة الفتح: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا»¹.

فسورة الفتح هي ملهمة الحسن الثاني رحمة الله عليه لتنظيم هذه المسيرة السلمية لربط شمال المغرب بجنوبه من طنجة إلى الكويرة، ولتجديد روابط البيعة المتينة القانونية والتاريخية مع كافة أفراد الشعب المغربي شمالا وجنوبا كأمر للمؤمنين وحامي للملة والدين، وراعي الأمة والساھر على وحدتها وكيانها.

لقد كانت بيعة الشعب المغربي لعاهله المفدى عبر التاريخ بمثابة ميثاق دستوري ديمقراطي متجدد، ترمز إلى وحدة الشعب المغربي وارتباطه بالعرش المغربي، وهي التي حكمت بمقتضاها محكمة العدل الدولية بلاهاي مؤكدة بوجود روابط البيعة الشرعية بين سكان الأقاليم الصحراوية المغربية والسلطين العلويين، وبأن الصحراء هي أرض مغربية ولم تكن أرضا خلاء. وأن البيعة كانت ومازالت هي الرابطة الأساسية والقانونية بين السلطان وأفراد شعبه من قلب الصحراء إلى

1 - سورة الفتح، الآية: 18.

مدينة البوغاز. فخاطب جلالة الملك الحسن الثاني رحمه الله شعبه الوفي بعد صدور هذا الحكم الصائب العادل قائلاً:

"البيعة هي في عنقي وفي عنقكم، المغاربة بايعوا ملكهم بيعة الرضوان، وفي مقابل تلك البيعة الملك بايع في شكله المغاربة، حينما يتعهد بضمن حقوقهم. وأول حق عند المغاربة هو الاستمرار في مغربيته، ولكن ليست أي مغربية، بل مغربية شريفة كريمة أنيقة، نظيفة طاهرة". ونادى المغفور له الحسن الثاني شعبه بتنظيم مسيرة خضراء في نظام وانتظام.

وكان التحدي الأكبر :

صحراؤنا تتحدى : ليس يقتلني ❀ موت ولو دفنوا في القبر. ما دفنوا
أنا سليل الذين امتد شاطئهم ❀ وصاح طارقهم أن تحرق السفن²

فتوكل المتطوعون على الله وخطوا الخطوات العملاقة فوق صحرائهم - باسم الله مجراها ومرساها - متسلحين بسلح الإيمان واليقين، حاملين أحزابا من القرآن الكريم وأعلاما مغربية، واندفعوا فوق رمالهم لأنهم عرفوا طريقهم وأدركوا هدفهم، لا يكبح جماحهم رهب أو إشفاق، على أفواههم كلمة "الله أكبر"، كلمة الحق التي لا تصدر إلا عن القلوب المومنة بالحق.

إلى التحرير باسم الله سيروا ❀ جنود الحق قد حان المسير
فسيروا يا جنود الله ترعى ❀ مسيرتكم ملائكة نسور

ووالى أحفاد طارق بن زياد، وإدريس الثاني، ويوسف بن تاشفين المرابطي، ويعقوب المنصور الموحيدي، وأبو الحسن المربني، والمنصور الذهبي السعدي، والحسن الأول العلوي، ومحمد الخامس زحفهم نحو صحرائهم، وعبروا الحدود الوهمية عبور الأبطال كأنهم خرجوا من التاريخ وانتصروا. «ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز»³. وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم. وصاح صائحهم:

الله أكبر قد عزت مشاعرنا ❀ وحقق الله للصحرأ أمانها
مسيرة الفتح قد صحت عزائمها ❀ والحق رائدها والله راعيها

2 - من شعر: محمد البوعناني.

3 - سورة الحج، الآية: 38.

فحققت مسيرتنا غايتها، وأصاب سهمها الهدف الأسمى، واسترجعت وحدة ترابنا التاريخية المعهودة، ووحدت نظرتنا إلى المستقبل الباسم، وحررت قلوبنا من الأضغان والأحقاد، ونبتت عن نفوسنا الأوهام والسراب، وجعلتنا على مختلف مستوياتنا الاجتماعية نتشبث بمكارم الأخلاق، وبالنظام والانتظام، ونتحلى بمزايا الواقعية، ونتمسك بصدق العزيمة، وقوة الإرادة، ونهتدي ببراعة التخطيط، وسلامة التقدير، وحسن التدبير.

وبذلك أعطت مسيرتنا للعالم صورة واضحة عن ديمقراطيتنا الحقة واشتراكييتنا السليمة النابعة من الأصالة المغربية، والمنبثقة عن واقعنا المغربي الواضح المعالم، الطاهر الطوية، الراسخ البنيان، وعبرت تعبيرا صادقا عن صفات الإنسان المغربي في "مغربه الجديد" المتحلي بخصال الشهامة والصمود والاعتزاز، وبصفات النبل والكرامة والاستقامة والنزاهة والموضوعية.

فكانت هذه المسيرة الأنجح في تاريخ الإنسانية، يقول الحسن الثاني رحمه الله : "لا أظن أن ثمة مسيرة مشى فيها ثلاثمائة وخمسون ألف شخص (مطمئنين آمنين)".

ودخل العبور الأكبر من بابه الواسع، ووقف العالم إجلالا لهذه المسيرة التي أصبحت لتاريخ المغرب عنوانا، وكبر لهذا الشعب المغربي في انتفاضته الكبرى وثورته البيضاء، وملحمته الخالدة التي قال عنها مبدعها الخالد في إحدى ذكرياتها:

"فلو لم تكن مسيرة الشعب والعرش مسيرة تاريخية حتى أصبحت جبلية عندنا لما تمكنا في القرن الذي نحن فيه من أن نقوم بثورة الملك والشعب".

وقف الخلق ينظرون لزحفي ❀	وهو يرى في الكون مقل الرعود
ذعر الغرب من مسيرة شعب ❀	حل فيها الصدى محل الحديد
نحن أحفاد تاشفين وفي يوم ❀	كيوم الزلازمة المشهود
وأسود إذا امتحنا ومن ذا ❀	يستطيع اقتحام غاب الأسود
وهي صحراؤنا نروي ثراها ❀	بدماء كسالفات العهد ⁴
هي الصحراء جزء من بلادي ❀	وشيعه عاهلي فدرؤا الهراء ⁵

4 - من شعر: محمد الحلوي.

5 - من شعر محمد الكبير العلوي.

فكانت المسيرة صحيحة تاريخية مدوية في وجه الغاصبين المراوغين، وصراخا جوهريا صريحا في وجه كل معتد أثيم عاث في الصحراء فسادا، وملأها بهتانا وعويلا، متحديا التاريخ :

أأنتك لم ترالصحراء قبلا ❁ ولم يعجبك شاطئها الجميل
فأين مضيت يوم اجتاح عجم ❁ مفاوزها وخانهم الدليل
ألم تك في البلاد قرير عين ❁ وكنت لكل سانحة تميل⁶

ولم تحط مسيرتنا المظفرة الرحال بل استمر ديبها في نفوسنا وبين أهلينا، وانطلقت مسيرتنا مدرسة متنقلة في ربوع المملكة، تعلمنا فيها كيف يكون الإقدام عندما يدعو داعي الفداء والتضحية، ومتى يكون الإحجام عندما ينادي منادي التعقل والرزانة.

- تعلمنا فيها أن الاعتماد على النفس الحافلة بالصدق والإخلاص، وعلى الإرادة المشبعة بالتجرد والنزاهة بغية نيل كل مراد شريف، هو أمضى من كل سلاح وأقوى من كل برهان، وأن ما يؤخذ باللين واللياقة والحكمة لا يؤخذ بالقوة أو بالعداء، لأن ما ضاع حق من ورائه طالب نزيه عاقل عادل عفيف. يقول الحسن الثاني رحمه الله : "إن المطالبة بالحق أولا أمر واجب، وثانيا إن تلك المطالبة كلما اكتسبت الطابع السلمي والروحي والروحاني، إلا وكانت أليق وأسلم".

- تعلمنا في مدرسة المسيرة كيف نقوم ما اعوج من تفكيرنا، ونصلح ما فسد من تصرفاتنا، وكيف نتقن عملنا ونحسن صنعنا وبأي منظار سليم يجب أن ننظر في عمق مشاكلنا، وكيف نقوي عزيمتنا، ونصقل عقليتنا ونرصص صفوفنا في مسيرة التنمية والنهء والرفعة والرقى والكمال.

- تعلمنا في مدرسة المسيرة أنه إذا أراد شعب الحياة الكريمة واشتاق إلى تمام الحرية والانعتاق، وعزم على تحقيق الوحدة الكبرى لبلاده، فلا بد له أن يسير جادا بخطوات ثابتة صامدة، ويشمر عن ساعديه بكل شمم وإباء، ويواجه الغاصب المعتدي والمناور المتحایل بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة التي تثبت إثباتا راسخا مشروعية مطلبه وعدالة مأربه. فلا بد أن يستجيب القدر، ولا بد أن ينتصر الحق الواضح على الباطل الزهوق.

- تعلمنا في مدرسة المسيرة أن المسيرة التاريخية والحضارية والتقدمية للمملكة المغربية من عهد إدريس الأول إلى عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله - تشق دوما طريقها نحو المجد

6 - من شعر: الحبيب الإمام.

ونحو العظيمة، ونحو الخلق والإبداع، لا تعرف للتوقف سبيلا ولا تجد للتردد منفذا. فهي تنتقل من غزو إلى غزو ومن معركة إلى معركة ومن نصر إلى نصر.

مسيرة الفتح قد صحت عزائمها ❁ والحق رائدها والله راعيها
شقت إلى النصر نهجا لا نظير له ❁ حتى غدت مثلا للدهر يرويها
الله أكبر قد هزت مشاعرنا ❁ وحقق الله للصحرَاء أمانها

الصحراء المغربية على عهد الشرفاء العلويين

قراءة في مضامين الوثائق

ذة. بهيجة سيمو
مديرة الوثائق الملكية - الرباط

تجدر الإشارة في البداية إلى أننا لم نر أولى النشر من المساهمة في موضوع قضية وحدتنا الترابية الراسخة في صلب الوعي الوطني إلى درجة أن دلالاتها أصبحت جذورها راسخة في عمق التفكير المغربي. ويأتي في صدارة الاهتمام واقع وحقيقة تاريخ سيادة المغرب على صحرائه الجنوبية على امتداد تاريخه من العصر الوسيط الإسلامي إلى الوقت الراهن. وقد توجهت أنظارنا وفاء للمنهج التاريخي إلى إرساء قواعده على استغلال الوثيقة ابتداء من ظهور الدولة العلوية الشريفة ومن الكشف عن أدوار سلاطينها الميامين المتعاقبين على العرش المجيد.

لقد برز اهتمام سلاطين الأشراف العلويين بالأقاليم الصحراوية متزامنا مع توطيد أركان الدولة المغربية الجديدة، وذلك بتوحيد أرجائها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. ولاغرو، أن تشبث الدولة العلوية الشريفة بالمجال الصحراوي المغربي، مرتبط بكونها أسرة شريفة، تنتمي إلى الصحراء وتحديدا إلى تافيلالت الواقعة في التخوم الشمالية الشرقية للصحراء المغربية، التي تربطها بها روابط عميقة. ويعود اهتمام السلاطين العلويين الأوائل إلى حرصهم الشديد للحفاظ على المكتسبات التي حققها السعديون في السودان. وليتأتى لهم المحافظة على العلاقات الوطيدة بتلك الجهات، كان عليهم تأمين الطرق الصحراوية التي كان يتم عبرها التواصل مع بلاد السودان.

والواقع أن المعطيات التاريخية الواردة في مختصر الرحلة العياشية لأبي سالم العياشي المسماة «لقط الفرائد من ماء الموائد»¹، أفادت أن مناطق الصحراء الشرقية ظلت خاضعة للسلطة العلوية منذ بداية أمرها. حيث وقعت الإشارة فيه إلى أن تلك المناطق تحت نظر - وقتئذ - لمولاي الشريف، بالقول: «ودخلنا إلى أول عمالة توات، وهي قرى تسابت، وزرنا بأول قرية منها قبر الولي الصالح

1 - يصف فيها الرحلة التي قام بها إلى الأماكن المقدسة لأداء مناسك الحج مابين سنتي 1072هـ - 1074هـ/1661-1663م.

سيدي محمد بن صالح المعروف بعريان الراس، تلميذ الولي الصالح المشهور سيدي أبي الرواين دفين مكناس [...] وعدد المثقال عندهم أربع وعشرون موزونة، ويقولون للمثقال الأربعيني مثقال شريفي نسبة للأمير الشريف صاحب سجلهاسة، وكل هذه البلاد في طاعته...»².

تعد تلك الإشارة من بين الإشارات الأولى التي تفيد أن مولاي الشريف، زيادة في تأكيد السيادة ضرب السكة باسمه منذ البداية لما ترمز له من شارات الملك والسيادة خصوصا وأنه أصبح بالفعل المتحكم في المجال الصحراوي الاستراتيجي الواقع بين توات شرقا وبلاد السودان غربا³، وتلك مساحة كما سبقت الإشارة إلى ذلك، تحتضن أهم المسالك التجارية المغربية القديمة.

وفي سياق المحافظة على هذه المناطق، يمكن إدراك غايات الحركات الموجهة من قبل مولاي الرشيد إلى السوس أو تزرwalt وقاعدتها إيليغ، التي دخلها سنة 1080هـ/1670م⁴، وهي تعد بوابة الصحراء وملتقى المسالك التجارية الرابطة بين المغرب والسودان. وسيرا على نهج سلفه، قام السلطان مولاي إسماعيل (1082-1139هـ/1672-1727م) باسترجاع نفوذ المغرب على الصحراء كلها إلى حدود بلاد السودان، وذلك خلال حركته إلى المناطق الصحراوية في غضون سنة (1089هـ/1678م)، أي بعد مضي سبع سنوات فقط على توليه عرش أسلافه الميامين. وفي هذا الصدد يقول الناصري: «إن مولاي إسماعيل استولى على «صحراء السوس فبلغ آقا وطاا وتيشيت وشنكيط وتجوم السودان فقدمت عليه وفود العرب هنالك من أهل الساحل والقبلة ومن دليم وبربوش والمغافرة ووودي ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل، وأدوا الطاعة»⁵.

والطاعة هنا تفيد البيعة، مما يبين بجلاء تأكيد الروابط التاريخية الشرعية العريقة الموجودة بين هذه الأقاليم الصحراوية على العهد الإسماعيلي. وبمناسبة حركته الشهيرة هاته بالسوس الأقصى والصحراء، تزوج السلطان مولاي إسماعيل السيدة خناتة⁶ بنت بكار شيخ قبيلة المغافرة، وهي والدة السلطان مولاي عبد الله. كانت «ذات جمال وفقه وأدب»⁷.

2 - أبو سالم عبد الله العياشي، لقط الفرائد من ماء الموائد، مختصر الرحلة العياشية (1661-1664م) إعداد سليمان القرشي، منشورات دار التوحيد، الرباط، 2012م، ص 22.

3 - Larbi Mezzine, le Tafilalt, berceau de la dynastie alaouite, in Memorial du Maroc, vol.4. 1666-1906, de la grandeur aux intrigues, Ed.Nord Organisation, Rabat, 1983.p23

4 - أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج. 7، تحقيق وتعليق الأستاذ جعفر الناصري والأستاذ محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956م، ص 40-41.

5 - الناصري، المصدر نفسه، ج. 7، ص. 58.

6 - المصدر نفسه.

7 - المصدر نفسه.

وغني عن البيان، أن السلطان مولاي إسماعيل مارس السيادة المباشرة على قبائل توات وتيكورارين ووادي الساورة من الصحراء الشرقية، وعلى المنطقة الممتدة ما وراء درعة، من الساقية الحمراء ومجالات أولاد دليم إلى بلد شنكيط⁸ أو موريطانيا الحالية. وتظهر تلك السيادة المغربية جلية من خلال تعيين ابنه الأمير مولاي المامون، خليفة له بتايفالات وسائر الأقاليم الصحراوية، حيث شاركه تدبير الحكم بها من خلال الرسائل التي كان يوجهها له، منها، خمس رسائل، وهي التي أمر السلطان مولاي الحسن بن محمد لاحقا بإعادة نسخها من أجل اعتمادها في المحاججة لصد العدوان الأجنبي على تلك المناطق، وأولى تلك الرسائل تعود إلى سنة 1104هـ/1693م⁹.

وتسعف قراءة نصوص تلك الرسائل على تكوين تصورات شمولية عن تبعية المناطق الصحراوية، وكذا المرتب، عن ضبط الحدود المغربية، وامتداد السيادة العلوية على جميع أقاليم المملكة وانبساط الحكم العلوي الإسماعيلي على أجزائها الصحراوية، كتوات وتكورارين وتغازي ووادي الساورة، وما وراء الساقية الحمراء، ومجالات أولاد دليم بالقطر المسمى قديما بشنكيط وحديثا بموريطانيا إلى المناطق المعروفة بالساحل، المحاذية لنهر السنغال من مجاريه العليا إلى مصبه في المحيط الأطلسي.

كما تبين هذه الرسائل أن بلدة تغازي كانت تابعة للمغرب، في القديم والحديث. ولعل السلطان مولاي إسماعيل، لإمامه بتاريخ المغرب، بنى علاقة تغازي بالمغرب على مرجعية تاريخية ثابتة، إذ أنه يحيل على تغازي في العهود التاريخية الأخرى. وهو ما يبدو جليا من خلال تأكيده على ابنه المامون بلزوم الاتصال بصاحب تغازي وكتابة «براءة على لسانك لصاحب تغازي وقل له أن والدي نصره الله أعطاني جميع هذه البلاد تافيلالت وأحوازا وعربها، ودرعة وأحوازا وعربها، وتلك البلد تغازي هي محسوبة من جملة درعة، ومعدودة من عمالتها، وكل من يتصرف في درعة كان يتصرف فيها [...] غير أنك الذي تعرفه منا أن تلك البلاد هي من حسابنا...»¹⁰.

والخلاصة المستفادة من هذه الرسائل، أن القبائل الصحراوية المشار إليها أعلاه، كانت تؤدي واجبها من الجبايات، وهي شارة من شارات ممارسة السيادة، كما تفيد هذه الرسائل بتأهب السلطان مولاي إسماعيل لتنظيم حركة إلى منطقة الساحل.

8 - المصدر نفسه.

9 - وتوجد مجموعة هذه الرسائل محفوظة في أرشيف مديرية الوثائق الملكية، وقد سبق نشرها في كتيب تحت عنوان : إلى ولدي المامون، مطبوعات القصر الملكي، 1967م.

10 - محمد الغربي، الساقية الحمراء ووادي الذهب، دار الكتاب، الدار البيضاء، (ب ت)، ج 1، ص. 237 - 243.

وعلاوة على ذلك تذكر تلك الرسائل بالأهمية التاريخية والاستراتيجية لتأفيلالت بصفتها «بلاد متسعة كبيرة، وبها أعمال ومنافع كثيرة، وهي قاعدة من قواعد هذه الأقطار المغربية. وقد كانت في القديم دار الإمارة ومنها كانت تتوجه الأوامر والنواهي وتنبعث البعث، ويخرج أصحاب الولايات إلى أكثر كور المغرب [...] وتوسطت بجميع تلك الفوائج والجهات، فهي محط رحال الرفاق، من جميع الآفاق، ولا بد لجميع تجار السودان، وغيرهم من البلدان منها. وأهل تلك الجهة كلهم موقوفون عليها، ولا محيص لأحد عنها، فولايتهما وحدها يجعل منها الرجل الحازم الجيش والعيش، لاسيما إذا كان صاحبها يتصرف في توات وتيكورارين، وفي درعة، ويمد يده في تلك الفوائج وغيرها...»¹¹.

ومن جهة أخرى، تلي هذه الرسائل على الخليفة المولى المامون أسلوب التعامل مع القبائل كل قبيلة على حدة، وضبط طرق تحصيل الجبايات، علاوة على مجموعة أخرى من التوجيهات السلطانية. كما تحيل جل الرسائل الإسماعيلية على مصطلحات تدل على الروابط الأسرية العميقة الموجودة بين الشرفاء العلويين والمناطق الصحراوية مثل استعماله كلمة «أخواننا» عدة مرات، مذكرا ولده مولاي المامون بالروابط المتينة التي تربطه بالقبائل الصحراوية لأن أم هذا السلطان كانت من أولاد دليم بالساقية الحمراء. وهذا ما يفسر كون السلطان مولاي إسماعيل، في جل رسائله هذه إلى ابنه المامون، كان يوصي فيها ابنه خيرا ببعض أعيان قبيلة أولاد دليم، وخصوصا منهم الشيخ محمد بن أبي بكر الدليمي السناني اليعلاوي الذي وصفه بالخديم ومن كبار أولاد دليم¹². وقد صار خلفاء السلطان مولاي إسماعيل على نهجه¹³.

ومن هنا تبدو أهمية هذه الرسائل التي تعتبر مستندات وثائقية مهمة تتجلى من خلال مضامينها حقيقة الحدود المغربية، مسلطة الضوء الكاشف للأبعاد التاريخية والجغرافية على هذه القضية¹⁴، وهو ما تؤكد مصادره تاريخية أخرى، حيث يشير الإفرائي في «النزهة» قائلا: «لم يزل أمير

11 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الصغير الإفرائي، تصحيح هوداس، أنجي 1888، ص 305.

12 - محمد الغربي، المرجع السابق.

13 - Brahim Boutaleb, Moulay Ismail(1672-1727), in Memorial du Maroc, vol. 4 Ed. Nord organisation, Rabat, 1982, p. 45

14 - رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الأمير مولاي المامون بتاريخ 20 جمادى الأولى 1103هـ / 8 فبراير 1692م.

• رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الأمير مولاي المامون بتاريخ 30 صفر 1104هـ / 9 نونبر 1692م.

• رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الأمير مولاي المامون بدون تاريخ: 25.

• رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الأمير مولاي المامون بتاريخ 24 رجب 1104هـ / 31 مارس 1693م.

• رسالة من السلطان مولاي إسماعيل إلى الأمير مولاي المامون بدون تاريخ: 31.

المومنين إسماعيل رحمه الله في مقارعة أعدائه إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها، واستولى على تخوم السودان وانتهى منها إلى ما وراء النيل (بمعنى النيجر)، وانتشرت دولته في عمائرهما وبلغ من ذلك ما لم يبلغه المنصور السعدي، وامتدت مملكته في جهة الشرق إلى بسكرة من بلاد الجريد ونواحي تلمسان»¹⁵.

ويظهر هذا المجال جليا من الألقاب التي كان يتخذها السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف، حيث ورد في رسالة عمر بن حدو الريفي إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر متحدثا عن السلطان مولاي إسماعيل: «فإن ضيفنا المنصور بالله صاحب الدولة السلطانية والنسبة النبوية الهاشمية ملك الغربيين والسحرتين [كذا] من سوس الأقصى إلى منتهى الغرب الذي لا يعد ولا يحصى وسحرة الجريد وبعض الأقاليم في بلاد العبيد السلطان الأسعد لنبردور»¹⁶ ذي مراکش مولانا إسماعيل بن الشريف نصره الله...»¹⁷.

وهكذا تجلت عظمة السلطان مولاي إسماعيل في كونه أعاد بناء دولة مركزية قوية استرجع المغرب بفضلها وحدته السياسية والترايبية، ويتأكد هذا من خلال ممارسة السلطان لسيادته على هذه المجالات الواسعة، حيث يفيدنا مارتان في كتابه¹⁸: «أربعة قرون من تاريخ المغرب في الصحراء»، أن السلطان مولاي إسماعيل كان قد عين على المناطق الصحراوية العديد

15 - نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، الصغير اليفراني، تصحيح هوداس، أنجي 1888، ص 305.

16 - بمعنى الإمبراطور أو السلطان الذي اتسعت مملكته.

17 - رسالة عمر بن حدو الريفي إلى ملك فرنسا لويس الرابع.

18 - A.G.P ; Martin, Quatre siècles d'histoire marocaine, au Sahara de 1504 à 1902 au Maroc de 1894 à 1912, Editions de la Porte, Rabat, 1994, Edition originale, Librairie Felix Alcan, Paris, 1923, pp. 68-69 et 102-103.

وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون صاحبه أنجزه استنادا إلى وثائق محلية غميسة. ومن جهة أخرى لأنه صادر عن ضابط فرنسي وقف على حقيقة أراضي المغرب التاريخية، وعلى استمرارية سيادته على أراضيه الصحراوية التي كانت فرنسا تنازعه فيها وتناوشه منذ احتلالها للجزائر سنة 1830م. ورغم أن هذا الكتاب كان جاهزا للنشر سنة 1908م - كما يذكر ذلك المؤلف في المقدمة - إلا أنه لم يصدر إلا سنة 1923م. وكان سبب تأخير صدوره أن فرنسا توجست منه خيفة نظرا للحقائق التاريخية التي تضمنها بخصوص أحقية المغرب في أراضيه التاريخية اعتمادا على المستندات المحلية التي تثبت السيادة المغربية على تلك الأقاليم طيلة الفترة التي يغطيها الكتاب، وهي أربعة قرون. لهذه الأسباب كلها مارس دهاقنة الإستعمار الفرنسي الضغوط على المؤلف كي لا يصدر الكتاب. وبما أن التسابق حول المغرب كان لا يزال محمومًا بين القوى الإستعمارية في ذلك الوقت، فقد تأخر صدور هذا الكتاب إلى غاية 1923، أي بعد أن تم فرض الحماية على المغرب سنة 1912م، ووضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها.

من القواد والعمال، وقد أورد هذا الباحث أسماءهم وتواريخ تعيينهم في قائمة تحمل خمسة عشر اسماً¹⁹.

وبعد وفاة السلطان مولاي إسماعيل سنة 1139هـ/1727م، شهدت البلاد تمزقا شديدا مثلما كان عليه الأمر بعد وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة 1012هـ/1603م. واستمر هذا الوضع مدة ثلاثين سنة، شهدت فيها البلاد تدهور السلطة المركزية وتدني التجارة²⁰. وعلى الرغم من تلك الأزمة السياسية الخانقة، لعبت الصحراء المغربية دورا مهما في تقويم الوضع والمساعدة على تجاوزه. وجدير بالذكر هنا، أن مولاي عبد الله لجأ خلال هذه المرحلة إلى الصحراء لدى أخواله المغفرة، حيث مكث هناك ثلاث سنين، رفقة نجليه مولاي أحمد وسيدي محمد الذي أصبح بعد ذلك وليا للعهد. فبعد أن تمت تولية السلطان مولاي عبد الله استقر حكمه إلا في الولاية الثالثة بعد رجوعه من الصحراء.

وهكذا، ما إن تولى السلطان مولاي عبد الله زمام الأمور هذه المرة، حتى عقد العزم على تجديد العهد مع الأقاليم الصحراوية الجنوبية. ففي سنة 1143هـ/1730م «خرج غازيا بلاد السوس فقدمها ومهدا وعاد مؤيدا منصورا...»²¹. ومارس السلطان على مجال الصحراء سلطته، وتجلى ذلك من خلال تعييناته للقواد على تلك المناطق. وقد أورد مارتان أسماء بعضهم على الشكل التالي: باحو أو علي سنة (1141هـ/1729م) أبو الحسن بن علي سنة (1146هـ/1734م - 1148هـ/1736م)، الجيلالي الصفار سنة (1149هـ/1737م) الذي أعيد تعيينه للمرة الثانية، ربما لما اكتسبه من تجارب، ولمعرفته بأمور المنطقة وأهلها حينما كان قائدا عليها أيام السلطان مولاي إسماعيل²².

وبوصول سيدي محمد بن عبد الله بن إسماعيل إلى الحكم (1171هـ/1757م) أدخل سلسلة من الإصلاحات ركز فيها على استتباب الأمن والاستقرار وتقوية الجهاز الدفاعي. كما تميز عهده

19 - وهم كالتالي: مولاي أحمد (المعروف أيضا بجهادي) (1676م)، مولاي الحران (1678م)، موسى بن بورنمة (1680م)، أحمد العمري (1681م)، أحمد بن أحمد (1682م)، أحمد الزرهوني (1685م)، أحمد بن علي الروسي (1688م)، عبد العزيز مسعود (1690)، ومحمد الصفار (1691)، أحمد بن عمور (1692م)، محمد الصفار (1693 - 1711م)، محمد الصفار والقائد الغازي (1712 - 1713م)، محمد الصفار (منفردا) (1713 - 1716م)، محمد الغنجاوي (1716 - 1718م)، الجيلالي - الصفار (1719 - 1722م)، حمدون الروندي (1722 - 1727م) مع العلم أن هذا الأخير كان تابعا لعامل سجلاسة سنة 1725م، وانتهت مدة قيادته سنة 1727.

A.G.P ; Martin , Quatre siècles, op. cit., pp. 68 - 69 et 102 - 103

20 - انظر تعاقب هؤلاء الأمراء على الحكم في كتاب بهيجة سيمو، البيعة ميثاق مستمر بين الملك والشعب، ص. 44 - 45.

21 - الناصري، الاستقصا، ج. 7، ص. 133.

22 - A.G.P ; Martin, Quatre siècles, op. cit., pp. 102-103.

بتشجيع التبادل التجاري، وتوطيد العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأوروبية ومع الدولة العثمانية. كما سجل له التاريخ قصب السبق في الاعتراف بالولايات المتحدة الأمريكية.

ومن هذا الباب، لدينا بعض نصوص الاتفاقيات والعقود المبرمة بين المملكة المغربية والدول الأجنبية، وكذا بعض الرسائل المتبادلة معها والتي تؤكد الوحدة الترابية للمملكة ومن ضمنها حدودها الشرقية منها والجنوبية، حيث يستنتج من خلال نصوصها حقيقة المجال الصحراوي، كما تم تحديده وضبطه في الماضي، وهو ما يتضح من خلال الألقاب الرسمية لسلطين المغرب الواردة في نصوص هذه الاتفاقيات وفي المراسلات التي تبين أن هؤلاء السلاطين خوطبوا بألقاب تبرز الاعتراف بنفوذهم على كل التراب المغربي، وهي ترسم أيضا تلك الحدود وتقر ممارسة السيادة المغربية على المناطق الصحراوية الجنوبية.

والواقع أن فترة السلطان سيدي محمد بن عبد الله، كانت زاخرة بالدلائل الشاهدة الموثقة للسيادة المغربية على أقاليمنا الصحراوية، وما علينا سوى استحضارها. فوثائق المعاهدات المبرمة مع الدول الأجنبية، هي بمثابة حصانة للسيادة المغربية على أقاليمنا الصحراوية. وعلى سبيل المثال لا الحصر، تنص المادة الثامنة عشرة من المعاهدة المبرمة بين المغرب وإسبانيا في 29 ذي الحجة 1180/ 28 مايه 1767م، على أن السيادة المغربية الفعلية ممتدة إلى ما وراء وادي نون.

وتفيد رسالة السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى ملك فرنسا لويس السادس عشر، بتاريخ 1 شعبان 1191هـ/ 4 شتنبر 1777م، بأن بحارة فرنسيين تم أسرهم من طرف المغاربة في السواحل الصحراوية المغربية، ونص عبارة الرسالة: «فاعلم أن سفنا من سفن الفرنضيص، حرثوا بأقصا إيالتنا المباركة في الصحراء». وعلى إثر ذلك، تم عقد اتفاق حول شروط فك هؤلاء الأسرى، على أن يكون هذا الاتفاق قاعدة تسري بنودها سويا على الجانبين. وتبين هذه الرسالة أن أطماع الأجانب في الساحل الصحراوي المغربي ظلت متواصلة إلى هذا العهد، وأن حراسة تلك السواحل ظلت يقظة هي الأخرى من طرف ممثلي المخزن المغربي.

وجاءت الاتفاقية المبرمة بين المغرب والولايات المتحدة الأمريكية سنة 1200هـ/ 1786م، لتثبت مرة أخرى مجال السيادة المغربية في المناطق الصحراوية. فقد التزم السلطان سيدي محمد بن عبد الله بمقتضاها بتقديم المساعدة والحماية اللازمين للسفن التي تجنح في عرض سواحل الصحراء، إذ أن

نص البند العاشر يشير إلى ما يلي: «... وإذا ما حرثت سفينة [أمريكية] في وادي نون أو غيره» فإن رعاياها سيحفظون بالأمان المخزني إلى حين العودة إلى بلادهم²³.

وتعد معاهدات السلطان سيدي محمد بن عبد الله نموذجية في هذا الباب، لحرصه على حماية السواحل الصحراوية من كافة محاولات التدخل الأجنبي، بشكل مواز لضمان مراعاة القوانين الجارية في التنقلات البحرية الأوربية. وسيرا على هذا المنوال، أبرمت اتفاقيات مماثلة مع عدد من الدول الأوربية لحماية وضمان أمن وسلامة السفن²⁴. ونصوص تلك المعاهدات تحول لسلطين المغرب، على اختلاف الفترات الزمنية، سلطة حماية السفن الأجنبية وممتلكاتها بالمنطقة الصحراوية الواقعة فيما وراء وادي نون جنوبا، مما لا يترك مجالا للشك في إحاطة سيادة المخزن المغربي بحدودها وكافة أرجائها. وهو ما يترجمه تعيين السلطان لقواد حازمين مثل الباشا الطاهر (1758-1784م) وعلي بن الجيلالي الصفار (1784م)²⁵.

ومن جهة أخرى واصل السلطان سيدي محمد بن عبد الله شرفاء الأقاليم الصحراوية بظواهر التوقير والاحترام، ومن ذلك مثلا الظهير الشريف بتاريخ 11 ذي القعدة 1197هـ / 8 أكتوبر 1783م ينعم به على سيدي محمد بن عبد الله القندوسي «بجميع ما له وبيده من الأملاك الكائنة له بالغرفة».

ولما اعتلى السلطان مولاي سليمان عرش المغرب عام 1206هـ / 1792م، تميزت مرحلة حكمه بظرفية تاريخية خاصة، تمثلت على المستوى الأوربي في قيام الثورة الفرنسية، وعلى المستوى المشرقي بالحركة الوهابية. وقد أثرت تلك الوضعية على التوجهات السياسية للسلطان. فكان من أهدافه البارزة، مساعيه لإصلاح العقيدة ومحاربة البدع الشائعة، والإبقاء على تبني تصوف سني عملي في الدين والتمسك بالمذهب المالكي على المستوى الفقهي.

ولا يمكن استثناء المعاهدات والاتفاقيات التي أبرمها السلطان مولاي سليمان مع الدول الأجنبية، وهي بدورها مؤكدة للسيادة المغربية على الساحل الصحراوي المغربي، حيث ورد في الإتفاقية المبرمة مع إسبانيا في 22 رمضان 1213هـ / 1 مارس 1799م في شرطها 22 أنه «إذا حرث مركب

23 - وقعت الاتفاقية في 1 رمضان 1200/28 يونيو 1786م. التازي عبد الهادي، التاريخ الدبلوماسي ج. 9، ص 297.

24 - يتوفر أرشيف مديرية الوثائق الملكية على عدد هام من نصوص الاتفاقيات المبرمة مع بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال والدانمرك والسويد وهولندا وبلجيكا والنمسا والولايات المتحدة، ترجع تواريخها إلى عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله ما بين 1757 و1790م.

25 - A.G.P ; Martin, Quatre siècles, op. cit., pp. 102 – 103.

لجنس اصبانيول فيما وراء سوس ووادي نون، فمن جهة المحبة التي لملك إصبانيا في سيدنا أيده الله يبحث كل البحث ويستعمل عزمه في استنقاذ رعية المحرثين بما أمكن إلى أن يرجعوا لبلدهم».

وفي نفس المضمار، نشير إلى الاتفاقية التي عقدها هذا السلطان مع بريطانيا العظمى في 2 صفر 1216هـ/14 يونيو 1801م حيث جاء في بندها الثالث والثلاثين «إذا حصل تحرث لمركب الإنكليز بوادي نون أو بناحية من سواحله، فإن سلطان مراكش يستعمل جهده في تحصيل بحريته حتى يركبوا إلى بلادهم». وفي هذا السياق، اعتنى السلطان مولاي سليمان بدوره بالأقاليم الصحراوية على سنة أسلافه، فعين على إقليم توات القائد الحاج محمد بن القائد الحاج العباس بظهير مؤرخ في فاتح محرم سنة 1211هـ (7 يوليوز 1796م)، وأعفاه بظهير آخر مؤرخ في 28 صفر 1215هـ/21 يونيو 1800م²⁶، حيث جاء في مضمون هذه الرسالة: «وجعلنا لكم أمنا ثقة من خيار أهل بلدكم وهم شهداء على من يظلمكم»²⁷. وقد كان عدد الذين شملتهم التعيينات اثني عشر فردا، زيادة على الفقيه العمدة العلامة البركة سيدي محمد بن عبد الرحمان. أما تيكورارين فقد عين عليها عشرة وجهاء من عليّة قومها لتدبير أمورهما، وهم الذين وصفهم بأنهم «من تقبل عندنا شهادتهم في الدماء والأموال وحقوق المسلمين، فمن شهدوا بظلمه والفعل الذي لا ترضاه منه أمضينا حكم الله فيه بشهادتهم»²⁸. وتبين هذه الرسالة أنه كلما تأكد لسلطان المغرب تعسف وجور أحد قواده إلا وعزله فوراً إرضاء لرعيته وإيمانا منه بإشاعة العدل إحقاقاً للحق²⁹. وظل السلطان مولاي سليمان يتابع أحوال الجهات الصحراوية عن كثب، ويتفقد شؤونها إلى أن نظم حملة عسكرية سنة 1808م قصد ضبطها وتحصيل الجبايات³⁰. كما رتب مواكب الحج في هذه المناطق على العادة المألوفة وبعث برسائله لركب الحجيج بتيكورارين سنة 1232هـ/1817م³¹.

26 - تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الإيالة السعيدة من القصور ووثائق أخرى، مطبوعات القصر الملكي العامر، المطبعة الملكية، الرباط، 1381هـ-1962م، ص 13-14.

A.G.P. Martin, quatre siècles, op. cit., pp.87-88.

27 - تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات.

28 - المرجع نفسه، ص. 13-14.

29 - A.G.P. Martin, quatre siècles, op. cit., p 123.

30 - وقد أورد مارتان نقلا عن السيد الحاج عبد القادر بن سيدي عمر التلاني أن السلطان مولاي سليمان طلب من أهل توات عن طريق عامله على سجلماسة الشريف مولاي هاشم، تنظيم الحجيج. وامتنالا لأمره، توجه ركب حجيج توات إلى تدكلت مرورا ببو علي، وبعد ذلك توقف ببلدة عين صالح التي تم استقباله فيها من طرف مجموعة من الفرسان والنساء، كما هي العادة في مثل هذه المناسبة. وهناك انتظر الركب تسعة أيام حتى التحق به ركب حجيج تيكورارين ليتابع الجميع سيره في اتجاه البقاع المقدسة. A.G.P. Martin, quatre siècles, op. cit., p 128.

31 - A.G.P. Martin, quatre siècles, op. cit., p 128.

وما إن وصل السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام سنة 1238هـ/1822م إلى الحكم، حتى جددت القبائل الصحراوية البيعة له، وعين القاضي مولاي أحمد بن هاشم خليفة له بتوات. ومن أجل التوصل إلى التحكم أكثر في الحدود الشرقية والجنوبية، بعث برسالة إلى أهل توات وتيكورارين يؤكد فيها إقراره للشريف مولاي أحمد بن هاشم السالف الذكر قاضيا عليهم وممثلا له بالمنطقة، حاثا إياه على ربط الاتصال مع عامله على تافيلالت الشريف مولاي أحمد بن عبد الواحد. كما أخبره بأنه أسقط الزكاة عن سكان تلك المنطقة، إسوة بما فعله سلفه مولاي سليمان، شفقة منه عليهم، لما كانوا عليه من فقر وعوز بسبب الجفاف وقلة الموارد، مشيرا إلى أن هذا هو السبب الذي جعله يحجم عن إرسال العمال إلى المنطقة، لأن ذلك سيزيد من إثقال كاهلهم. ومما أمر به نفس السلطان قاضيه السالف الذكر أن يقوم بتوزيع الزكاة على الفقراء، وأن يخصص قدرا معيناً منها لصيانة المساجد. كما أخبره أنه سيتلقى منه قدرا ماليا ينبغي توزيعه على الشرفاء العلويين والأدارسة بالمناطق الصحراوية، وهدايا أمر بإيصالها أيضا إلى أضرحة المنطقة. وفي هذا الصدد أيضا، قام بتعيين المرباط بومدين القندوسي خلفا لأبيه في الزاوية بتاريخ 17 ذي الحجة 1242هـ/12 يوليو 1827م³². كما أسدل نفس السلطان رداء التوقير والاحترام على أصحاب المعيزات من قبيلة مجاط الصحراوية بتاريخ 13 شوال 1244هـ/18 أبريل 1829م.

ومن جملة ما تبينه الوثائق إبرام السلطان مولاي عبد الرحمان اتفاقية مع بريطانيا العظمى بتاريخ 18 جمادى الأولى 1239هـ/20 يناير 1824م والتي بمقتضى شرطها الثالث والثلاثين يلتزم السلطان أنه «إذا حصل تحريث لمركب الإنكليز بوادي نون أو بناحية من سواحله، فإن سلطان مراكش يستعمل جهده في تحصيل بحريته حتى يركبون إلى بلادهم»³³، ولا يخفى ما في ذلك من إقرار لسيادة السلطان على تلك المناطق. وهو ما تؤكد معاهدة أخرى أبرمها مع الولايات المتحدة الأمريكية في 3 جمادى الثانية 1252هـ/15 شتنبر 1836م.

وتبين الوثائق موقع الصحراء المغربية في السياسة الامبريالية. فإذا كان المغاربة قد نجحوا في تحرير عدد من المراكز التي احتلتها إسبانيا والبرتغال، فإن الوضع قد تغير في بداية القرن التاسع عشر، عندما أخذت السياسة الغربية الحديثة في التأثير على سائر دول العالم الإسلامي. وأسفر ذلك عن تعرض بعضها للغزو وفق خطة مرسومة. ولم يبق المغرب بمنأى عن تلك التطورات، بل عاش

32 - اتفاقية بين المغرب وبريطانيا العظمى بتاريخ 18 جمادى الأولى 1239هـ/20 يناير 1824م.

33 - الشرط الخامس من الاتفاقية المبرمة بطنجة، يوم 10 شتنبر 1844م بين المغرب وفرنسا.

خلال هذا القرن تحولات سياسية مهمة موازية لما كان يجري في دول العالم الإسلامي والعربي. وكان من بين الأزمات التي حلت به في النصف الأول من القرن التاسع عشر، احتلال فرنسا للجزيرة الجزائر سنة 1830م، وهي الأزمة التي حتمت على المخزن المغربي التدخل لنصرتها والدفاع عن حدوده الشرقية وعن استقلاله بشكل عام.

وتبين الوثائق، تزايد اهتمام الأوروبيين بالساحل الصحراوي المغربي خلال المرحلة الموالية لهزيمة تطوان سنة 1267هـ/1860م، لاعتبارهم هذا الساحل بوابة استراتيجية للدخول إلى بلاد السودان الغربية. ومما زاد الساحل المغربي أهمية آنئذ أن ميناء الصويرة (موكدور) استقطب تجارة القوافل الصحراوية. فمنه كانت تصدر إلى أوروبا منتجات بلاد السودان من ريش النعام والعاج والصمغ وغيرها... وأثناء رجوعها صوب الجنوب، كانت القوافل تحمل معها أثواب منشيستر والسكر والشاي والقهوة والتبغ والملح، فكانت بالفعل تعرف ازدهارا تجاريا، جلب في سياق التنافس الاستعماري على المناطق المغربية، أطماع المعمرين، وآثار أنظارهم إليها فتسابق التجار عليها، وغدت قبلة للرحالة وللبعثات الاستطلاعية، خدمة للأهداف السياسية والاقتصادية. ونذكر في هذا السياق محاولات بعض المغامرين التجار الاستقرار ببعض المراسي الصحراوية مثل وادي نون وبوجدور والرأس الأبيض.

وهكذا نشطت الشركات البحرية المنظمة مثل الشركة الفرنسية باكي (Paquet) ومثيلتها الإنجليزية موروكوس لاين (Morocco's Line) ومعها الشركة الجغرافية الإيطالية، (Societa Geografica Italiana) لتوظيف الصحراء في زخم التنافس التجاري الموازي للتسابق الاستعماري، حيث ركزت الدول الأوروبية الاستعمارية منذ بداية القرن التاسع عشر على الساحل المغربي الصحراوي الجنوبي، وبالضبط على المنطقة الممتدة من جنوب مدينة الصويرة على طول الساحل إلى نهر السنغال.

لم يكن قصد تلك الدول اقتصاديا فحسب، بل كانت تستهدف من وراء استطلاعاتها تحويل الساحل الصحراوي في مراحل لاحقة إلى مراكز تجارية وقواعد عسكرية، تمكنهم من تزويد السفن العابرة في اتجاه مستعمراتها بأرخبيلات المحيطين الهادي والهندي، حيث فرضت إسبانيا بعد نكسة تطوان سنة 1276هـ/1860م على المغرب، التنازل عن منطقة سمتها سانتا كروز دي ماريكيينا³⁴ Santa

34 - بهيجة سيمو، العلاقات المغربية الإيطالية، 1869 - 1912، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، الرباط، 2003، ص 131 إلى 148.

(Cruz de Mar Pequeno). وتمسكت إسبانيا بإقامة مراكز لها في الساحل الجنوبي المغربي، فحاولت أن تستميل بعض الزعامات المحلية أمثال آل بيروك وآل تزرؤالت، غير أنها لم تفلح نتيجة يقظة الجهاز المخزني. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الصحراء مسرحا لتنافس أرباب المشاريع التالية :

- مشروع الجنرال مينابريا الإيطالي، وهو يتلخص في إرسال السفينة الحربية الإيطالية، إيطوري فييراموسكا (Ettore Fieramosca) سنة 1869/1285م، قصد إقامة مستعمرة إيطالية بالمنطقة الجنوبية على ساحل وادي نون، ومن حسن الحظ أنه مني بالفشل، لتصدي العمال المراقبين للسواحل الصحراوية لهذه العملية.

- مشروع ماكينزي البريطاني³⁵ المعروف بـ (the flooding of the Sahara)³⁶ : مؤداه شق قناة لإيصال مياه المحيط إلى جوف الصحراء المغربية بغية إنشاء «بحر داخلي» مساحته تصل إلى 90 مليون هكتار أي ما يقارب ضعف مساحة فرنسا³⁷. والمعروف أن ماكينزي تمكن بداية من إقامة مركز تجاري بين وادي نون ورأس بوجدور إلا أن ذلك لم يدم طويلا لتصدي المغاربة له. ومن نفس المنظور أقدمت بريطانيا العظمى سنة 1291هـ/1875م على تأسيس شركة شمال غرب إفريقيا (North-West African Company) متسترة تحت أغراض تجارية لتحقيق أهداف سياسية محضة.

ولدراسة هذه الحقبة بعمق سيظل كتاب ر. ريزيت (Robert Rezette) حول الصحراء المغربية³⁸ مرجعا مهما لما يتضمنه من حقائق تاريخية لا يرقى إليها الشك، خصوصا إذا علمنا أنه اعتمد المرجعية التاريخية والقانونية في التحليل، والمنطق القانوني في التأويل، فجاء الكتاب دراسة علمية قيمة تتميز بالضبط الدقيق والرصين المبني على رصيد وثائقي مهم، واستخلص منها شرعية مغربية الصحراء.

وتبرز الوثائق الملكية، أنه بعد مضي سنة واحدة فقط على مشروع ماكينزي، بادرت إسبانيا كذلك إلى التفكير في تأسيس شركة الصيد الكنارية الإفريقية سنة 1299هـ/1881م، ولم يكن امتلاك المنطقة سهلا مثلما زعمت، إذ تجري الرياح بما تشتهي السفن نظرا لمقاومة المغاربة للأطماع الإسبانية.

35 - يمكن الإشارة إلى المراسلات التالية : 9 رمضان و17 ذي الحجة 1297 و22 صفر و5 ربيع الأول 1298هـ و10 جمادى الأولى 1300هـ و7 ربيع الأول 1303هـ.

36 - ورد في :

Géographie universelle, tome XI, l'Afrique septentrionale, Paris, 1886, VII Sahara occidental, p. 868-871.

37 - المصدر نفسه، ص. 868.

38 - Robert Rezette, le Sahara Occidental et les frontières marocaines, Editions Latines, Paris, 1975

وفي يوم 14 محرم 1302هـ / 3 نونبر 1884م، نزل بونيلي (Bonelli) بساحل الداخلة وشيد بناية من الخشب جعل منها مركزا تجاريا سماه فيلا سيسنيروس (Villa Cisneros).

ولم يقف السلطان مولاي الحسن مكتوف اليدين أمام هذا التنافس المحموم الجاري بين القوى الاستعمارية على الساحل الصحراوي، فحرصا منه على الوحدة الترابية وثبتت سيادته على جميع الأراضي المغربية، بادر السلطان إلى تعيين الشيخ ماء العينين نائبا عنه في الصحراء المغربية كلها بموجب ظهير مؤرخ في 12 ربيع الثاني 1296هـ / 5 أبريل 1879م، واصفا إياه بالسوسي الصحراوي لما كانت له من كلمة مسموعة في تلك المناطق وللتقدير الكبير الذي كان يحظى به الشيخ لدى قبائل السوس والصحراء. ولم تغب هذه المناطق أيضا، عن اهتماماته التفقدية، فقد أرسل سنة 1297هـ / 1880م وفدا إلى أحمد ولد محمد أمير أدرار محملا إياه هدية وظهير إقراره عاملا على تلك المنطقة شاكراله حسن تدبيرها.

وتشهد الوثائق التي بين أيدينا على المجهودات الجبارة التي قام بها هذا السلطان فيما يتعلق بتدبير الشؤون الصحراوية العامة، ولا سيما فيما يهم حماية السواحل الممتدة من وادي نون إلى الداخلة، حيث تتضمن عدة رسائل موجهة من قبل السلطان مولاي الحسن إلى محمد بركاش في شأن الدول الأجنبية التي توجه سفنها إلى السواحل الجنوبية للاستقرار بها ومزاولة التجارة مع أهلها، ولم يتوان المخزن عن تسخير جهوده لإفشال محاولات الأجانب وصدده عن تحقيق أطماعه³⁹. وتدخل في هذا السياق الرسالة التي وجهها السلطان إلى ممثل إسبانيا بالمغرب جاء فيها: «إن المراسي التي بين بلاد السودان وبين وادي نون كلها مشهورة معروفة، والقبائل المعمرة للسواحل التي بها كلها مبايعة للحضرة الشريفة، سامعة مطيعة لها، وإخوانهم في الخدمة الشريفة نازلون بنواحي مراكش وفاس، وهم الرحامنة وتكنة وأولاد دليم وزرارة وأولاد بوسبع، وغيرهم. وقد جعل المخزن العمال بجل تلك القبائل ورتب العسات بجل تلك المراسي»⁴⁰.

وتوضح الوثائق أيضا أن المناطق الصحراوية لم تكن بعيدة عن تفقد ومراقبة السلطة المخزنية المركزية، وأكثر من هذا أنها نالت نصيبها من الحركات السلطانية. حيث نظم السلطان مولاي الحسن حركته الشهيرة إلى سوس الأقصى سنة 1299هـ / 1882م⁴¹ لإعادة استتباب الأوضاع وتهديتها

39 - وثائق تواريجها : 22 رمضان و 26 شوال و 19 ذي الحجة 1297هـ، و 16 ذي القعدة و 25 ذي الحجة 1299هـ، و 16 ربيع الثاني و 4 رمضان، و 10 جمادى الأولى، و 3 جمادى الثانية، و 4 رمضان 1300هـ، و 7 ربيع الثاني 1301هـ.

40 - رسالة موجهة إلى ممثل إسبانيا في المغرب بتاريخ 18 شعبان 1303هـ / 22 ماي 1886م.

41 - مراسلات : 30 شوال و 2 ذي الحجة 1297هـ، و 7 شعبان، و متم شعبان 1299هـ، و 2 رمضان 1299هـ، و 15 جمادى الأولى 1300هـ.

وخاصة العمل على ردع كل من سولت له نفسه التعامل مع الأجانب. وبمجرد اطمئنانه على أحوال المنطقة السوسية، توغل في الأراضي الصحراوية ووصل إلى واد لغات، حيث التف حوله المرابطون والفقهاء والأشياخ والقضاة والعمال. وبنفس المناسبة، ظهرت عناية السلطان بالصحراء لضبط شؤونها، فقام بتعيين القائد الحسين أهاشم بصيرة وعمدة المخزن على المنطقة وعمها المعينين، الذين كان منهم مسعود الراشدي ومحمد بن قاسم الحمياني.

وهكذا كان السلطان مولاي الحسن واعيا بالأخطار المحدقة بالبلاد وبتبعاتها على الأقاليم الصحراوية، فكثف معها الصلات. وكانت الساقية الحمراء يومئذ تشهد حركة ثقافية وروحية وسياسية نشيطة بزعامة الشيخ العلامة الشريف ماء العينين، الذي رفع لواء الجهاد ضد النصارى، وربط علاقات مع علماء شنقيط، ورافق السلطان مولاي عبد الرحمان لأداء مناسك الحج. وأثناء رجوعه أقام بتندوف سنة 1857م، ومنها انطلق نحو الساقية الحمراء، واتصل بقبائل الركيبات فأمدوه بالرجال الذين كانوا يده اليمنى في محاربة الأوربيين. وشملت تحركاته وادي درعة وأدرار بموريطانيا لايقاظ السرائر وإذكاء الوعي الديني والسياسي للسكان. وكان لذلك نتائج محمودة، إذ ساهمت القبائل إلى جانبه بشكل فعال في ردع الإسبان عن إقامة منشآتهم على الساحل الصحراوي ابتداء من سنة 1260هـ/1884م.

وكان الشيخ ماء العينين على اتصال وثيق ودائم مع السلطان مولاي الحسن. لقد زاره عدة مرات في مراكش، ولم يجد صعوبة في اقناعه بأهمية مشاريعه الرامية إلى النهوض بتجارة القوافل الصحراوية، وذلك ببناء مدينة تجارية كبرى هي السهارة بالساقية الحمراء، والتي أراد لها أن تكون سوقا تجارية كبيرة تبرز فيها الصفقات التجارية بين المغرب ومناطق السنغال وبلاد السودان.

ولما أصبح التنافس الإمبريالي شديدا بين الدول الاستعمارية حول الأراضي الإفريقية، تم عقد مؤتمر برلين سنة 1885م لتوزيع المستعمرات الإفريقية بين الدول الأوروبية. إذاك تشجعت إسبانيا لترسيخ نفوذها في الأقاليم الصحراوية المغربية، فبادرت إلى إقامة منشأة في الداخلة متذرة في ذلك بحقوق واهية لا قيمة لها في القانون الدولي. وعلى إثر ذلك تعرض مشروعها الواهي لهجوم من قبل بعض القبائل ومن بينهم أولاد دليم. وتكررت تلك الهجمات مما اضطر إسبانيا أن تسلك طرقا ملتوية لانتزاع اعتراف بتلك الادعاءات من المغرب، لكن ذلك لم يجد نفعا، إذ طلبت من محمد بن العربي الطريس عن طريق وزيرها المفوض بطنجة، أن يحدث السلطان مولاي الحسن في موضوع

حدود المغرب الجنوبية على اعتبار أن إسبانيا «تملك منطقة اسمها وادي الذهب وترغب في ألا تقيم دولة أجنبية أخرى بين الدولتين»⁴².

وقد وقفنا في الوثائق على جواب السلطان مولاي الحسن المبرز لهذا الادعاء، بموجب رسالة مؤرخة في 4 رمضان 1303هـ/ 6 يونيو 1885م موجهة إلى نائبه محمد بن العربي الطريس، وهو رد صريح يقوم على ثوابت شرعية ومرجعية تاريخية موثقة⁴³.

وتفيد الوثائق من جهة أخرى، أن السلطان مولاي الحسن لم يغيب عن المناطق الصحراوية طويلا، إذ سرعان ما نظم حركة تفقدية ثانية انطلقت من مراكش يوم 7 جمادى الثانية 1303هـ/ 13 مارس 1886م⁴⁴. ونتوفر على رصيد مهم من الوثائق متعلقة بهذه الحركة، وهي تبين بجلاء مجمل الحصيلة المترتبة عن دقة البرمجة التي حظي بها تنظيم الحركة السلطانية، وتقاطر وفود القبائل الصحراوية التي هبت من كل حذب وصوب لاستقبال مولاي الحسن. وكان من نتائج ذلك تعيين السلطان للعديد من قواد المخزن بتلك المناطق بصفتهم رعاة السيادة المغربية وحماة أمانتها وحدودها. ونذكر من بينهم القائد دحمان بن بيروك المعين بظهير شريف يعود إلى سنة 1306هـ/ 1889م⁴⁵. ولم يغفل نفس السلطان الجانب الشرعي بهذه المناطق، حين عمل على تجديد خطة القضاء وذلك بتعيينه للقاضي أحمد بن محمد الأعمش الجكني سنة 1303هـ/ 1886م. وهناك مجموعة من الظواهر التي أصدرها السلطان مولاي الحسن لإسداد أردية التوقيير والاحترام على مجموعة من أعيان ومرابطي وشرفاء القبائل الصحراوية، وذلك وفقا للتقاليد المخزنية المألوفة، أفرادا وجماعات، كالمرباط إبراهيم بن علي بن محمد التكني الذي حظي بظهير السلطان مولاي الحسن سنة 1303هـ/ 1886م وتكليفه بحراسة الشواطئ الصحراوية.

وحينما أصبح الاستعمار الفرنسي وشيك الانقضا على النيجر، ذكر السلطان مولاي الحسن بسيادته على مدينة تومبوكتو. وقد تأكد ذلك من رفض أعيانها التفاوض مع بعثة الفرنسي كارون (Caron) سنة 1891م وإعلانهم أنهم مرتبطون بسلطان المغرب وبالتالي فلا يمنع عليهم دخول المدينة. وعقب ذلك بعث أعيان تومبوكتو إلى السلطان مولاي الحسن رسالة يطلبون فيها تعيين عامل على

42 - رسالة بتاريخ 4 رمضان 1303هـ/ 6 يونيو 1885م.

43 - جواب السلطان مولاي الحسن عن رسالة النائب محمد بن العربي الطريس، بتاريخ 4 رمضان 1303هـ/ 6 يونيو 1886م.

44 - مراسلات: 12 جمادى الثانية و 14 شعبان 1303هـ.

45 - هناك رسائل عديدة متعلقة بدحمان بن بيروك، مثل مراسلة رمضان 1300هـ و 9 شعبان 1303هـ و 17 ربيع الأول 1304هـ.

المدينة. فأجاب السلطان على عرض هؤلاء الأعيان بما يلي : «إن الفرنسيس كان راودكم على البيع والشراء، وأجبتموه بأنكم في طاعتنا، ولا تفعلون معه شيئا إلا بإذننا الشريف [...] وطلبتكم من شريف جنابنا إغاثتكم وإعانتكم». وأضاف : «حاولنا الكلام مع الفرنسيس في شأن كفه عنكم ورفع يده عن التغلب عليكم، الواقع بلا قاعدة. فاقترضت السيرة الاصطلاحية التوقف على الحجة بكونكم تحت إياتنا السنية، ومن جملة مملكتنا المرعية، ليحتج بذلك على الفرنسيس. وعليه، فإن كانت لديكم مكاتبات من أسلافنا الكرام المقدسين في دار السلام، أو ظهائر شريفة قديمة، أو إشارة يقينية، فوجهوا لنا ما تحصل به الحجة من ذلك، لنحاجه به، ويسلم أنكم تحت إياتنا السعيدة»⁴⁶.

تؤكد هذه الرسالة أهمية الوثيقة في إثبات شرعية الحكم. وهكذا لم تتمكن فرنسا من الاستيلاء على تومبوكتو إلا في سنة 1894⁴⁷، وباحتلالها أحكمت سيطرتها على المحور الطرقي المهم بالنسبة لتجارة القوافل بين هذه المدينة ومدينة سان لوي. ومما زاد الأمر تعقيدا أن هذه السنة صادفت وفاة السلطان مولاي الحسن. ورغم الضغوط الشديدة التي مارستها فرنسا على المغرب سياسيا واقتصاديا وماليا وعسكريا خلال المرحلة العزيرية (1310-1325هـ/1894-1908م)، فإن السلطان مولاي عبد العزيز لم يأل جهدا في تأكيد السيادة المغربية على جميع ترابه، وخاصة في أقاليمه الصحراوية، عاقدا آماله على رجالها وشيوخها وشرفائها لصد العدوان الأجنبي ورفع التحديات. وعديدة هي النصوص التاريخية تشهد على المجهودات التي بذلها المغرب في هذا الباب.

فما أن بويع السلطان مولاي عبد العزيز، خلفا لوالده السلطان مولاي الحسن، حتى عجل بتأمين سيادته في المناطق الصحراوية، وترسيخ مجالها وضبط حدودها، فكتب القائد دحمان بن بيروك التكني، أمرا إياه بتنفيذ الأحكام السلطانية في الأقاليم الصحراوية مقرا حدودها في السودان جنوبا، محتكما في ذلك إلى المرجعية التاريخية قائلا : «إن ما وراء الساقية الحمراء كله من حساب إيالة المغرب، ومن جملته الطرفاية التي بها أزركيين، والمنظر وسنكال، لكون حدود هذه الإيالة هو السودان، بل كان المنصور السعدي له الحكم حتى عليه»⁴⁸. وكانت هذه الرسالة ردا صريحا على ادعاءات الأجانب ونشرهم لمغالطات حول حدود المغرب التاريخية، في سياق التنافس الأوروبي على الساحل المغربي.

46 - جواب السلطان مولاي الحسن عن رسالة البشير بن محمد التلموذي بتاريخ أواسط رمضان 1311هـ/أواخر مارس 1894م.

47 - Robert Rezette, le Sahara Occidental et les frontières marocaines, op. cit

48 - جواب السلطان مولاي عبد العزيز عن رسالة القائد دحمان بن بيروك بتاريخ 3 رمضان 1312هـ/28 فبراير 1895م.

ولإحكام السيطرة على المناطق الصحراوية، عين السلطان مولاي عبد العزيز عددا من القواد، منهم إبراهيم بن مبارك الشتوكي المعين على جزء مهم من قبيلة تكنة بتاريخ 20 ذي القعدة 1313هـ/ 3 مايو 1896م، والقائد محمد الأمين بن علي التكني سنة 1316هـ/ 1899م على الجزء الآخر من نفس القبيلة، بالإضافة إلى إشرافه على قبائل تدرارين⁴⁹. وسنة قبل ذلك، تم تعيين إدريس الدليمي على أولاد دليم، كما عين القائد سليمان العروسي سنة 1324هـ/ 1907م على قبيلة كراح التابعة لاتحادية تكنة. أما قبيلة المناصرة من إزركيين المدرجين في اتحادية تكنة فقد أضيفت إلى القائد إبراهيم بن مبارك الشتوكي بظهير شريف سنة 1317هـ/ 1900م.

وتبرز الوثائق متانة العلاقة التي كانت تربط بين السلطان مولاي عبد العزيز والشيخ ماء العينين، فقد سارع هذا الشيخ إلى رفع رسالة تعزية ومواساة أجاب عنها السلطان في 25 ربيع الأول 1312/ 26 شتنبر 1894 بحس مرهف واعتبار وتقدير، وفيها: «وصل كتابك هاديا لحسن التأسي والاعتبار في مصاب مولانا الوالد المقدس، الذي استسقى ماء العينين من محاجر الأبصار، ومرشدا إلى حسن الرجوع وكمال الاستسلام إلى من جعل الحياة مستعارة في الأجسام، سبحانه لا معقب لحكمه ولا مانع لما أبرزته قدرته عن تخصيص إرادته على وفق علمه...»، إلى أن يقول «وأما تهنيتك لنا بما طوقنا الله من أمر عباده، واستخلفنا به في أرضه وبلاده، فقد استروحنا منها أتم البشائر، وتلمحنا فيها ما لاحظناه في نجوى الضمائر، واعتبرناها في مقام الاستمداد عدة، وتحققنا فيها بتأثير سر الأخذ وصدق المودة».

بل أكثر من ذلك، فقد ورد الشيخ لزيارته وتقديم البيعة له عند توليته، فما كان من السلطان تقديرا له ولمكانته العلمية الرفيعة، إلا أن وضع رهن إشارته باخرة «بشير الإسلام بخوافق الأعلام»⁵⁰ أقلته من السويرة إلى طرفاية حيث عاد منها برا إلى السمارة. كما أصر السلطان مولاي عبد العزيز على تمتين علاقاته مع المجاهد الشيخ ماء العينين وخاطبه بالإبقاء على العادة التي كان المولى الحسن رحمه الله نفذها له على يد أمناء السويرة، فقال: «قد أقررناك عليها وتضعيفا لها، وأمرنا خدامنا أمناء المرسى المذكورة بذلك، ليسلكوا فيه باستمرار التنفيذ أحسن المسالك، إثارا لمزيد المبرة بك ورعيا لخصوصيات جانبك»⁵¹.

49 - ظهير للسلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 3 رمضان 1316هـ/ 15 يناير 1899م.

50 - بهيجة سيمو، الإصلاحات العسكرية بالمغرب، 1844 - 1912م، منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، المطبعة الملكية، 2000، ص. 335.

51 - رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى الشيخ ماء العينين بتاريخ 30 ربيع الأول 1312هـ/ 1 أكتوبر 1894م.

وساهم السلطان مولاي عبد العزيز بشكل كبير في إتمام بناء مدينة السمارة حيث بعث إليه باخرة من ميناء أكادير إلى الساقية الحمراء، تحمل كميات وافرة من مواد البناء. وأرسل إليه المهندسين والصناع من فاس وتطوان وطنجة لبناء قصبة المدينة، وهي معدودة من رموز السيادة على الأرض، إذ تكون مقرا للعامل والجنود الذين يمثلون السلطة الحاكمة في البلاد. ولربط هذه المدينة الصحرواية الجديدة بشمال المغرب عبر سوس، تم شق طريق يربط بينها وبين تافراوت.

وتعددت أوجه التواصل بينهما، حيث تميزت علاقتهما بتكرار زيارات الشيخ ماء العينين للسلطان الذي كان يقابله بحسن الوفادة والاستقبال⁵². وعديدة هي المراسلات التي تفصح عن علو المكانة التي حظي بها الشيخ ماء العينين من لدن هذا السلطان الذي خصه بإنعامات كثيرة كما يسر له سبل التنقل، وعمل على تكثيف صلاته الثقافية والروحية مع بقية مناطق المغرب، وتجلى ذلك في إنشاء السلطان زاوية بالحضرة المراكشية وتحييسها على الشيخ ماء العينين بمقتضى ظهير سلطاني مؤرخ في 23 رجب 1314هـ/28 دجنبر 1896م. وقد شكر الشيخ للسلطان صنيعه هذا في رسالة مؤرخة في 24 رجب 1314هـ/29 دجنبر 1896م. وجدير بالذكر أن الشيخ ماء العينين كانت له زاويتان أخريتان إحداهما في فاس والثانية في بني بوفروور بقبيلة قلعية، ولها فروع بالمنطقة وفي ذلك دليل آخر على التبادل الفكري والروحي بين شمال وجنوب المغرب⁵³.

ولما رجع الشيخ ماء العينين إلى الصحراء، أمر السلطان مولاي عبد العزيز أميني التعشير بمرسى السويرة بإنزاله في دار المخزن الكبيرة بقصبة المدينة وتقديم المؤونة له وكل لوازم السفر «وكل ما أراد وسقه لمدينة طرفاية» بواسطة البابور الذي وضعه السلطان رهن إشارته⁵⁴. وهو ما تكرر عدة مرات كلما قام الشيخ ماء العينين بزيارة السلطان⁵⁵. وفي هذا الصدد أيضا حبس السلطان مولاي عبد العزيز دارا في الدار البيضاء على الشيخ ماء العينين للنزول فيها متى قدم إلى هذه الحاضرة، وقد ورد ذلك في رسالة بعث بها الشيخ ماء العينين لأحد أبنائه بتاريخ 21 محرم 1316هـ/11 يونيو 1896م.

ومما جاء في رسالة أخرى رفعها الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز أنه وصل إلى أهله في أمن وسلام، مخبرا إياه بوفاة شيخ أدرار وأن «الذي كان مرسلا إليه من جهتك أعزكم

52 - رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 6 جمادى الثانية 1313هـ/24 نونبر 1895م.

53 - رسالة بتاريخ 29 ذي القعدة 1319هـ/9 مارس 1902م.

54 - جواب أميني التعشير بالصويرة عن رسالة السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 10 شعبان 1314هـ/14 يناير 1897م.

55 - رسالة بتاريخ 8 رجب 1320هـ/11 أكتوبر 1902م - رسالة بتاريخ 28 رجب 1320هـ/31 أكتوبر 1902م.

الله ها هو عندي، وما اقتضى فيه نظرکم نفعله إن شاء الله»⁵⁶. وعلى ضوء هذه الإشارة المقتضبة، يبدو أن الشيخ ماء العينين كان يقوم بأدوار متعددة أخرى، تتم عن كونه موضع ثقة، كإيصاله تعليمات السلطان وعطاءاته إلى قواده وشيوخ المناطق الصحراوية، ولزومه لمراسلة السلطان وإطلاعه على التطورات التي كانت تشهدها المناطق الصحراوية المغربية في تلك المرحلة العصبية وموافاته بأخبارها⁵⁷.

وقد شمل السلطان مولاي عبد العزيز كل من خدم زاوية الشيخ ماء العينين بالاحترام والتوقير كما هو حال عبد الله بن القائد السباعي وولديه، الذي ورد في ظهير توقيره ومن معه: «رعيًا لانحياسهم لمحبتنا الشيخ الجليل سيدي ماء العينين، وانقطاعهم في خدمة زاويته وركونهم إليه»⁵⁸. وحظيت زوايا الصحراء المغربية الأخرى بنفس العناية والتقدير الذي خصت به زاوية الشيخ ماء العينين فأسبغ عليها السلطان مولاي عبد العزيز ظهائر التوقير والاحترام، وكان من جملتها على سبيل المثال الزاوية القندوسية⁵⁹، وزاوية عمر والظاي وزاوية سيدي محمد سالم وزاوية الشرفاء السماعيل⁶⁰. وسيرا على نهج أسلافه، قام السلطان مولاي عبد العزيز بدوره بالإنعام على العديد من وجهاء المنطقة الصحراوية، بظهائر التوقير والاحترام، فكان من جملتهم سويد العين التكني.

ولما كان الشيخ ماء العينين عالما كبيرا، فقد استجازه عدد من الطلبة والفقهاء بالمغرب، وكان من جملتهم الأمير مولاي عبد الحفيظ الذي أجازته سنة 1322هـ/1904م «إجازة عامة شاملة لأنواع الإجازة، بحيث يستعمل نفسه ويعطي لغيره ممن رأى فيه الأهلية لذلك». وهي الإجازة التي كان قد وصفه فيها بـ «أبني وأبني حبيبي قرة عيني مولاي عبد الحفيظ بن مولانا الحسن نور الله ضريحه آمين»⁶¹. كما أجاز ستين بعد ذلك «إجازة عامة مطلقة تامة» الفقيه محمد بن الطيب الصبيحي الذي وصفه بالشاب الأنجب اللبيب الأحب⁶².

56 - رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 6 جمادى الأولى 1317هـ/ 12 شتنبر 1899م.

57 - انظر الوثائق التالية : رسالة بتاريخ 16 شوال 1315 / 10 مارس 1898 - رسالة بتاريخ 7 محرم 1318هـ/ 7 مايو 1900م - رسالة بتاريخ 2 رمضان 1321هـ/ 22 نونبر 1903م.

58 - ظهير صادر عن السلطان مولاي عبد العزيز مؤرخ في 6 ربيع الثاني 1318هـ/ 3 غشت 1900م.

59 - ظهير بتاريخ 25 جمادى الأولى 1319هـ/ 20 غشت 1901م.

60 - ظهير بتاريخ 1 رمضان 1320هـ/ 2 دجنبر 1902م.

61 - إجازة بتاريخ 11 جمادى الأولى 1322هـ/ 24 يوليوز 1904م.

62 - إجازة الشيخ ماء العينين للفقيه محمد بن الطيب الصبيحي بتاريخ 12 جمادى الأولى 1324هـ/ 13 يوليوز 1906م.

وعلى واجهة أخرى، تميزت هذه المرحلة العصبية من تاريخ المغرب المعاصر بتصاعد المد الاستعماري من خلال التوغل الفرنسي في أراضي المغرب وتطويقه من الجنوب والجنوب الشرقي واقتطاع أجزاء مهمة منه. واستخلصت بريطانيا العظمى العبرة من هذا التطور الجديد الذي خلفه دخول الفرنسيين إلى تومبوكتو، فبادرت إلى التخلي عن ميناء فكتوريا الذي أنشأته على الساحل الصحراوي لصالح المغرب معترفة بذلك بسيادة المغرب على هذه المنطقة⁶³. شرط تنازل مفاده «أن لا تكون لأية قوة أجنبية أخرى مطالب في الأراضي الواقعة بين وادي درعة ورأس بوجدور»⁶⁴ وهو ما التزم به المغرب طبعاً حفاظاً على وحدة أراضيه⁶⁵. وذلك بموجب الاتفاقية المبرمة سنة 1895م ما بين المغرب وبريطانيا العظمى، وهي معروفة بمعاهدة مراكش حول طرفاية التي تم فتحها «وتوجيه العسكر والطبجية لعمارتها وتعيين العامل لها»⁶⁶.

وبناء عليه، فقد عين السلطان العامل حماد الشباني والأمين الطالب إدريس بن عبد الجليل عليها، كما تفيدنا الوثائق بتعيين لجنة لتنفيذ الاتفاق المذكور. وما لبث أن شرع هذا العامل في تنفيذ الأحكام السلطانية، وبادر بإخبار السلطان مولاي عبد العزيز بالأحوال الاقتصادية والاجتماعية لسكان هذه المنطقة بموجب رسالة يفهم منها أن هذه الناحية تعرضت للجفاف وأن السلطان أغاثها بالماء: «وورد علينا البابور الحسني»⁶⁷ بنحو ثلاثين بوطه من الماء»⁶⁸.

وخلال هذه المرحلة التي ما فتئ فيها السلطان يرسخ دعائم حكمه على المغرب كله بما فيه الأقاليم الصحراوية. فما أن شرعت إسبانيا في التوسع في الصحراء المغربية، حتى كان ذلك مصدر قلق لفرنسا التي كانت لها نفس الأطماع، فحرصت على أن تحدد من ذلك، فدخلت معها في مفاوضات أسفرت عن توقيع اتفاقيات سرية وأخرى علنية ما بين سنة 1900 و1904م. هذا في الوقت الذي ظلت فيه القبائل الصحراوية والأخرى المجاورة للحدود المغربية تحتمي من أنياب الاستعمار بلواء تبعيتها للسلطان مولاي عبد العزيز، ومما ينهض دليلاً على ذلك، الرسالة المرفوعة إليه من طرف قبائل منطقة شنقيط ممن هم في بيعته «سلفاً عن خلف» معتبرين أن منطقتهم «لم يكن

63 - رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى النائب محمد بن العربي الطريس بتاريخ 19 رمضان 1312هـ / 16 مارس 1895م.

64 - اتفاقية بين المغرب وبريطانيا العظمى بتاريخ 16 رمضان 1312هـ / 13 مارس 1895م.
65 - Robert Rezette, le Sahara Occidental et les frontières marocaines, op. cit.

66 - انظر: جواب السلطان مولاي عبد العزيز عن رسالة القائد محمد بن حبيب التدراري بتاريخ 18 شوال 1312هـ / 14 أبريل 1895م.

67 - بهيجة سيمو، المرجع السابق، ص. 332.

68 - رسالة بتاريخ 19 جمادى الثانية 1313هـ / 7 دجنبر 1895م.

للنصارى سبيل عليها من قبل. وهذه البلاد فيها كثير من أهل الإيما الحقيقين، فمنها أدرار بلد واسع، قيم أمره خديمك سيدي أحمد بن عيد الذي عنده طابعك وهو في كثير من الرجال الأبطال أهل الحرب. ومنها بلاد تكانت، وقيم أمرها عثمان بن بكار بن سويد أحمد، ومعه من الرجال أهل النضال ما لا يحصى كثرة ومنها الحوض، وفيه من قبائل الإسلام ولله الحمد ما لا تسع الأوراق إحصاءه، من أوفر ما فيه قبيلة يقال لها مشظوف، وقيم أمرها اسمه محمد المختار بن محمد محمود بن لمحييد. وفيه قبيلة وافة أيضا يقال لها أهل سيدي محمود، وقيم أمرها سيدي المختار بن محمد محمود بن عبد الله بن سيدي محمود. وفيه قبيلة وافة أيضا يقال لها الأغلال. ومنها بلاد يقال لها القبلة، فيها قبيلة وافة أيضا يقال لها التراز، وقيم أمرها ابن محمد الحبيب. ومنها بلد يقال لها أفطوط في إيالة عثمان بن بكار. وهذا الذي سمي من القبائل إنما هو بعض ممن يحمل المكاحل من أهل تلك البلاد. وأما قبائل يقال لها الزوايا وما لم يذكر من أهل المكاحل، فالجميع لا يحصى كثرة والله الحمد والله يؤيد. وغير ذلك لك نرجوه. كما أنا إذ نرجو أن لا يخيب رجاء من رجاكم لنصرة دينه، بل نرجوه أن ينصركم وينصر بكم ويبلغ لكم ولمن رجاكم بالخير ما تحبونه بالتمام»⁶⁹.

واستمرت التعبئة من أجل وقف الزحف الأوروبي نحو الأراضي المغربية في الصحراء، فقام الشيخ ماء العينين بزيارة السلطان رفقة قواد الصحراء، لحشد الدعم اللازم للقيام بمقاومة الخطر الأوروبي، وفي هذا السياق، عين السلطان مولاي عبد العزيز مولاي إدريس بن عبد الرحمان خليفة ونائبا عنه في الصحراء كلها سنة 1905م⁷⁰.

ولم تتوقف مجهودات السلطان مولاي عبد العزيز عند هذا الحد، بل سعى إلى إيقاف مطامع فرنسا الرامية إلى إقامة مراكزها في موريطانيا، فبعث إلى قواد هذا البلد برسائل تخبرهم باستعداده التام لمدهم بالجند والعتاد والسلاح الضروري لمواجهة الأجانب. وقد كلف السلطان أحد أبناء الشيخ ماء العينين بالتواصل مع هذه المناطق. ثم قام والده سنة 1906م، بزيارة السلطان بفاس، للتزود بالمال والعتاد وقفل راجعا إلى الصويرة مروراً بالدار البيضاء، وارتعدت لذلك فرائص الأوروبيين وخاصة الفرنسيين منهم.

هذا في الوقت الذي تمكن فيه خليفة السلطان، مولاي إدريس، على موريطانيا من بسط نفوذه على شنقيط وأوجفت، كما امتد نفوذه إلى القبائل التي وقعت تحت التأثير الفرنسي، مؤكداً أن السلطان أناط به حكم تلك البلاد باسمه، وأن الأراضي المغربية تمتد إلى حدود نهر السنغال جنوبا.

69 - رسالة مرفوعة إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 13 رمضان 1322هـ / 21 نونبر 1904م.

70 - رسالة الشيخ ماء العينين بتاريخ 20 جمادى الأولى 1323هـ / 23 يوليوز 1905م.

فبعد أن أقام بأدرار ورتب أموره، أخذ في جمع الضرائب والجبايات، وهي شارة من شارات السيادة. ومما يؤكد الارتباط الروحي لمناطق موريطانيا المتاخمة لنهر السنغال، بسلطان المغرب وسيادته، خطبة الجمعة التي كانت تقام ثمة باسم السلطان. وكانت سنة 1907م بداية مرحلة عصيبة في تاريخ المغرب المعاصر لكونها جاءت موالية لمؤتمر الجزيرة الخضراء، ولما عرفت هذه السنة من أحداث عسكرية كاحتلال وجدة والدار البيضاء.

وما أن علم السلطان مولاي عبد العزيز بقدوم الشيخ ماء العينين إليه، حتى سارع إلى مكاتبته والترحيب به قائلا: «وابتهجنا لذلك وحصل لنا سرور بورودك، وأملنا أن يكون كفيلا بكل خير، ودافعا لكل ضرر، ومصحوبا بكل مراد من حصول السكينة والاستقامة في القبائل الذين هاجت بهم الفتنة وماجت، وصيرتهم على خطر أو كادت»⁷¹. وتقديرا من السلطان للشيخ ماء العينين ولمكانته الرفيعة ولما كان يحظى به من كبير الاعتبار والاحترام من لدن القبائل المغربية بأجمعها، لم يتوان السلطان لحظة قبل الملاقاة به أن شرح له فيها مجريات الأحداث ونبهه بخطورتها، وطلب منه أيضا إشعار القبائل بما حدث وتحسيسهم بانعكاساتها طالبا منه أن لا «يقصر في تحذيرهم وإنذارهم وتبصيرهم بعواقب الأمور، وحضهم على الاستقامة»⁷². كما طلب منه أثناء رحلته من الصحراء إلى فاس مرورا بمراكش، على ربط الاتصال بالقبائل المجاورة لمراكش «لتفقد أحوالها وتعاهد أمور القبائل المجاورين لها، لتعلم ما هم فيه وتتخللهم بمواعظك المفيدة ونصائحك النافعة وتحضهم على مزيد التمسك بحبل الصلاح والاستقامة لتدوم عليهم نعمة السلامة»⁷³. غير أن الأحداث ترادفت بوتيرة سريعة فاستغلت فرنسا هذه الظرفية لتصعيد ضغوطها على السلطان لإجلاء خليفته عن موريطانيا، وهو ما تم بالفعل سنة 1907م.

ببيع السلطان مولاي عبد الحفيظ في ظرفية حرجة من تاريخ البلاد، وسمها تصاعد المد الاستعماري، التي نصبت من أهم أهدافها الحصول على المعادن والمواد الخام، باعتبارها عصب الرأسمال الأوروبي وضامن حركة الأسواق، ومن ثم شكلت الدافع الرئيس لاقتسام النفوذ بين الدول العظمى. وبعد أن أضرت فرنسا وغيرها بمالية المخزن غاية، عن طريق سياسة القروض المجحفة، وفرض إصلاحات لا تخدم غير مصالحها، أملت إملاء من خلال عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء، سارعت إلى اقتطاع أجزاء مهمة من أراضي المغرب في الواجهتين الشرقية والجنوبية

71 - رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى الشيخ ماء العينين بتاريخ 1 رجب 1325هـ / 10 غشت 1907م.

72 - رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز إلى الشيخ ماء العينين، بتاريخ 28 جمادى الثانية 1325هـ / 8 غشت 1907م.

73 - نفسه.

الغربية، باحتلالها لوجدة والدار البيضاء. وكان ذلك كافيا لإذكاء وعي المغاربة بمخاطر الأحداث المتسارعة وما آلت إليه البلاد؛ فسعوا إلى مبايعة السلطان مولاي عبد الحفيظ، معتبرين إياه «سلطان الجهاد» الذي بإمكانه رفع التحديات وصد العدوان الأجنبي على المغرب.

وهكذا تمت بيعته بمراكش في 6 رجب 1325هـ / 16 غشت 1907م، وتنازلت عليه البيعات من مختلف الجهات، تحقيقا لتلك الغايات المثلى، ورغبة من المغاربة في التنصل من ربة ظروف لم تكن رحيمة بهم، وسعيا لانتشال البلاد من نفق مظلم بإخراجها مما آلت إليه. وبناء على ذلك، أصر السلطان مولاي عبد الحفيظ، سيرا على نهج أسلافه، على تحرير المناطق المحتلة، والمحافظة على استقلال البلاد ووحدتها الترابية، والقضاء على بعض من شق عصا الطاعة من المتمردين، من أمثال أحمد الريسوني وبوحمار، وعلى بسط السيادة المغربية من طنجة إلى السوس الأقصى، وما وراء الساقية الحمراء، في وقت كان فيه التكالب الاستعماري الفرنسي والإسباني على أشده في الساحل الجنوبي المغربي.

ولم يأل السلطان الجديد جهدا في توطيد وترسيخ العلاقات التي ظلت تربط كافة قبائل المغرب مع السلطة المركزية (المخزن). وهكذا، وفي هذه الظروف الشديدة التقلب، ما إن علم السلطان مولاي عبد الحفيظ بعزم الشيخ ماء العينين، على الورود إلى حضرته للاستشفاع به في إطلاق سراح أوبيها التكني، حتى استجاب توا لهذا الملتمس والرغبة، وأردف ذلك بأن وجه إليه بمكتوب سلطاني يشيد بمزيد عنايته به، وتهنئه برعي أعيان علماء جنوب المغرب، ونستشف ذلك من قوله: «أما المسجون فقد سرحناه قياما بالواجب من قبول شفاعتكم، والعمل بإشارتكم، ومن احتّمى بحماكم فقد احتّمى بحمانا»⁷⁴.

ولا غرو، أن يستجيب السلطان سريعا لهاته الرغبة، ولا سيما إذا علمنا أنه كانت تربطه بالشيخ ماء العينين، روابط فكرية متينة مذ كان أميرا وخليفة عن أخيه بمراكش، في الفترة الممتدة ما بين 1901 و 1904م، وقت أن كان مولاي عبد الحفيظ، يجالس كبار علماء المغرب والصحراويين منهم خاصة، ويعسوبهم يومئذ الشيخ ماء العينين، هذا الذي أجازه كما سبق الذكر، وأناط به محبة العلم والأدب. وتفيد الرسالة التي وجهها السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين في ابتداء أمره، جوابا عن تهنته بتقلده الأمانة العظمى، عمق الوشائج الروحية والفكرية التي تجمع بينهما،

74 - رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين بتاريخ 11 رجب 1325هـ / 20 غشت 1907م.

فبعد أن أطلعاه السلطان على الأوضاع السياسية بالمغرب آنذاك، حثه على أن يعجل بالقدوم عليه، محليا إياه بـ «الصدر المتقدم والعمدة، والقدوة للاتباع»⁷⁵.

وتكشف رسالة موجهة من يوسف بن علي، إلى القائد محمد بن محمد بن هيب، تفاصيل وصول الشيخ ماء العينين إلى حضرة السلطان مولاي عبد الحفيظ، وكيفية تقديمه للبيعة، وما صاحب ذلك من تكرمة له. ولم يقتصر الأمر على إكرام السلطان لوفادة الوالد، بل تعدى ذلك إلى الابن أحمد الهيبة، واستقباله في الحضرة السلطانية، وتوثيق الصلات معه، وإسعاده بقضاء حقه وإقراره على «كل العوائد المألوفة»⁷⁶.

وبتجديد العهد مع السلطان مولاي عبد الحفيظ، استمر الشيخ ماء العينين في الاضطلاع بأدواره التي كان يقوم بها سلفاء، من قبيل التواصل المستمر مع السلطان وإخباره بأحوال الصحراء المغربية كلما جد حادث يستحق إطلاع السلطان عليه. ومنه ما قام به عند رجوعه إلى الصحراء بعد تقديمه للبيعة، حينما أخبره بما كان يتعرض له سكان وشيوخ ناحية أدرار من استفزاز الفرنسيين لهم، واستشارتهم له في ذلك، وجوابه لهم أن يتعاملوا مع الأوضاع وفق ما يأمرهم به السلطان الذي منحهم طوابعهم، «فما قام له فقوموا له، وما لا فلا»⁷⁷.

ولتعزيز الحضور المخزني بهذه المناطق الصحراوية المغربية، عين عليها السلطان مولاي عبد الحفيظ - فور بيعته بمراكش - لفيفا من القواد، تفيدنا الوثائق المنشورة في هذا الكتاب بأسمائهم وتواريخ تعيينهم فمن ذلك أنه عين محمد الأمين قائدا على وادي نون وعلى قبائل تكنة⁷⁸، والقائد دحمان بن بيروك التكني على قبائل آيت موسى وعلي وآيت لحسن وإيكوت وإيزركين⁷⁹، والقائد محمد بن هيب على قبائل آيت محمد والحسين وآيت بكر وآيت أحمد وأمريغ بأسرير والنصف من

75 - رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين بتاريخ 17 رجب 1325هـ / 26 غشت 1907م. كما أكد على ذلك في رسالة ثانية بتاريخ 11 رجب 1325هـ / 20 غشت 1907م.

76 - رسالة من يوسف بن علي إلى القائد محمد بن محمد بن هيب، تتضمن تفاصيل بيعة الشيخ ماء العينين للسلطان مولاي عبد الحفيظ، مؤرخة في 29 رجب 1325هـ / 7 شتنبر 1907م.

77 - رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ، مؤرخة في 4 صفر 1326هـ / 8 مارس 1908م.

78 - ظهير للسلطان مولاي عبد الحفيظ، بتاريخ 8 شعبان 1325هـ / 16 شتنبر 1907م.

79 - ظهير للسلطان مولاي عبد الحفيظ، بتاريخ 21 شعبان 1325هـ / 29 شتنبر 1907م. ظهير للسلطان مولاي عبد الحفيظ بتاريخ 12 رمضان 1325هـ / 19 أكتوبر 1907م.

آيت مسعود من آيت بلة من قبيلة تكنة وادي نون، وعلى إخوانه بوعرون، وجدد ما بيد الشيخ سعيد بن إبراهيم التكني من ظهائر حسنية، وعينه كبيرا على إخوانه وكلفه بحراسة منطقة سهب الحرشة⁸⁰.

وفي سنة 1326هـ/1908م، أمر السلطان مولاي عبد الحفيظ نائبه في طنجة محمد الجباص بتجديد الوفد الذي سهر على ترتيب أمور مرسى طرفاية، مؤكدا في المكتوب الذي وجهه إليه «أن مرسى طرفاية لا يخفى ما لها من الأهمية وما كان رتب لعمارتها وأسس فيه»⁸¹، وفي نفس الآن، كلف السلطان القائد البلال بن أحمد التكني، بتعيين عامل جديد على المرسى، خلفا لحميدة الشباني، موصيا إياه بالمصارفة الحسنة معه⁸². كما عين في السنة الموالية، إبراهيم بن الخليل بن بيروك بظهير شريف مؤرخ في 14 ربيع الثاني 1327هـ/5 مايه 1909م، على آيت موسى وعلي يثوت وأولاد إدريس وارثيات وأولاد تدرارين وغيرهم.

وإصرارا منه على التصدي لاستفزازات السفن الإسبانية والفرنسية، أمر قائده محمد البلال البوسعيد بتقديم العون اللازم للكتيبة المخزنية المكلفة بحراسة الساحل المغربي بجهة طرفاية، كما أمر قبيلة إزركيين بمنع السفن الأجنبية منعا كليا من الرسو أو النزول في ساحلهم. وأمرهم لأجل ذلك بإقامة مراصد في مرسى أساكا، لمراقبة تحركاتها⁸³. وتؤكد هذه التعيينات وما إليها، استمرارية ممارسة السيادة المغربية في هذه الأقاليم الصحراوية، على الرغم من ملابسات الظرفية وصعوبتها.

يظهر مما مر، أن الوثائق التي بين أيدينا تقرر أن الشيخ ماء العينين، وأعوانه من سكان هذه الأقاليم، كثفوا هجوماتهم على القوات الفرنسية في الصحراء تلبية للتوجيهات السلطانية. وفي أعقاب ذلك، ضغطت فرنسا لثني السلطان مولاي عبد الحفيظ وكفه عن تقديم السلاح والمال للشيخ ماء العينين، لكنه لما لم يكثر بذلك. فقامت سنة 1327هـ/1909م بحملات عسكرية في شنقيط انتهت باحتلال منطقة أدرار⁸⁴. وفي غضون ذلك، غادر الشيخ ماء العينين السمارة وتوجه إلى تزني، فيما لم تتوقف فرنسا عن استفزاز المغرب، فكان أن بعث إحدى سفنها الحربية إلى السواحل الجنوبية، للحيلولة دون رسو المراكب المخزنية المزودة للشيخ ماء العينين بالسلاح والعتاد.

80 - ظهير للسلطان مولاي عبد الحفيظ، بتاريخ 19 رمضان 1325هـ/26 أكتوبر 1907م.

81 - رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى النائب محمد الجباص، بتاريخ 1 جمادى الأولى 1326هـ/1 يونيو 1908م.

82 - رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى القائد البلال بن أحمد التكني، بتاريخ 1 جمادى الأولى 1326هـ/1 يونيو 1908م.

83 - رسالة من السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى قواد قبيلة إزركيين، بتاريخ 10 صفر 1327هـ/3 مارس 1909م.

84 - A.G.P ; Martin, Quatre siècles, op. cit., p.538.

وموازاة لذلك، فإن مناوشات وتحركات إسبانيا ضد المغرب، لم تتوقف هي كذلك، حيث طالبت سنة 1328هـ/1910م بمنحها قطعة أرضية بساحل سيدي إفني، بذريعة إقامة مركز للصيد، إلا أن المغرب رفض ذلك حفاظا على سيادته، فاستتبع ذلك رد فعل سريع، تمثل في إرسال إسبانيا لسفنها الحربية إلى المنطقة، مهددة باحتلال إفني بالقوة. وفي سياق هذا التسابق والتنافس الشرس حول الساحل الصحراوي المغربي، تمكنت فرنسا من توقيع اتفاقية مع المغرب⁸⁵، جاء في فصلها العاشر أنه : «فيما يتعلق بالشيخ ماء العينين وأعداء فرنسة بالصحراء، حيث ينبغي على الدولة المغربية أن تمنع هؤلاء المروعين أن يتوصلوا بما يعضد أفعالهم، ولا يتوصلوا بإمدادات مالية أو سلاحية، وتصدر مكاتب شريفة لولاية السوس ووادي نون بالأمر لهم بمنع كنز بنض السلاح بتلك النواحي». وواضح أن فرنسا بطلبها من المغرب التدخل لمنع من اعتبرتهم مروعين لها في الصحراء، قد اعترفت صراحة بممارسة الدولة المغربية لسيادتها في صحرائها.

ولما ازداد الضغط الفرنسي على المغرب بحصار السلطان مولاي عبد الحفيظ بفاس، نظم الشيخ ماء العينين حركة إلى فاس لفك ذلك الحصار، إلا أن الجنرال الفرنسي مواني أوقف حركته بالقرب من قصبة أولاد زيدان سنة 1328هـ/1910م، فقتل الشيخ راجعا إلى مدينة تزنييت، وهناك وافته المنية في نفس السنة. وفي تلك الأثناء، تدخلت ألمانيا وأرسلت سفيتها الحربية بنثير (Panther) سنة 1329هـ/1911م إلى ميناء أكادير، وكان ذلك تعبيرا منها أيضا عن توثيق الصلة التجارية مع هذه المناطق من المغرب. وردا على هذا، أمر السلطان مولاي عبد الحفيظ قائده على تكنة إبراهيم الخليل بالإفراج عن ألماني كان سجيناً لديه وتوجيهه إلى قنصل ألمانيا بمدينة الصويرة.

وترادفت الأحداث بعد ذلك، لتنتهي هذه المرحلة من تاريخ المغرب المعاصر - على الرغم من مقاومات السلاطين والملوك العلويين وقبائل المغرب بأجمعها - بفرض الحماية على المغرب. واتفقت فرنسا وإسبانيا على تحديد مناطق نفوذهما في الجنوب المغربي بمقتضى اتفاقية 17 ذي الحجة 1330هـ/27 نونبر 1912م. إلا أن المقاومة المغربية استمرت في الجنوب الصحراوي المغربي. ولم تتمكن الدولتان المستعمرتان من فرض سيطرتهما على جميع أقاليم المغرب إلا في سنة 1934م. وبعد فرض الحماية على المغرب سنة 1330هـ/1912م، تقرر في نفس السنة أن المناطق المغربية الخاضعة للحماية الإسبانية ستكون تحت نفوذ الخليفة السلطاني، وعين لهذا المنصب مولاي المهدي بن إسماعيل بمقتضى الظهير الشريف المؤرخ في 7 جمادى الأولى 1331هـ/14 ماي 1913م.

85 - اتفاقية بين المغرب وفرنسا، مؤرخة في 3 محرم 1328هـ/15 يناير 1910م.

يستخلص من المعطيات السابقة الواردة في هذا التقديم أن موقع الصحراء المغربية من خلال الوثائق التاريخية لا يترك مجالاً للشك في اعتبارها جزءاً من الوحدة الترابية منذ أقدم العصور والفترات، حيث يتبين من هذا العرض التاريخي لواقع الصحراء منذ وصول الإسلام إلى المغرب وانتشاره إلى الآن، أن الصحراء ظلت جزءاً لا يتجزأ من الوحدة الترابية المغربية. وتبرز هذه الوحدة جلية من خلال امتداد طبيعة صحراء المغرب وجغرافيته وتركيبته البشرية المتميزة بانصهار الرافدين العربي والأمازيغي في بوتقة واحدة.

وجلي أن هذه الوحدة قائمة على ثوابت شرعية قوامها البيعة المستندة على التعاقد الأساسي بين الحاكم والمحكوم بكل ما يحمل هذا العقد الشرعي من معاني السيادة السياسية منها والقانونية. فإذا انعقدت البيعة ترتب عليها واجبات وشروط أهمها حفظ الدين، وتنفيذ الأحكام، وحفظ الأعراض، والدفاع عن العباد والبلاد وتحصين الثغور، ويصبح السلطان أو الملك بمقتضى البيعة مسؤولاً عن حماية المواطنين المبايعين. ولهذا فإن هذه الوثائق تبين التزام السلاطين والملوك وحرصهم المستمر على الذود عن الوحدة الترابية للمغرب وحفظ سيادته، وصيانة أمنه، بما يجعل ذلك شغلهم الشاغل من لحظة اعتلائهم العرش. وبهذا أيضاً ظل الملك في الماضي والحاضر رمز هذه الوحدة السياسية والمذهبية والضامن لاستمراريتها التي تشكل البيعة خيطها الناظم الذي جمع ويجمع بين المغاربة وملوكهم في جميع مناطق المغرب: سهوله وجباله وصحاريه.

وتوضح الوثائق المعتمدة أن هذه الوحدة انصهرت أيضاً في وحدة هوية المغرب الدينية والثقافية المتجلية في التشعب والتشبيث بالمذهب المالكي الذي يميز المغرب عن غيره من الدول الإسلامية الأخرى المجاورة. كما تتجلى هذه الوحدة في ارتباط تاريخ الصحراء بالتاريخ المغربي العام، وهو ما بيناه بشكل جلي من خلال تفاعلها مع أهم القضايا والأحداث التي عرفها المغرب. مما جعلها بامتياز رافداً أساسياً من روافد الهوية المغربية.

وبناء على هذه المرجعيات الشرعية المستمدة من البيعة الدينية المتجلية في انتشار المذهب المالكي، والتاريخية من عراقة هذه الوحدة، مارس السلاطين والملوك المتعاقبون على حكم المغرب دون انقطاع، السيادة على جميع الأقاليم الصحراوية كما هو الشأن بالنسبة لجميع المناطق المغربية الأخرى. وهو ما حاولنا توضيحه من خلال التديرين الإداري والسياسي المتمثلين في تعيين العمال والقواد والقضاة والأمناء، وفي ترتيبات الرقاصة والتدخل لاستتباب الأمن وإجراءات الصلح بين القبائل وفي تنظيم الحركات وتفقد أحوال البلاد عامة. ومن السهولة بمكان أن نعلم من خلال

ظواهر التعيين هذه، أن هناك توزيعا شاملا للقواد والعمال على أهم وأكبر القبائل الصحراوية المؤلفة على شكل عشائر واتحادات، مما يسمح برسم واضح المعالم لامتدادات السيادة المغربية على هذه الأقطار، وتحديد مجالها وضبطه.

ويستخلص كذلك من هذه الوثائق الامتداد الحضاري للمغرب في مجال قبائله الصحراوية، كما تشهد له المآثر التاريخية مثل ما شيده من قصبات دفاعية وأبراج، والمراسي المرتبة على طول الساحل الصحراوي المغربي، وما بناه من قناطر وجسور، وما شق من الطرق وعبدها وحفر الآبار، وإنشاء الأسواق التجارية في العديد من القرى والبلدات، وتشبيد المساجد والزوايا، والتعامل بالعملة المغربية إسوة بالمناطق المغربية الأخرى.

كما يستنتج من هذه الوثائق أن السلاطين العلويين مارسوا السيادة السياسية والروحية من خلال ظواهر التوقير والاحترام والعناية بالشرفاء والمرابطين ومد الزوايا بما تحتاج إليه من دعم مادي ومعنوي لتقوم بأدوارها الدينية والتربوية والاجتماعية. ومما يذكر في هذا الباب، دور الشيخ ماء العينين في الصحراء المغربية، ومساندة السلاطين العلويين له ولأبنائه من بعده. وتجلي هذه الوثائق الامتدادات الروحية للزوايا المغربية فيما بينها شمالا وجنوبا، وترمز إلى التواصل الفكري المستمر الذي ترعاه تلك الزوايا، حيث يعتبر تبادل الإجازات بين علماء المغرب أحد أوجهه ومظاهره.

وكل ما سلف يؤكد مرة أخرى أن المنطقة الصحراوية لم تكن تختلف في ممارستها لأشكال الحكم ومعالجة القضايا عن المناطق المغربية الأخرى. فالسلاطين والملوك مارسوا نفوذهم الشرعي القضائي والعسكري والمخزني بالمنطقة الصحراوية. وهذه السلط في مجموعها مكونات أساسية وعناصر ذات دلالات قوية في تقييم كنه السيادة المستمرة في الأقاليم الصحراوية التي دافع عنها السلاطين والملوك العلويون كحق مشروع. وعملوا على تحريرها وتخليصها من أنياب الاستعمار، بناء على أسس قانونية وتاريخية حقيقية.

قضية الصحراء المغربية والدور المحوري لمغاربة العالم في تفعيل الدبلوماسية الموازية

د. عبد الله بوصوف
الأمين العام لمجلس الجالية المغربية بالخارج

أولاً: ترسيخ الوضع الطبيعي للصحراء المغربية

1- الوجود قبل الحدود...

عندما خاطب ملك البلاد الشعب بأن قضية الصحراء هي قضية وجود وليست قضية حدود... وعندما حفزهم بأخذ المبادرة وعدم الارتكان إلى انتظار رد الفعل؛ كانت تلك رسالة واضحة إلى كل من يسوق فكرة أن قضية الصحراء هي سيادية بامتياز وأن مهندسيها هم على رؤوس الأصابع فقط! ربما صح هذا القول في ظروف معينة من تاريخ المغرب، لكن خطابات جلالة الملك محمد السادس نصره الله تصب كلها في كون قضية الصحراء قضية أمة ووطن بكل تنوع روافده. وهو توجه كرسه إجماع المغاربة على دستور 2011م، الذي جاء فيه: "يساهم كل المواطنين والمواطنات في الدفاع عن الوطن ووحدته الترابية اتجاه أي عدوان أو تهديد".¹

إن إعلان وقف إطلاق النار في التسعينيات (1991م) بين المغرب والبوليزاريو وحاضنته الجزائر كان موازياً لإعلان بدايات لحروب إعلامية واقتصادية وحرب مواقع وتحالفات سرية وعلمية وتأجيج التشنجات الداخلية وتسخير أقلام أجنبية وقنوات إعلامية... كل هذا كان يصب ضد مصالح المغرب الذي لم يقف مكتوف الأيدي أمام تلك الهجمات المبرمجة رغم المعوقات الاقتصادية والاجتماعية...

1 - دستور المملكة المغربية (2011م)، الباب الثاني: الحريات والحقوق الأساسية، الفصل: 38.

2- الحاجة إلى تغيير العجلة

لقد قدم المغرب في أبريل 2007م رسميا للأمم المتحدة "نص المبادرة التفاوضية لتحويل الصحراء حكما ذاتيا"²، واليوم قد مرت أكثر من 8 سنوات كان من المفترض أن تقدم النخب بالداخل من مثقفين وجامعيين وحقوقيين وإعلاميين، مئات التحليلات ووجهات النظر، ومئات التصورات لتقريب مبادرة الحكم الذاتي للمواطن المغربي لتقوية اللحمة الداخلية وشرح الفقرات والهوامش حتى نكون مواطنين بشائية الاقتناع من أجل الإقناع.

وكان للأحزاب المغربية ولأطرها الوقت الكافي لتجاوز لغة البيانات الرنانة والانتقال إلى التأطير الحقيقي وشرح روح مبادرة الحكم الذاتي لمناضليها!

وفي الجهة المقابلة نجد مقالات عديدة لمنظري البوليزاريو ومثقفي الغاز والبترول يتربصون بفقرات وهوامش "نص المبادرة" عليهم يجدوا بعض التناقض أو ما شابه ذلك، ليعزز حسهم التحريضي والمشوش على ماهية المبادرة...

لكن رغم كل هذا فقد وجدوا أنفسهم خارج دائرة التحليل الموضوعي والمنطقي، الذي يقتضي من الباحث المحايد والجاد الاستماع لوجهة النظر المختلفة والاستعداد التلقائي لتعديل أو تصحيح وجهة نظره.

وهكذا لمسنا في أكثر من قراءة لهم تصلبا كبيرا في الرأي وتحريضا فاضحا، رغم كل محاولاتهم بالتمظهر بالمظلومية ولعب دور الضحية؛ في حين أن مشروع الحكم الذاتي قدم للأمم المتحدة على أساس أنه نص المبادرة بشأن التفاوض بكل ما يستلزمه من "أكسسوارات" الحوار وحسن النية والعمل الإيجابي لإنجاح المبادرة باعتبارها حلا سياسيا مقبولا من طرف الجميع.

3- عدالة مبادرة في مواجهة إفراط في سوء نية!

إن عبارة: "الصحراء في مغربها والمغرب في صحرائه" ليس شعارا للاستهلاك الإعلامي أو الديماغوجي، بل يعني أن الصحراء هي في وضعها الطبيعي والسياسي والجغرافي أيضا، وبالتالي لا يمكن استثنائها من المشاركة في المؤسسات التشريعية أو التنفيذية أو من الأوراش الاقتصادية

2 - ولقد سلم السفير المندوب الدائم للمملكة المغربية لدى الأمم المتحدة آنذاك السيد المصطفى ساهل يوم الأربعاء 11 أبريل 2007م، بنو يورك إلى الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون، نص المبادرة المغربية بشأن التفاوض لتحويل الصحراء حكما ذاتيا.

والاجتماعية الكبرى، وباعتبارها أيضا جزء من المغرب فقد خصها التقطيع الترابي الجديد³ بجهتي كلميم وادنون وجهة العيون الساقية الحمراء.

وفي هذا جواب على تساؤلهم المستفز بأن المادة (8)⁴ من الحكم الذاتي تعترف بحق تقرير المصير! وأنه إذا جاءت النتائج ب"لا" فهل سيكون الاستقلال عن المغرب هو البديل مثلاً؟!

وهنا نلاحظ سوء النية في شرح المادة 8؛ لأن الحكم الذاتي كما نصت عليه المبادرة المغربية، يجب أن ينبثق عن مفاوضات كمرحلة أولى ثم استشارة استفتائية للسكان كمرحلة ثانية، وليس العكس! ولكن أكثر جرأة منهم ونجيبهم بأنه إذا جاءت سلة النتائج ب"نعم" فسيطبق الحكم الذاتي بكل مقوماته الدولية بما فيها مراجعة الدستور المغربي وإدراج نظام الحكم الذاتي فيه⁵.

أما إذا جاءت ب"لا" فستبقى الأقاليم الصحراوية ضمن جهتي 11 و12 لأنها ليستا في حالة فراغ مؤسسي كما يقع في إقليم الكيبيك (كندا) أو كاتالونيا (إسبانيا) مثلاً...

لقد اعتبروا أن المادة (6)⁶ من الحكم الذاتي هي ثقب أسود... ونحن بدورنا نسألهم أين السواد في هذا الفصل! إذا كانت جميع أنظمة الحكم الذاتي في العالم تخصص الدفاع والعلاقات الخارجية للوطن الأم (إمارة موناكو بفرنسا مثلاً) وأيضاً الاختصاصات الدستورية والدينية لملك المغرب بصفته أمير المؤمنين... وتأسيساً على هذا فالملك هو الذي ينصب رئيس حكومة منطقة الحكم الذاتي⁷ وأيضاً لا يجب تأويل الأحكام لتعارض مع اختصاصات المجلس الأعلى والمجلس الدستوري للمملكة⁸؛ وهذا أيضاً طبيعي جداً وقانوني، لأن إمارة المؤمنين تتضمن الإمامة التي

3 - مرسوم رقم 2.15.40 صادر في فاتح جمادى الأولى 1436هـ (20 فبراير 2015م) بتحديد عدد الجهات وتسمياتها ومراكزها والعمالات والأقاليم المكونة منها. وجاء في المادة الأولى من المرسوم ما يلي: "ينقسم تراب المملكة إلى اثنتي عشرة (12) جهة". ومن هذه الجهات: جهة العيون-الساقية الحمراء ومركزها العيون، وتتكون من العمالات والأقاليم الآتية: العيون، وبوجدور، وطرفاية والسمارة. وجهة الداخلة - وادي الذهب ومركزها وادي الذهب، وتتكون من العمالات والأقاليم الآتية: وادي الذهب، وأوسرد.

انظر: الجريدة الرسمية، عدد 6340 - 14 جمادى الأولى 1436هـ (5 مارس 2015م).

4 - جاء في المادة (8) من نص المبادرة المغربية بشأن التفاوض لتحويل الصحراء حكماً ذاتياً ما يلي: "يخضع نظام الحكم الذاتي، المنبثق عن المفاوضات، لاستشارة استفتائية للسكان المعنيين، طبقاً لمبدأ تقرير المصير ولأحكام ميثاق الأمم المتحدة".

5 - تقول المادة (29) من نص المبادرة المغربية بشأن التفاوض لتحويل الصحراء حكماً ذاتياً: "كما تتم مراجعة الدستور المغربي وإدراج نظام الحكم الذاتي فيه، ضماناً لاستقرار هذا النظام وإحلاله المكانة الخاصة اللائقة به داخل المنظومة القانونية للمملكة".

6 - جاء في المادة (6) من نص المبادرة المغربية بشأن التفاوض لتحويل الصحراء حكماً ذاتياً ما يلي: "تحتفظ الدولة باختصاصاتها في ميادين السيادة، لاسيما الدفاع والعلاقات الخارجية والاختصاصات الدستورية والدينية لجلالة الملك، أمير المؤمنين".

7 - جاء في المادة (20) من نص مشروع الحكم الذاتي: "يمارس السلطة التنفيذية في جهة الحكم الذاتي للصحراء رئيس حكومة ينتخبه البرلمان الجهوي وينصبه الملك. رئيس الحكومة وممثل الدولة في الجهة".

8 - جاء في المادة (24) من نص مشروع الحكم الذاتي: "يجب أن تكون القوانين والمراسيم التنظيمية والأحكام القضائية الصادرة عن هيئات جهة الحكم الذاتي للصحراء مطابقة لنظام الحكم الذاتي في الجهة، وكذا لدستور المملكة".

بدورها تتضمن القضاء، ولذلك تصدر الأحكام باسم جلالة الملك ولذا من الطبيعي أن يمتد حتى منطقة الحكم الذاتي للصحراء.

إن المعادين لمشروع للحكم الذاتي كثيرا ما ينطلقون من فكرة أن تقرير المصير هي ثمرات اجتثاث مخلفات الاستعمار، وهم بهذا يقعون في مأزق تاريخي ومعرفي حيث الكل يعلم أن إسبانيا استعمرت أرضا اسمها المغرب وليس شيئا آخر.

ليس هناك عاقل يرفض مبادرة بمواصفات متقدمة وجريئة تضمن لسكان الصحراء تسيير شؤونهم بأنفسهم⁹، من خلال هيئات تشريعية (برلمان جهوي)¹⁰، وتنفيذية (حكومة جهوية)¹¹، وقضائية من خلال جهاز قضائي مع احترام مبدأ ملاءمة قوانين المنطقة مع قوانين المملكة المغربية¹². هذا دون الحديث عن صلاحيات واسعة في التسيير كالإدارة المحلية والشرطة والنظام الجبائي والتحكم في الموارد المالية¹³.

9 - جاء في المادة (5) من نص مشروع الحكم الذاتي: "ومن هذا المنطلق، سيتولى سكان الصحراء، وبشكل ديمقراطي، تدبير شؤونهم بأنفسهم من خلال هيئات تشريعية وتنفيذية وقضائية، تتمتع باختصاصات حصرية. كما ستوفر لهم الموارد المالية الضرورية لتنمية الجهة في كافة المجالات، والإسهام الفعال في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمملكة".

10 - جاء في المادة (19): "يتكون برلمان الحكم الذاتي للصحراء من أعضاء منتخبين من طرف مختلف القبائل الصحراوية، وكذا من أعضاء منتخبين بالاقتراع العام المباشر من طرف مجموع سكان الجهة. كما يتعين أن تتضمن تشكيلة برلمان جهة الحكم الذاتي للصحراء نسبة ملائمة من النساء.

11 - المادة (20) من نص مشروع الحكم الذاتي: "يأمر السلطة التنفيذية في جهة الحكم الذاتي للصحراء رئيس حكومة ينتخبه البرلمان الجهوي وينصبه الملك. رئيس الحكومة هو ممثل الدولة في الجهة".

12 - جاء في المادة (23) من نص مشروع الحكم الذاتي: "تتولى المحكمة العليا الجهوية، باعتبارها أعلى هيئة قضائية بجهة الحكم الذاتي للصحراء، النظر انتهائيا في تأويل قوانين الجهة، دون إخلال باختصاصات المجلس الأعلى والمجلس الدستوري للمملكة".

وجاء في المادة (24): "يجب أن تكون القوانين والمراسيم التنظيمية والأحكام القضائية الصادرة عن هيئات جهة الحكم الذاتي للصحراء مطابقة لنظام الحكم الذاتي في الجهة، وكذا لدستور المملكة".

13 - جاء في المادة (12): "يأمر سكان جهة الحكم الذاتي للصحراء، داخل الحدود الترابية للجهة، ومن خلال هيئات تنفيذية وتشريعية وقضائية، ووفق المبادئ والقواعد الديمقراطية، عدة اختصاصات، ولاسيما في الميادين التالية: الإدارة المحلية والشرطة المحلية ومحاكم الجهة؛ على المستوى الاقتصادي: التنمية الاقتصادية والتخطيط الجهوي وتشجيع الاستثمارات والتجارة والصناعة والسياحة والفلاحة؛ ميزانية الجهة ونظامها الجبائي؛ البنى التحتية: الماء والمنشآت المائية والكهرباء والأشغال العمومية والنقل؛ على المستوى الاجتماعي: السكن والتربية والصحة والتشغيل والرياضة والضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية؛ التنمية الثقافية: بما في ذلك النهوض بالتراث الثقافي الصحراوي الحساني؛ البيئة".

وفي المادة (13): "تتوفر جهة الحكم الذاتي للصحراء على الموارد المالية الضرورية لتحقيق تنميتها في كافة المجالات. وتتكون هذه الموارد بالخصوص مما يلي: الضرائب والرسوم والمساهمات المحلية المقررة من لدن الهيئات المختصة للجهة؛ العائدات المتأتية من استغلال الموارد الطبيعية، المرصودة للجهة؛ جزء من العائدات المحصلة من طرف الدولة والمتأتية من الموارد الطبيعية الموجودة داخل الجهة؛ الموارد الضرورية المخصصة في إطار التضامن الوطني؛ عائدات ممتلكات الجهة".

كل هذا في مقابل احتفاظ الدولة المغربية باختصاصات حصرية كالعلم والنشيد الوطني والعملة واختصاصات الملك الدستورية والدينية بصفته أمير المؤمنين¹⁴.

أعتقد أن صراع قادة البوليزاريو العقيم أفقدهم فضيلة الحياء، وجعلوا من آلاف المحتجزين حزاما للفقر والحرمان العاطفي ولقطع الرحم مع ذويهم بالجنوب المغربي؛ فهي أذرعهم البشرية يوظفونها في التفاوض، بل إنها قنابل بشرية موقوتة تهدد بها البوليزاريو سلم المنطقة والعالم.

ولأن الوطن غفور رحيم، فإن المادتين 30 و31 تضمنتا الالتزام بإدماج العائدين للوطن في ظل ظروف تحفظ كرامتهم وسلامتهم وحماية ممتلكاتهم... بالإضافة إلى عفو شامل¹⁵.

لقد بات من الأكيد أن "شبهة اعتراف" السويد بالبوليزاريو وأيضا تصريحات بان كي مون الاستفزازية والخارجة عن مبادئ الحياد، جعلت إعادة تشخيص الوضع بدون مساحيق وبدون تملق لهذه الجهة أو تقريبا من أخرى، حاجة ملحة وضرورية.

ولنضع المصلحة الوطنية فوق كل اعتبار ونجعلها نقطة البداية وغاية لكل البدايات...

4- الحاجة إلى جرعة من الترياق

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن القضية الوطنية، هو أن ممثلي البوليزاريو بأوروبا هم أقل عددا بكثير من المغاربة، لكن ما الذي يجعل صوتهم في مناطق معينة صدادا ومؤثرا؟!

عندما نجد رحاب بعض الجامعات الأوروبية تحتضن بعض ندواتهم، هل نقول إنهم اخترقوا الجامعات الأوروبية؟!

عندما نجد بعض وجوه المجتمع المدني الأوروبي يشاركونهم وقفاتهم، هل نقول إنهم اخترقوا شبكات المجتمع المدني الأوروبي؟!

14 - جاء في المادة (14): "تحتفظ الدولة باختصاصات حصرية، خاصة منها ما يلي: مقومات السيادة، لاسيما العلم والنشيد الوطني والعملة؛ المقومات المرتبطة بالاختصاصات الدستورية والدينية للملك، بصفته أمير المؤمنين والضامن لحرية ممارسة الشعائر الدينية وللحريات الفردية والجماعية؛ الأمن الوطني والدفاع الخارجي والوحدة الترابية؛ العلاقات الخارجية؛ النظام القضائي للمملكة".

15 - جاء في المادة (30): "تتخذ المملكة المغربية كافة الإجراءات اللازمة من أجل إدماج الأشخاص الذين تتم عودتهم إلى الوطن إدماجا تاما في حظيرته، وذلك في ظل ظروف تكفل الحفاظ على كرامتهم وسلامتهم وحماية ممتلكاتهم".

وجاء في المادة (21): "ولهذه الغاية، تصدر المملكة بالخصوص عفوا شاملا يستبعد أي متابعة أو توقيف، أو اعتقال أو حبس، أو أي شكل من أشكال التهريب، ينبي على وقائع مشمولة بهذا العفو".

عندما نجد بعض القادة الحزبيين يتماهون مع أطروحتهم الانفصالية، هل نقول إنهم وصلوا إلى قلوب أصحاب القرار؟!

وبالإضافة إلى هذا الثالث نجد العديد من الأقلام مدادها من بترول وغاز الجيران، كما يتم تسخير قنوات إعلامية بعينها للترويج لأطروحتهم ولتسويق صورة سيئة عن المغرب كبلد محتل تهدر فيه حقوق الإنسان وأنهم لاجئون خارج "الوطن"!

إن التشخيص الواقعي لهذا الوضع يجعلنا نقف على حقيقة لا يمكن تجاهلها، وهي أن ممثلي البوليزاريو بأوربا أصبحوا متمرسين، واكتسبوا خبرات في التواصل وصلت لحد الاحتراف، بحيث نجدهم يلهثون وراء "صفة لاجئ" بالدول الأوروبية وينخرطون في جمعيات حقوقية أوروبية تيسر لهم الاشتغال داخل إطار قانوني يمارسون داخله عملهم التحريضي والتضليلي تحت أنظار حراس حقوق الإنسان والحريات بأوروبا!

إن هذا الوضع جعل المغرب في كثير من الأحيان في حالة دفاع مستمر أنسته أخذ المبادرة؛ لكن هذا لا يلغي كل جهود مغاربة العالم ومنذ 40 سنة، أي منذ مشاركتهم الرمزية بحوالي 134 مهاجرا في المسيرة الخضراء...

لا يمكننا إلا أن نقف احتراما لجهود مهجرين كان زادهم وسلاحهم في الدفاع عن المقدسات هو الوطنية الصادقة والعفوية في الدفاع، جعلت الانفصاليين يفقدون العديد من المراكز وأحرجوهم في أكثر من مناسبة.

إن المثل العربي القائل: "رب ضارة نافعة" يتجسد في الكثير من المواقف التي تعيشها الجالية المغربية في دفاعها العفوي عن المقدسات المغربية بالخارج.

5- الحاجة إلى "نيوبوليتيك"

أثبتت العديد من المحطات والوقفات المختلفة في التعاطي مع قضية الصحراء، أننا أمام نموذجين، الأول (البوليزاريو) فهو محترف في التضليل ومحارب بالوكالة، أما الثاني (المهاجر المغربي) وهو مناضل عفوي ومناضل في "الوقت الثالث"، أي أنه بعد أسبوع من العمل الشاق ومعضلات حياة الغربة فهو يخصص وقته الباقي للنضال مما يفقده الكثير من الحيوية والفعالية ويجعله خلف المعلومة لا أمامها.

لهذا قلنا إن هذا النموذج من النضال بكل معوقاته نجح إلى حد ما في سياق تاريخي معين فقط وفي مناطق معينة من أوروبا.

وأعتقد أن الثورة الرقمية بكل إيجابياتها وسلبياتها تجبر الكل على تبني وسائل جديدة في التواصل وابتكار أساليب جديدة في الاحتجاج؛ والأهم أن هذه الثورة تفرض علينا قراءة جيدة ومتأنية لعالم الصورة.

إن ما سميناه بـ "نيوبوليتيك" سيجعلنا أكثر واقعية وموضوعية وجرأة؛ خاصة أننا أصحاب حق، وحتى لا يقال إننا "أصحاب قضية عادلة لكن بمحام فاشل"!

وبما أن المغرب دولة المؤسسات، فإننا نعتقد أن لكل مؤسسة دورها المحدد لها قانونا في الدفاع عن السيادة، إلا أن الفصل 38 من دستور 2011م خاطب كل المواطنين والمواطنات للمساهمة في الدفاع عن السيادة ضد أي عدوان عليها أو تهديد لها.

وهنا فتح المشرع الباب لكل شبكات المجتمع المدني لمغاربة العالم بالمساهمة في الدفاع عن هذه القضية؛ لكن نعتقد أن ذلك يجب أن يتم بأساليب جديدة، سواء من حيث طرق شرح الوضع الحقوقي والقانوني وأيضا التاريخي للمنطقة أو من حيث كيفية تنظيم وسائل التنديد والاحتجاج، والتي يجب أن تسير عقلية المجتمع الغربي؛ مما يجعلنا نؤكد وبكل صراحة أنه لا مكان للعفوية بعد الآن.

وفي هذا السياق يجب أن تخصص الجمعيات في ميادين اشتغالها، على شرط أن تبقى في نطاق المجتمع المدني؛ حيث يمكننا في المستقبل القريب أن نجد مثلا جمعيات متخصصة في الرياضة وأخرى في الشؤون الاجتماعية أو الثقافية أو الدينية ولما لا في المقدسات المغربية في إطار الدبلوماسية الموازية، لكن هذا سيجعلها ملزمة بغيرها بضرورة الانخراط في برامج التأهيل والتأطير حتى نقطع مع أساليب الارتجالية والعفوية.

وبالتالي فإن المسؤولين عن شأن المجتمع المدني ملزمون بتقديم دورات تدريبية وبرامج تأهيلية لجمعيات مغاربة العالم حسب تخصصاتها، وملزمون أيضا بتقديم كل الأدوات المعرفية، التي تساعد الفعاليات الجمعوية على تحسين أدائها... وفي هذا الإطار، يجب مثلا توزيع كل المراجع والمقررات الأهمية وأيضا "نص مبادرة الحكم الذاتي" على جميع جمعيات مغاربة العالم، حسب لغات بلدان إقامتهم، وتلقينهم أدبيات التواصل في الشبكات الاجتماعية وتسويق الصورة... والرد على كتاب ومنظري الغاز والبترول وفضح خلفياتهم السياسية والإيديولوجية...

عندما يتحقق هذا، ستصبح استعادة الرهان على الجامعات والبلديات والمجتمع المدني وأصحاب القرار في أوروبا والمؤسسات التشريعية والإعلام، أمرا غاية في السهولة، ويكفي أن نبش

في ملفات الاتجار في المساعدات الإنسانية والاتجار في الأطفال وتهجيرهم بعيدا عن ذويهم وأيضا معدلات اغتصاب النساء، ويكفي تنبيه الأوروبيين على خطورة وجود السلاح في منطقة قابلة للانفجار وتهدد في أي لحظة السلم العالمي؛ شرط أن يتم هذا النش وهذا التنبيه بطرق تواصلية جديدة تلائم العقلية الغربية.

6- لا وقت للضياع...

إن المغرب بحاجة إلى كل أبنائه سواء في الداخل أم في الخارج، ولقد عبرت الجالية المغربية في أكثر من مرة عن وطنيتها الصادقة وأنها لا تحتاج إلى تصفيق من أحد...

لكن، إن لكل جيل محطة وصول؛ ونحن نقصد هنا أجيال الاحتجاج والوقوفات والاختراق وأيضا الاحتواء... فلا يعقل أن نشاهد لافتة تنديدية باللغة العربية موجهة لشعب يحلم بالإنجليزية مثلا... ولا يعقل أيضا أن لا يشارك احتجاجات ووقوفات الجالية مواطنون أوروبيون.. كما لا يعقل تنظيم ندوات يخلط موضوعها بين نظام الجهوية المتقدمة ونظام الحكم الذاتي!

أعتقد أننا استفدنا جميعا من "شبهة اعتراف" السويد، وأيضا من الخروج الإعلامي الخاطئ للسيد بان كيمون، ونحتاج اليوم إلى الكفاءات والطاقات المغربية في كافة المجالات؛ الإعلامية والسينمائية والفنية والسياسية والطلائية، ونحتاج أيضا إلى مغاربة العالم، فالكل مطالب بتغيير طريقة العمل، لأن لا وقت للضياع بعد اليوم.

ثانيا: قضية الصحراء.. أي تواصل على المستوى الدولي؟

لقد أدخلت تصريحات الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون خلال زيارته الأخيرة للجزائر¹⁶ ملف الصحراء المغربية منعطفا حادا، حيث أبان عن تحيز واضح لأحد الأطراف لرئيس منظمة يفترض أن تقف على نفس المسافة بين جميع الأطراف. وضرب المسؤول الأممي بذلك عرض الحائط جميع المبادئ والقيم التي أنشئت من أجلها منظمة الأمم المتحدة كهيئة دولية تهدف إلى حفظ السلم العالمي من خلال العمل على حل الإشكاليات الدولية بالطرق السلمية التي تضمن مصالح كل المتنازعين.

إن تحيز الأمين العام للأمم المتحدة لجهة البوليزاريو واستخدامه لكلمة "احتلال" في حديثه عن الصحراء، وإن كان السيد بان كي مون سيخرج من الباب الضيق للهيئة الأممية بعد أقل من سنة

16 - وهي التصريحات التي أدلى بها خلال زيارته لمخيمات تندوف يوم 5 مارس 2016م.

من انتهاء مدة ولايته، إن هذه الواقعة فرصة لإعادة الزخم لقضيتنا الأولى والتأمل فيما حققه المغرب من منجزات في تدبير هذا الملف وكذا تقييم أهم المحطات والاستراتيجيات وتغيير عدد من المنهجيات التي لم تعط أكلها في حسم هذا النزاع المفتعل.

1- أهم مكامن الخلل

لا نستطيع في عالم معولم تسيطر عليه المعلومات والصور رسم استراتيجية تواصلية دون إدراك كيف ينظر العالم إلى المغرب؛ أي صورة المغرب في العالم، وأصداء ما يقوم به المغرب من مشاريع كبرى سواء تنمية أو مرتبطة بحقوق الإنسان. إن استراتيجيتنا التواصلية وتقديم صورتنا إلى العالم تنقصها الفعالية، فنجد أنفسنا أمام إنجازات هامة وذات تأثير عالمي كبير إلا أن التواصل المرتبط بها يبقى ضعيفا مقارنة مع حجم هذه المنجزات.

كما أن تقوية الاستراتيجية التواصلية لا يمكنها أن تتحقق من دون تقييم لبعض المحطات الكبرى ونتائجها، مثل المنتدى العالمي لحقوق الإنسان والمبادرة الوطنية للتنمية البشرية أو مشروع الجهوية. فهل أجرينا عملية تقييم لحضورنا في أشغال مجلس حقوق الإنسان في جنيف أو في اللجنة الرابعة في الأمم المتحدة أو لحضورنا السياسي في الاتحاد الأوربي؟ وهل قمنا بتقييم موضوعي للجان المشتركة مع البرلمانات الدولية ولجان الصداقة ومدى فعاليتها من أجل الوقوف على نتائجها واستشراف ما يمكن تبنيه من برامج وسياسات لتحديد مكامن الخلل في استراتيجياتنا التواصلية وكيفية تسويق منجزاتنا ذات البعد الدولي.

وفي نفس الإطار يمكن القول إن نجاح إيصال الصورة التي نريدها إلى العالم يفرض علينا الانفتاح إضافة إلى السياسيين، على المثقفين عبر العالم والمستثمرين وأهل الاقتصاد ونجوم الرياضة والفنون، باعتبارهم فاعلين أساسيين في تكوين الرأي العام الدولي. فما هو حجم حضورنا في الأوساط الأكاديمية التي تصنع الرأي العام؟ وما مدى حضورنا داخل مراكز التأثير وصنع القرارات الدولية وكذا داخل مجموعات التفكير التي تشكل الرأي العام الدولي وتسطر توجهات اشتغال المؤسسات العالمية؟

إن مكامن الخلل في استراتيجيتنا التواصلية تسهم في رسم صورة سلبية عن المغرب في العالم بالرغم من كل الجهود المبذولة، وإن نقاط ضعفنا في التواصل تستغل بشكل كلي من قبل الخصوم الذين يعتمدون في أدواتهم التواصلية، إضافة إلى توزيع المال، على استغلال الأخطاء التي نقوم بها وهامش المناورة الذي تتيحه استراتيجياتنا التواصلية، وهناك أدلة عديدة حول هذا الأمر

لعل أبرزها قضية مخيم "اكديم إزيك"، وكيف تم الركوب على مطالب اجتماعية لسكان المنطقة وتحويل الملف إلى قضية سياسية.

إن تبني سياسة تواصلية دفاعية لم يعد بالأمر المجدي ولم يثمر نتائج جيدة لوجهة النظر المغربية ولوحدتنا الترابية، كما لم يتم تطوير عناصر خطاب موحد لدى جميع الفاعلين في الترافع والدفاع وإبراز الطرح المغربي على عكس استراتيجية الخصوم المبنية على المبادرة إلى الهجوم وتفكيك خطابنا واستغلال أتفه الأسباب لتوجيه سهام النقد وتحريك الآلة الدعائية باستعمال كافة الوسائل.

ولعل من بين العوامل التي تضعف من موقعنا التواصل في العالم هو غياب مراجع تاريخية وعلمية حول قضيتنا الوطنية، تعبر عن وجهة نظرنا، ذات المشروعية والمصداقية بشهادة مجلس الأمن، داخل البرلمانات الدولية خاصة البرلمان الأوروبي والمجلس الأوروبي واللجنة الأوروبية.

كما أن غياب إنجاز أطروحات داخل الجامعات العالمية خاصة الأوروبية تعبر عن وجهة نظرنا، يحد من انتشار المعرفة حول قضيتنا الوطنية في الأوساط الثقافية والعلمية التي تضطلع بدور محوري في قرارات الدول التي تنتمي إليها، على عكس الخصوم الذين استطاعوا أن يجعلوا من أطروحاتهم بالرغم من دفاعها عن المغالطات التاريخية والسياسية، المراجع الوحيدة حول القضية داخل الجامعات الأوروبية خاصة في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا والدول الاسكندنافية.

هذا بالإضافة إلى عدم تطوير أدبيات تعبر عن وجهة نظرنا بلغات عالمية كالإنجليزية والإيطالية والإسبانية والهولندية، خاصة وأن هنالك جاليات مغربية معتبرة حاضرة في هذه الدول ولا تتقن اللغة العربية، والأدهى من ذلك أن حتى الخرائط المتوفرة في هذه الدول كلها مبتورة لا تربط المغرب بصحرائه، بحجة أن الأمر لم يحسم بعد على صعيد الأمم المتحدة، مما يجعل أبناء جالياتنا يتلقون بدورهم نفس المعلومات المغلوطة في المدارس الأجنبية حول الصحراء.

2- مقترحات عملية

لا بديل لنا، من أجل تعزيز طرحنا العادل وتقديم وجهة موقفنا، عن تقييم كل المبادرات الموجودة بغية تحسين أدائها والرفع من مستوى جاهزيتها؛ ولا يمكن أن يتأتى بناء استراتيجيات وطنية فعالة في الدفاع عن قضيتنا الوطنية من دون إشراك فعلي والتمكين العلمي لجالياتنا عبر العالم والرفع من مستوى جاهزية شباب الهجرة المغربية للترافع عن القضية الوطنية، من خلال تخصيص منح دراسية من أجل إنجاز الأطروحات من طرف طلبة الجالية المغربية في الجامعات الأجنبية حول القضايا ذات الصلة بملف الصحراء.

كما تفرض علينا متطلبات المرحلة تكوين الشباب المغربي وتأهيله للمهن الأوروبية داخل مختلف المؤسسات المؤثرة في اتخاذ القرارات وبلورة توجهات السياسة الأوروبية على رأسها البرلمان الأوروبي ومختلف المؤسسات الفوق وطنية "supranationales" في الاتحاد الأوروبي، وإدخال أدبيات حول الصحراء بلغات أوروبية الى المكتبات العامة.

ولا مناص للمغرب من تكوين رجال قانون ومحامين لهم قدرات الترافع على القضية والانخراط بشكل كلي في الدفاع عن موقف بلادنا كما تفعل الجزائر والبوليزاريو عندما كلفت المحامي من أصل جزائري، شمس الدين حفيظ، بالدفاع عن الأطروحات الانفصالية أمام المحكمة الأوروبية وكذا تشجيع التكوين الرفيع في العلوم الاجتماعية والعلوم السياسية لحشد الحجج والتمكن من المنهجيات العلمية في الترافع الدولي، وتوجيه الشباب المنحدر من الجاليات المغربية نحو الاهتمام بالثقافة وخاصة الفن بجميع تنوعاته (السينما والرسم والصورة)، وتشجيع النجوم المغاربة ذوي الصيت العالمي على تبني القضية وتقديمها في المحافل الدولية والتسويق لها في مواقع التواصل الاجتماعي.

إن السياق المركب الذي يطبع مسار قضيتنا الوطنية يفرض ضرورة تكوين البرلمانيين المغاربة الذين يشاركون في النقاش في البرلمان الأوروبي والمجلس الأوروبي، في ملفات تخص ميكانيزمات اشتغال هذه المؤسسات وطرق إنتاج خطاب ذي قوة إقناعية، مع التمكن من اللغات الأوروبية التي تعتبر مفتاح ولوج الأوساط السياسية والاجتماعية والنقاشات الجانبية داخل أروقة المؤسسات.

بالإضافة إلى ذلك فإن مراعاة الإرث الثقافي للمجتمعات الأجنبية في تعيينات السفراء والدبلوماسيين، يعد أمرا أساسيا سيمكن الدبلوماسيين المغاربة من معرفة المسارات التاريخية وخصوصيات كل دولة على حدة؛ فالدول الاسكندنافية مثلا دول ملكية وغنية وبروتستانتية، لذلك نجدها تميل إلى مناصرة الضعيف، وهو ما يفرض أولوية أخذ هذه الأبعاد بعين الاعتبار في التعامل معها، وكسر خطاب المظلومية الذي روج له الخصوم باستغلال هذا الجانب مما جعل الدول الاسكندنافية تعتقد أن البوليزاريو تنظيم مضطهد من المغرب ويدافع عن حقه مشروع... وهو أمر خاطئ ولم يسبق أن أثبت التاريخ هذا الحق للبوليزاريو.

يجب التذكير في نفس الوقت بأن معاناة المحتجزين في تندوف هي نتيجة لمؤامرة جزائرية تستعمل الشعوب كأدعج بشرية في سياستها منذ حرب الرمال في الصحراء، والاضطهاد الحقيقي هو الطرد الجماعي للمغاربة من الجزائر من دون أي سبب فقط تمييزا وعنصرية تجاههم بسبب مغربيتهم،

وكذلك الطرد الثاني سنة 1975م واحتجاز المواطنين المنحدرين من المناطق الصحراوية في مخيمات تندوف التي تغيب فيها أبسط شروط الحياة فما بالك بالعيش الكريم. وهو ما شدد عليه الخطاب الملكي الأخير بمناسبة الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء في العيون، الذي كان واضحا ورسم عناصر خطاب يحمل الجزائر المسؤولية عن الأوضاع المزرية التي تعيشها المخيمات¹⁷.

3- نموذج الملك المصلح

إن أحد العناصر الأساسية في تحسين صورة المغرب هو تقديم صورة الملك المصلح داخل الحقل الديني، باعتباره نموذجا فريدا ومتفردا في القرن 21، وتبسيط الضوء على ما قام به من إصلاحات مهمة بدءا من مدونة الأسرة والمساواة بين المرأة والرجل ورفع جميع التحفظات فيما يتعلق بحقوق المرأة؛ ولا يمكن المرور بشكل عرضي على دوره في إرساء دعائم منع تداخل الديني والسياسي بإحداث ظهير يمنع الأئمة من الدعاية السياسية، وكذا إرساء قواعد لدولة مدنية بمقتضى فتوى "المصالح المرسله" التي أصدرها المجلس العلمي الأعلى، وكذا ضمان حقوق الأقليات الدينية في إطار إمارة المؤمنين.

لقد جعل الملك محمد السادس نصره الله من المغرب درعا واقيا في صد انتشار التطرف والإرهاب، ونموذجا يحتذى به لمجموعة من بلدان العالم خاصة الأوروبية.

إضافة إلى ذلك، وعلى المستوى الاقتصادي، استفادت مناطقنا الجنوبية في عهد جلالة الملك، أكثر من أي وقت مضى، من برامج تنمية جعلتها تحقق إقلاعا اقتصاديا ومكنتها من التوفر على البنيات التحتية والمنشآت الاقتصادية وساهمت في اندماج شباب هذه المدن في الحياة الاقتصادية وفي برامج التنمية المحلية الرامية إلى الرقي بكرامة الإنسان الصحراوي.

17 - وما جاء في نص الخطاب السامي الذي وجهه جلالة الملك محمد السادس إلى الأمة بمناسبة الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء يوم 6 نونبر 2016م: "... وفي المقابل، فإن ساكنة تندوف بالجزائر، ما تزال تقاسي من الفقر واليأس والحرمان، وتعاني من الخرق المنهجي لحقوقها الأساسية، وهو ما يجعل التساؤل مشروعا: أين ذهبت مئات الملايين من الأورو التي تقدم كمساعدات إنسانية والتي تتجاوز 60 مليون أورو سنويا، دون احتساب الملايير المخصصة للسلاح ولدعم الآلة الدعائية والقمعية للانفصاليين؟. كيف يمكن تفسير الغنى الفاحش لزعماء الانفصال الذين يملكون العقارات ويتوفرون على حسابات وأرصدة بنكية بأوروبا وأمريكا اللاتينية؟ ولماذا لم تقم الجزائر بأي شيء من أجل تحسين أوضاع سكان تندوف الذين لا يتجاوز عددهم 40 ألفا على أقصى تقدير، أي حي متوسط بالجزائر العاصمة؟ وهو ما يعني أنها لم تستطع أو لا تريد أن توفر لهم طيلة أربعين سنة حوالي 6000 سكن، يصون كرامتهم بمعدل 150 وحدة سكنية سنويا.

ولماذا تقبل الجزائر التي صرفت الملايير في حربها العسكرية والدبلوماسية ضد المغرب بترك ساكنة تندوف في هذه الوضعية المأساوية والانسانية؟..."

لقد أجاب الملك محمد السادس نصره الله عن إشكاليات القرن التي تشغل بال العالم بأسره، وقدم حلولاً للإشكاليات التي تسمم العلاقات الإنسانية والعيش المشترك سواء داخل مكونات المجتمع الإسلامي أو مع العالم أجمع؛ ملك جعل من المغرب عنصر أمن واستقرار على الصعيد الجهوي والعالمي، واستطاع معه المغرب أن يفرض وجوده ويعزز قيمه في جميع جهات بناء السلم العالمي، سواء عبر المشاركات في الحوارات العالمية حول السلام أو من خلال إسهام الجيش المغربي في بعثات حفظ السلم الدولي وفي القبعات الزرق في مختلف مناطق التوتر من أوروبا إلى إفريقيا والعالم العربي.

لذلك فمن الواجب على العالم وعلى مؤسسة الأمم المتحدة الوقوف إلى جانب ملك مصلح يشتغل على بناء أسس لمجتمع إنساني يركز على دعائم التعايش والتعاون والاحترام، وعدم الانحياز لفئة أثبتت مؤسسات أحمية أنها تنهب المساعدات الإنسانية الموجهة إلى الأشخاص المحتاجين، وتمنع الإنسان من حقه في التنقل وفي التعبير وتهدد استقرار المنطقة المفتوحة على مناطق التوتر في وقت يتجه فيه المجتمع الدولي نحو السلم سبيلاً لتحقيق التنمية وتحسين الأوضاع الإنسانية.

وللإشارة فإن الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون يتحمل المسؤولية المعنوية على ما شاهده من تردي الأوضاع في المخيمات، واستغلال الأبرياء والمتاجرة في المعونات الدولية؛ مما سيؤدي حتماً إلى تكريس مزيد من المعاناة الإنسانية.

ويبقى الحل الإنساني الذي يحفظ كرامة إخواننا في تندوف هو العودة إلى وطنهم المغرب، فوجودهم في المخيمات لا يخدم إلا أجندات قيادة البوليزاريو، وكذا جهات جزائرية تستعملهم كورقة ضغط داخلية وتستغل قضيتهم في المناورة والضحك على ذقون الشعب الجزائري الذي لا يستفيد ولو من جزء بسيط من مداخيل بلاده من مواردها الطبيعية.

ثالثاً: رمال الصحراء تسري في عروق مغاربة العالم

إن الجاليات المغربية عبر العالم لم تدع، كعادتها دائماً، فرصة توحد الجبهة الداخلية للتصدي للمواقف المناهضة لوحدتنا الترابية، ومنها تصريحات الأمين العام للأمم المتحدة المتحيزة للطرف الآخر والخارجة عن مبادئ الحياد والموضوعية التي يجب أن تتحلى بها المنظمة، تمر من دون إسماع صوتها والتعبير عن ارتباطها القوي بوطنها الأم، وكذا التأكيد على تفاعلها مع قضايا المغرب المصيرية أينما وجدت.

فكان للجالية المغربية في العديد من دول الإقامة موعد للتعبير عن انخراطها غير مشروط في الدفاع عن القضية الوطنية، فخرجت مجموعة من مغاربة العالم على قلب رجل واحد من الصين إلى أمريكا مروراً بأوروبا وصولاً إلى كندا للتنديد بكل ما من شأنه المس بوحدة الأقاليم الجنوبية، ولإبراز العلاقة المشروعة بالقضية الوطنية.

لقد عبر أفراد الجالية المغربية في أهم ساحات العواصم والمدن العالمية، بكل تلقائية ومن دون إيعاز من أحد، عن مواقفهم تجاه الوحدة الترابية للمملكة؛ إذ تجمعوا في ساحة تروكاڨيرو الشهيرة في قلب باريس، وفي ساحة سان جوم حيث مقر الحكومة الكتالونية في برشلونة هناك في إسبانيا، وفي موريل أمام مقر المنظمة الدولية للطيران المدني، ناهيك عن وقفات بنيويورك وبروكسيل...

وبشكل حضاري رفعوا الشعارات، ورددوا الأغاني الوطنية، وكتبوا اللافتات المنددة بخروج الأمين العام للأمم المتحدة عن موقف الحياد الذي يفترض في هيئة تعنى بحل النزاعات الدولية، بما يحفظ مصالح جميع الأطراف من دون الانحياز نحو طرف أو آخر.

إن خروج المغاربة للتعبير عن آرائهم حول القضية الوطنية يكشف بشكل جلي تمكنهم من الوصول إلى درجة من الوعي للتعبير بأنفسهم عن آرائهم، كما أنه تأكيد جديد على الارتباط بالوطن وبال دفاع عن قضاياها مثلما كان عليه الأمر دائماً بالنسبة للمهاجرين، حيث نجدهم يرفعون الأعلام المغربية في الأعراس ويحتفلون بالمناسبات الوطنية، ويعبرون عن فرحهم حتى إذا تعلق الأمر بمباريات كرة القدم، تماماً مثل إخوانهم في المغرب؛ ولا أظن أن هنالك شعباً خارج وطنه يدافع بحماسة عن قضاياها الوطنية ويجعلها جزءاً من همومه اليومية مثل مغاربة العالم.

لذا يحق للمغرب أن يفخر بجاليته، التي وبالرغم من بعد المسافات، إلا أن الوطن يظل ساكناً في قلوب أفرادها وفي وجدانهم؛ إنها بحق علاقة ميتافيزيقية تفوق الوصف ويختلط فيها العاطفي بالروحي وتجمع بين البعد المكاني والارتباط الوجداني.

والمغرب بدوره يبادل جاليته نفس الشعور، يتبين ذلك جلياً من خلال اهتمام صاحب الجلالة محمد السادس نصره الله بالمواطنين المغاربة في الخارج، سواء في الخطب الملكية التي تولي لهم أهمية خاصة أبرزها خطاب العرش الأخير، أو من خلال الزيارات الميدانية مثل زيارته للقنصلية المغربية في "أورلي" في إطار زيارته الأخيرة لفرنسا، وكذا عن طريق اللقاءات المباشرة مع أفراد من الجالية المغربية وإطلاعه على واقع حياتها تزامناً مع الزيارات التي يقوم بها لعدد من الدول.

ولكي يزداد عمق هذا الحب الوجداني المشترك بين المغرب ومغاربة العالم، من الواجب بلورة مشاريع لإدماج هؤلاء المغاربة في المؤسسات الوطنية وجعلهم في طليعة المدافعين عن قضايا المغرب الكبرى في الخارج؛ ورافعة أساسية في إرساء مبادئ دولة الحق والقانون، بالإضافة إلى الاستفادة من خبرتهم وإمكانياتهم في التنمية الوطنية على كافة الصعد.

وفيما يتعلق بالقضية الوطنية فقد أصبحت تطرح بإلحاح مسألة التكوين والرفع من جاهزية الجمعيات المغربية في الخارج وخاصة الشباب المنحدر من الهجرة المغربية، وهو ما يقتضي رفع درجة التكوين وتزويد الشباب بالأدوات العلمية في الترافع وتسليط الضوء على جوانب من تاريخ القضية والحجج الدامغة لارتباط المغرب بصحرائه وكذا الجهود التنموية التي بذلها المغرب في سبيل النهوض بالأقاليم الجنوبية وتعزيز كرامة سكانها.

إن المغرب يسري في قلوب مغاربة العالم مسرى الدم في العروق، وكما يتنفس أفراد الجالية المغربية أكسجين الوطن، على المغرب أن يتنفس أكسجين مغاربة العالم ويستحضرهم في وضع سياساته العمومية بشكل يومي ويجعل من الهجرة المغربية بعدا أساسيا في المقررات والبرامج الوطنية.

الصحراء المغربية بين الشرعية التاريخية وأطماع الجوار

ذ. الحسن جنان
باحث بجامعة فاس

أدخل طول المدة قضية الصحراء المغربية في متاهات الاستفتاء المرهون بإحصاء السكان المنحدرين من الأقاليم الصحراوية، ثم حقوق الإنسان وغيرها من المشاكل التي أبعدت القضية عن جوهرها الذي هو عناد السلطة الجزائرية وتغذيتها لصراع مفتعل مع المغرب، الهدف الحقيقي منه إضعافه وخفض قدراته التنافسية إلى أبعد الحدود، وكذا إلهائه وابتزازه فيما يخص الأراضي المغربية المغتصبة على الحدود الشرقية، والتي اقتطعتها فرنسا لفائدة المستعمرة الجزائرية في بداية القرن العشرين.

لذا، ارتأينا أن نعود إلى إثارة المسألة انطلاقا من جذورها الحقيقية وأسبابها العميقة، معتمدين في ذلك على الوثائق التاريخية الأجنبية على الخصوص، والفرنسية منها على وجه التحديد، والتي لا أحد يشك في انحيازها لمصالح المستعمر، لنبرهن على أن شرعية المغرب على تحومه الشرقية والجنوبية وبالأحرى المناطق الصحراوية الساحلية الغربية (الساقية الحمراء ووادي الذهب) هي حقيقة تاريخية، يقر بها المستعمر نفسه. وسنعزز هذا البحث بالبيانات التاريخية الضرورية والخرائط الترابية التي تبين الأضرار التي لحقت بالمغرب ومدى تطاول الأجنبي على أراضيه وعلى وحدة ترابه.

1- مغربية الصحراء وسياق الانقلاب على الشرعية التاريخية:

إن مغربية الصحراء حقيقة لا غبار عليها، تبرهن على ذلك كل المعطيات والحقائق التاريخية والبشرية والسياسية التي تجعل منها مجالا مغربيا بامتياز، غذى شمال البلاد على مدى قرون بمجموعات بشرية كبرى كصنهاجة ومصمودة، كما كان مهدا لجل الدول التي حكمت المغرب كالمرابطين والسعديين والعلويين. والمجال الصحراوي هو ثابت من ثوابت المجال المغربي الذي تميز

بوجود الدولة الكاملة واستمرارها في أقصى الغرب الإسلامي على مدى قرون من الزمن، امتد نفوذها خلال فترات معينة إلى الأندلس (ق 5-6هـ/11-12م) والمغربين الأوسط والأدنى (ق 6هـ-12م) وإلى نهر السنغال، حيث يوجد رباط عبد الله بن ياسين، مؤسس الدولة المرابطية (ق 5هـ/11م)، وإلى تمبوكتو وكاو على نهر النيجر (ق 10-11هـ/16-17م). وتذكر المصادر أن صلاة الجمعة المشفوعة بالدعاء لسلطان المغرب كانت تؤدي في تمبوكتو منذ فتحها في 1591م من طرف الباشا جودر إلى ما بعد 1670م، وأن باشا تمبوكتو أدى البيعة للسلطان مولاي رشيد أمام مبعوث هذا الأخير إلى مالي في 1671م.

وليس الغرض من هذا الكلام الحنين إلى أمجاد الدولة المغربية التي أتاحت لها فرص تأسيس ثلاث امبراطوريات متتالية، بل لنبرهن على أن الصحراء المغربية، موضوع الصراع المفتعل، كانت دائما بحكم موقعها الجغرافي على الواجهة الأطلسية جزء لا يتجزأ من التراب المغربي، وممرات تجارية هامة بالنسبة للمغرب سواء في شقه البري (تجارة القوافل) أو في جانبه البحري (الرواج البحري) من جهة، ومجالا حيويا يمتد من خلاله نحو جذوره الإفريقية، من جهة ثانية.

وباستعمال أوليات المنطق الجيوستراتيجي وأبسطها، ومجريات التاريخ على مدى قرون، نستنتج ما يلي :

1- لا يمكن لأي كان أن ينكر دور هذا المجال كصلة وصل دائمة في العلاقات التجارية والاقتصادية والروحية للمغرب مع بلدان الجنوب، وكان غيابه سيشكل حتما عزلا للمغرب عن باقي إفريقيا، وهذا ما لم تفرط فيه الدولة المغربية قط، كما لا يمكن تفسير الإشعاع المغربي واستمرارية حضوره في إفريقيا مع فرضية عدم انتهاء هذا المجال للتراب المغربي، بل العكس هو الصحيح كما تدل على ذلك مئات الوثائق الرسمية، وقرار محكمة العدل الدولية الصادر في 16 شتنبر 1975م، والعلاقات التجارية والاقتصادية التي تدل كل المعطيات والبراهين على أنها كانت تجري في إطار البلد الواحد. من بين هذه المعطيات الحقائق التالية :

- عرف المغرب وحدة العملة ووحدة المكايل والموازين من طنجة إلى وادي السنغال، كما جمع موظفوه الإداريون من قواد وباشوات وعمال الضرائب والرسوم في جل ربوعه باستثناء بعض الفترات من الفتن والتمرد التي ووجهت بحملات السلطة المركزية و"حركات المخزن" المعروفة.

- على الصعيد الاقتصادي، كانت الأقاليم الجنوبية إلى حدود السنغال مندمجة في الشمال المغربي، وتعمل في منظومته الاقتصادية والتجارية عبر شبكة من الأسواق والمراكز التجارية انطلاقا

من كلميم وتندوف في الشمال ووصولاً إلى أسواق وادي السنغال وتمبوكتو في الجنوب، ومن مؤشرات هذا الاندماج وحدة العملة ووحدة المكييل والموازين السالفة الذكر.

- لم تكن البضائع تخضع قط إلى رسوم جمركية بين فاس ووادي الذهب، مما يدل على أن كل المبادلات كانت داخلية، وتتم في إطار وحدود البلد الواحد.

2- إن الموقع الجغرافي للصحراء المغربية (الساقية الحمراء ووادي الذهب) على الساحل الأطلسي وفي قلب التراب المغربي، باعتبار أن إقليم شنقيط في جنوبها (موريطانيا حالياً) كان جزء من التراب المغربي إلى حدود 1920م، وأن مناطق في شرقها كانت كذلك مغربية قبل أن تغتصب في بداية القرن العشرين، من بينها توات وتندوف والقنادسة وتديكلت وغيرها، إن هذا الموقع إلى جانب الحقيقة التاريخية والسياسية للمغرب، كدولة مستقلة ودائمة الوجود، يفند كل الإدعاءات القائمة على كون هذا المجال كان أرضاً خلاء، أو كيانا مستقلاً يقطنه شعب منفصل عن باقي مكونات المغرب الموحد. وتبقى الأطماع الأجنبية وحدها وتكالب الدول الاستعمارية الأوروبية على المغرب منذ نهاية القرن التاسع عشر هي السبب الرئيسي في احتلال إسبانيا للصحراء المغربية كجزء من الكعكة التي تقاسمتها هذه الدول، وفي تعقيد المسألة بعد استرجاعها، علماً أن هذا الاستعمار لم يدم طويلاً (1934م-1975م).

مشكل الصحراء المغربية عكس ما قد يعتقده البعض لم يأت من إسبانيا كبلد مستعمر، أنهى احتلاله للمنطقة على مراحل كما نعلم، آخرها الصحراء المغربية سنة 1975م، لكن جاء من الجزائر التي ورثت عن فرنسا غداة استقلالها في عام 1962م أرضاً أوسع بكثير مما كانت عليه المستعمرة غداة احتلالها سنة 1830م. فاعتقاداً من فرنسا أنها ستجعل من الجزائر مقاطعة فرنسية دائمة كباقي مقاطعاتها وراء البحار، فإنها خططت لتأمين حدودها على حساب الأراضي المغربية، كما جعلت ضمن استراتيجيتها بسط نفوذها على إفريقيا الغربية، فسعت طوال عقود (نهاية ق 19 وبداية ق 20م) إلى تحقيق هذا الحلم عن طريق مشروع إنجاز ممر كانت تراه ضرورياً لربط المستعمرة الجزائرية بالسنغال. ولن يكون ذلك ممكناً في نظرها إلا باحتلال تندوف وتوات وشنقيط - وكلها مغربية - للوصول إلى نهر السنغال. إلا أن الحركة العارمة لاستقلال الدول الإفريقية بين 1956م و1960م حالت دون تحقيق الحلم الفرنسي، فأحيته الجزائر المستقلة في صيغة تحقيق منفذ لمعادنها المستخرج بعضها من الأراضي المغربية المغتصبة نحو الساحل الأطلسي. فعنت لها فرصة استرجاع المغرب لصحرائه كحلقة ضعيفة في اعتقادها أمام استقلال موريطانيا قبلها بستين - واستحالة

إنجاز مشروعها فوق أراضيها - فشرعت في حبك المسلسل الطويل والمعروف من الدسائس والمعاكسات لكل مصالح المغرب.

وكانت سياسة المغرب في الدفاع عن مغربيه صحرائه تركز منذ أربعة عقود على تقديم البراهين التاريخية والسياسية والإدارية والثقافية والعرقية والروحية، مع مراعاة حسن الجوار والتطلع لمستقبل أفضل في البناء المغاربي المشترك، إلا أن حسن نية المغرب وتنازلاته اعتبرها خصوم الوحدة الترابية على الدوام ضعفا ومواطن نفاذ إلى مطالب أعلى في سلم معاكساتهم، وذلك باختلاق مشاكل جديدة يصنعونها من أبسط الذرائع لعرقلة مسلسل التسوية. ومن أكبر المغالطات أن الجزائر تدعي رسميا أن لا أطماع لها في الصحراء وتدعي بلا كلل ولا ملل أنها تساند "شعبا صحراويا في تقرير مصيره"، ولم تعمل بالمقابل، بصفتها مدعية، على تقديم ما يلزم من حجج على وجود "شعب" أولا، وعلى "صحراويته" ثانيا. ولن يكتب لها النجاح لو فعلت، لأن معظم سكان المغرب صحراويو الجذور والمنبت، العرب منهم والأمازيغ، ولأن سكان الأقاليم الصحراوية - من السلف إلى الخلف - لم يعلنوا يوما انتسابا أو ولاء إلا للمغرب ولملوكه وذوي الأمر فيه، في إطار الدولة الواحدة المستقلة منذ قرون.

إن الصراع المفتعل القائم حاليا هو صراع بين المغرب والجزائر، والأطماع الجزائرية هي أطماع ترابية ذات بعد استراتيجي واضح تحاول الجزائر من خلاله مضايقة المغرب بعزله عن إفريقيا، وإيجاد منفذ لها إلى المحيط الأطلسي.

2- الموقع الجيوستراتيجي للمغرب والأطماع الأجنبية فيه خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

بلغت الإمبريالية الأوروبية مداها - كما نعلم - خلال القرن التاسع عشر، ومنذ 1830م تاريخ احتلال الجزائر، حيث أصبح المغرب يجاور قوة أجنبية توسعية على حدوده الشرقية. إلا أن «فرنسا لم تكن لها النية قط في احتلال المغرب، كما يظهر جليا من كل العلاقات مع الحكومة الشريفة. ليس لنا من أهداف سوى استتباب الأمن فوق مستعمرتنا الجزائرية، وفتح طريق عبر الصحراء نحو السودان الغربي. لهذا فإن تغيير الحدود وإلحاق توات بصفة نهائية (بمستعمرتنا) هما الغايتان الأساسيتان المطلوبتان من أجل مصلحة مستعمرتنا الإفريقيتين الكبيرتين» (الجزائر وإفريقيا الغربية الفرنسية)¹.

1 - Frisch, R.J. 1895. Le Maroc : Géographie - Organisation - Politique. Ernest Leroux, Editeur. Paris, p. 323.

وصاحب الكتاب (المغرب: الجغرافية والتنظيم والسياسة) هو نقيب في اللواء السادس بعد المئة (106) للمشاة، وضابط في الشؤون الحربية للجزائر، وفي مصلحة الاستخبارات في تونس سابقا.

وكان على فرنسا أن تجد الذرائع لتحقيق هذا الهدف، فوجدت في الثغرات المتعددة التي تضمنتها معاهدة لالة مغنية الموقعة سنة 1845م، غداة معركة إسلي (1844م) المبررات المطلوبة للتغلغل في الأراضي المغربية². وهكذا، كانت المعاهدة في حد ذاتها سببا في ثورة القبائل المتاخمة للحدود، من أهمها تمرد قبيلة أولاد سيدي الشيخ الراضية لتقسيمها وإلحاق جزء منها بالمستعمرة الجزائرية، فاستعادت وحدتها تحت الراية المغربية في عام 1861م، غداة وفاة زعيم أولاد سيدي الشيخ الشرقية الموالي لفرنسا، فامتدت انتفاضتها ضد الاحتلال الفرنسي إلى الهضاب العليا الجزائرية. وبعد عشر سنوات من الثورة انطلاقا من المغرب، خضعت للنفوذ الفرنسي في 1884م³، باستثناء بوعمامة الذي طلب حماية السلطان لواحات توات والوقوف ضد الأطماع الفرنسية. استجاب السلطان مولاي الحسن الأول لهذا الطلب فعين قائدا جديدا على واحات توات، يدير شؤونها انطلاقا من فكيك⁴.

وفي خامس غشت 1890م توصلت فرنسا إلى توقيع اتفاقية سرية مع بريطانيا⁵ في غفلة من ألمانيا التي كانت تعارض توسعها في إفريقيا عموما، وفي المغرب على الخصوص، يمكن لفرنسا بموجبها احتلال الصحراء الوسطى الغربية لفتح ممر نحو النيجر وبحيرة التشاد مقابل اعتراف فرنسا باحتلال بريطانيا للزنجبار وعدة جزر أخرى في المحيط الهندي.

وهكذا أصبحت فرنسا حرة في احتلال مناطق مغربية شاسعة تتكون من توات وگورارة وإثلي في وادي الساورة، والتي تشكل المحور الذي كانت فرنسا تنوي امتلاكه لربط إفريقيا الغربية بالبحر الأبيض المتوسط، وذلك ببناء خط سككي عابر للصحراء، وهو الحلم الفرنسي الذي لم يتحقق إلا جزئيا، حيث لم يتجاوز الخط مركز بشار.

2 - تنص المعاهدة الموقعة في 18 مارس 1845م بين المغرب وفرنسا على احترام الحدود الشمالية الموروثة عن العهد العثماني، والتي تمتد من البحر إلى ثنية الساسي (الخريطة رقم 1)، في حين لم ترسم الحدود بوضوح بين المغرب وفرنسا في باقي الجنوب، ويرجع السبب في ذلك إلى ما جاء في البند الأول (فقرة 4) من الاتفاقية من أن " ما بعد ثنية الساسي، ليس من الضروري رسم حدود دقيقة لأن الأرض لا تزرع "، فاقصر الطرفان على تحديد لائحة القبائل التابعة للمغرب وللائحة القبائل تحت النفوذ الفرنسي، إلا أن هذا التقطيع قسم العديد من القبائل إلى شطرين، كحميان وأولاد سيدي الشيخ، وغيرهما، كما نصت المعاهدة على حق كل طرف في متابعة القبائل "المتردة" فوق أراضي الطرف الآخر، وهذا ما كان يسمح لفرنسا بالتغلغل المستمر في الأراضي المغربية ثم باحتلالها في نهاية المطاف.

3 - Nordman, D, 1996 . Profils du Maghreb : frontières, figures et territoires (XVIIIème – XXème s). Uni. Mohamed V, Rabat, pp. 41 – 71.

4 - Lugan, B. 2011. Histoire du Maroc : des origines à nos jours. Ed. Ellipses, Paris, p. 219.

5 - Lugan, B. 2011, op. cit. p. 219.

غير أن هذا المشروع كان سببا مباشرا في تسارع الأحداث واستيلاء فرنسا على عين صالح ووحدات تديكلت وكورارة⁶. وهي مناطق مغربية تخضع لنفوذ السلاطين المغاربة منذ قرون، وقد ركز بها السلطان مولاي الحسن الأول على الخصوص سلطة حقيقية في 1892م بتعيين عمال على إيالاتها يديرون شؤونها عن قرب إلى أن احتل الفرنسيون عين صلاح في 1902م، مما أثار احتجاجا قويا من طرف المغرب. كما يذكر مارتان أنه إلى حدود 1897م كان حكام وأعيان تديكلت يؤدون البيعة ويرسلون هدايا إلى السلطان.

وأمام انتفاضة السكان المستمرة، اضطرت فرنسا في عهد وزير خارجيتها تيوفيل دلكاسي (1905م-1898م) للبحث عن توافق مع المغرب، فعقد الطرفان في ماي 1902م ما سمي "باتفاقيات التخوم" التي لم تحدد مناطق نفوذ كل طرف، بل سنت "مراقبة مشتركة" للمنطقة⁷. غير أن نية فرنسا باتت معقودة على احتلال هذه المناطق المغربية وغيرها بصفة دائمة، وهكذا هيمن، ابتداء من 1903م، رأي العسكريين على موقف السياسيين بفرنسا، حيث عين في ماي 1903م شارل جونار حاكما عاما للجزائر، واستقدم الجنرال اليوطي لتنفيذ خطته المتعلقة رسميا "بتهدئة التخوم" والهادفة أصلا إلى "احتلال المغرب انطلاقا من الشرق"⁸. ومنذ ذلك الحين لم يتوان العسكريون في تنفيذ خططهم. وهكذا، وبعد دك قصر زناكة ومسجده بفكيك في 8 يونيو 1903م من طرف جونار، احتل اليوطي في أكتوبر 1903م بشار⁹ الذي يراقب بحكم موقعه المتميز وادي ثير الأعلى ووحدات توات ومسالك السودان. وكان يجب ألا يكون هذا الاحتلال رسميا نظرا لموقف السياسيين الفرنسيين المناهض للاحتلال العسكري والداعي إلى مهادنة "المخزن الشريف"، مما جعل اليوطي يعلن عن احتلاله لمركز مجهول في الصحراء، أطلق عليه اسم "كولومب" نسبة إلى الضابط الذي اكتشف هذه البقعة سنة 1870م، وسرعان ما أصبحت البلدة تدعى كولومب بشار، قبل أن تعود إلى اسمها الأصلي: بشار.

6 - تطلب تمديد خط السكة الحديدية جنوب عين الصفراء إرسال بعثة علمية تحت رئاسة الجيولوجي فلامون قصد إنجاز الأشغال الطبوغرافية ورسم مسار السكة، لكن في 28 دجنبر 1899م تعرضت هذه البعثة لهجوم أفاها انطلاقا من عين صلاح، عاصمة تديكلت، مما جعل فرنسا تستدعي قواتها لاحتلال المناطق المشار إليها أعلاه، انظر كذلك:

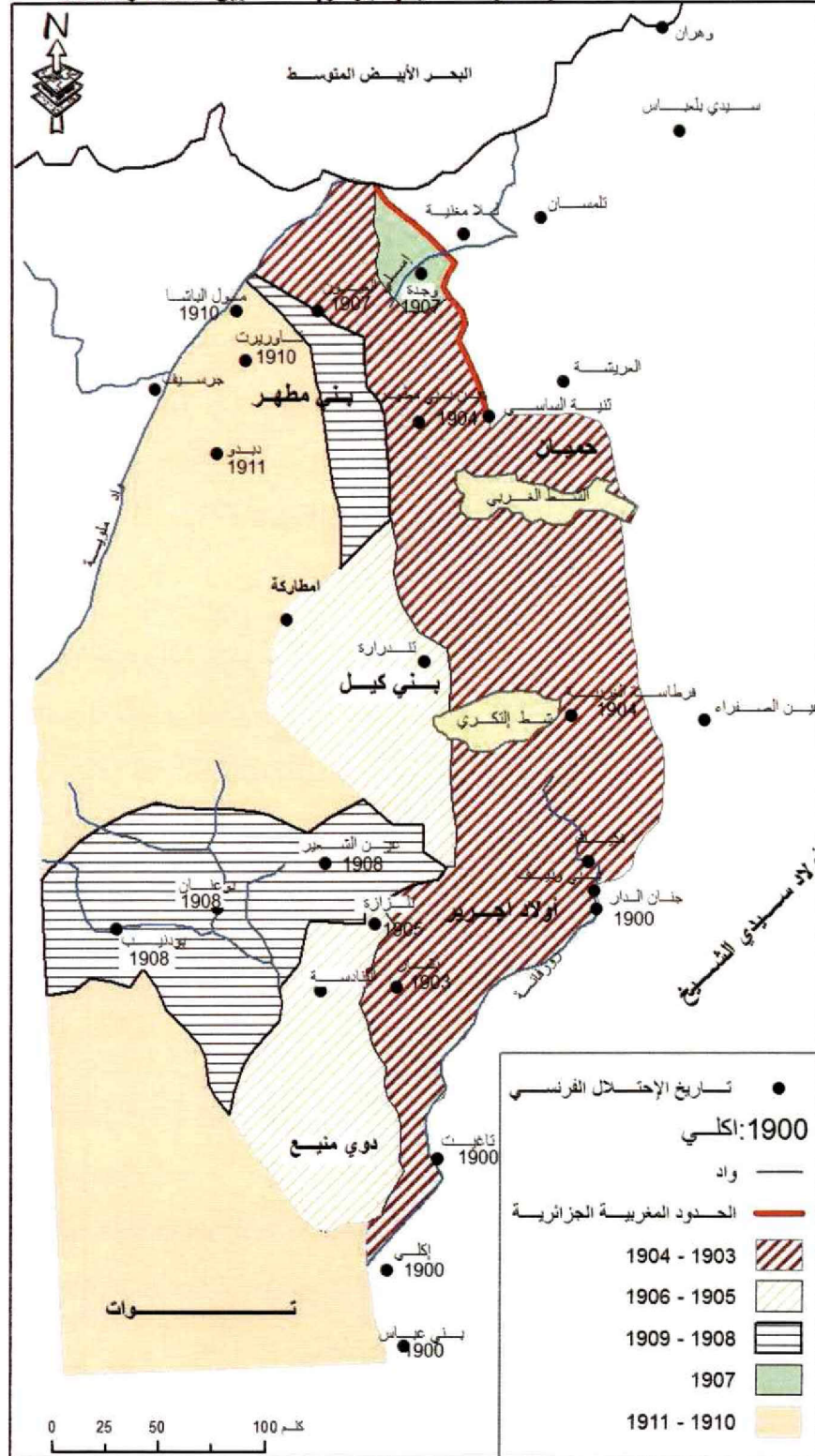
- Martin, A. 1923. Quatre siècles d'histoire marocaine au Sahara de 1504 à 1912. Paris.

7 - Lugan, B. 2011, Op. cit. p. 226.

8 - تركز خطة اليوطي على نظرية "بقعة الزيت" والتي تقوم على تحصين المواقع المحتلة تدريجيا ببناء حصون وأبراج ضمانة لاستدامة احتلالها وتثبيت الوجود بالمجال المحتل.

9 - Lugan, B. 2011, Op. cit. p. 227.

خريطة رقم 1: مراحل إقتطاع الأراضي المغربية
لفائدة المستعمرة الفرنسية (الجزائر) ما بين 1900 و1911



المراجع: نوغان برنار 2011 تاريخ المغرب (بتصرف) - ج. فرينش 1895 المغرب

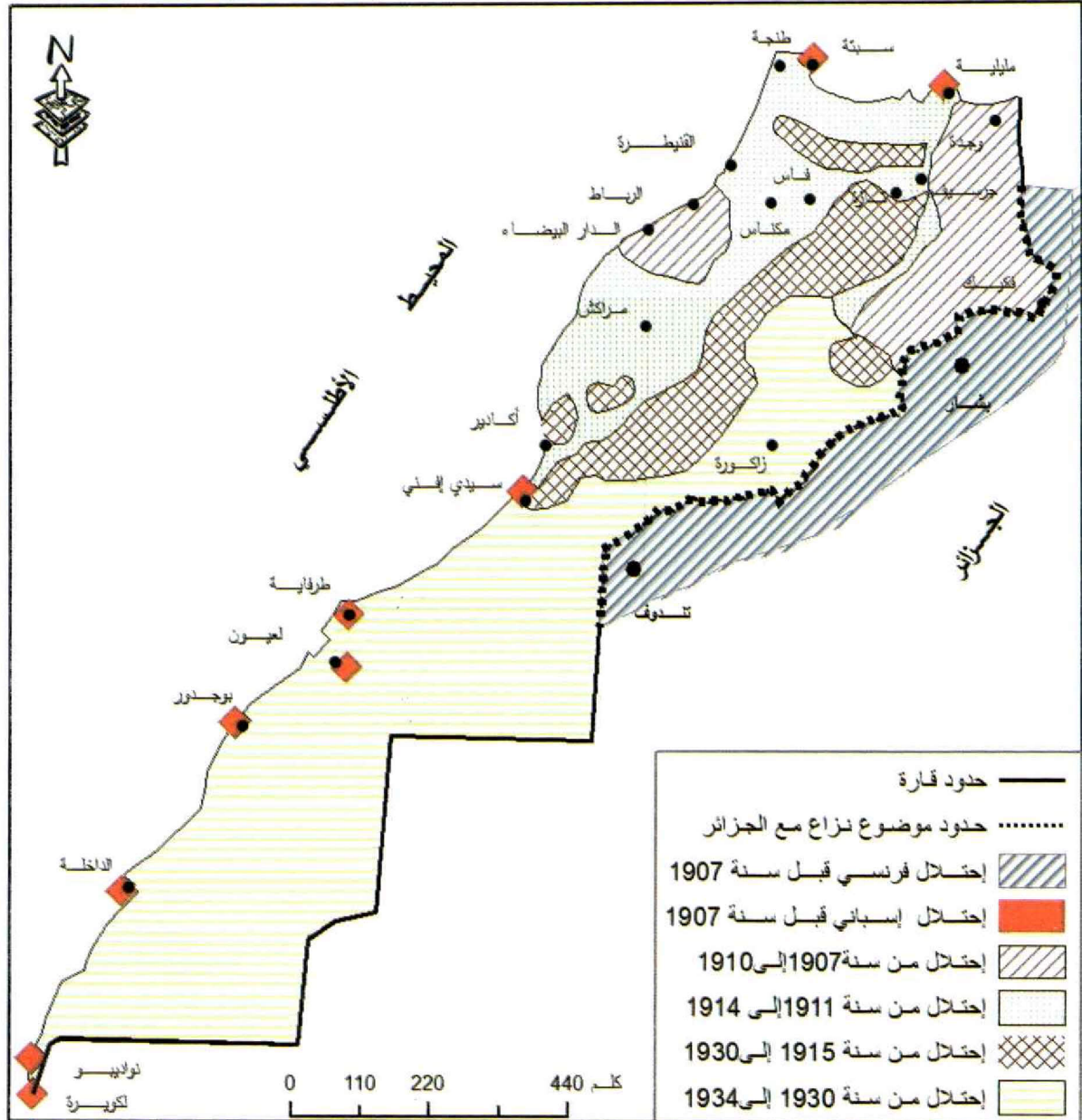
وكانت كل هذه المناورات مكشوفة لأن فرنسا تعلم جيدا أن بشار مغربية وتم ضمها عنوة إلى الجزائر المستعمرة. وما يؤكد ذلك هو مطالبة الإقامة العامة بالمغرب نفسها بضرورة عودة بشار إلى المغرب. وجاء ذلك على لسان الجنرال ثورو، المقيم العام المؤقت، سنة 1917م، ثم عاود الجنرال اليوطي بإلحاح نفس الطلب غداة عودته كمقيم عام إلى المغرب في برقية مؤرخة بفاتح ماي 1917م، عبر فيها بوضوح وانزعاج عن "استحالة القيام بمهام الحماية عندما تتعرض الأراضي المحمية للاقتطاع من طرف سلطات فرنسية أخرى"، ويقصد بذلك سلطة الاستعمار الجزائري (لوغان، ص 339). وقد جاء هذان الطلبان على إثر الغليان والانتفاضة اللذين عرفتهما قبائل أولاد اجرير ودوي منيع، إذ بلغتا ذروتها في 1917م، أمام محاولة فرنسا توسيع مجال المستعمرة الجزائرية، وتحقيق حدود طبيعية وآمنة لها من جهة الغرب، كانت تراها في وادي ملوية ووادي كير. وتوالت بعد ذلك مراحل اقتطاع الأراضي المغربية لفائدة المستعمرة الجزائرية، في إطار حملة واسعة كما يتبين جليا من الخريطة رقم 1، التي تحدد بدقة المناطق المحتلة وتاريخ هذا الاحتلال.

في خضم هذه الحملة انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء من 7 يناير إلى 6 أبريل 1906م، ضم 13 دولة منها الولايات المتحدة الأمريكية، والمغرب طبعاً، وتم بموجب مقتضياته اقتسام المغرب إلى مناطق نفوذ فرنسية وإسبانية في ظل احتفاظه باستقلاله ووحدة ترابه، وذلك بفضل الضغوط التي مارستها ألمانيا على المؤتمر. ولن تفرض الحماية على المغرب كما نعلم إلا في سنة 1912م.

وتبين الخريطة الثانية مراحل احتلال المغرب من طرف فرنسا وإسبانيا بناء على التفاهات التي نتجت عن مؤتمر الجزيرة الخضراء (1906م) بين الدول الأوروبية في مرحلة أولى، ومعاهدة الحماية (1912م) مع فرنسا وإسبانيا في مرحلة ثانية.

ويدل طول مدة الصراع من أجل الاحتلال، وتعدد مراحل، على ضراوة المقاومة المسلحة التي أبدتها المغاربة لحماية أوطانهم والدود عن وحدة واستقلال أراضيهم. وهكذا نلاحظ أن بعض المناطق - الجبال منها على الخصوص - لم تعرف الاحتلال أكثر من ربع قرن، كما أن الساقية الحمراء ووادي الذهب لم يخضعا للاحتلال الإسباني إلا بعد 1930م، ولم يكن لإسبانيا وجود فيها قبل ذلك باستثناء المرافق الواردة في الخريطة، والتي عادت إليها في إطار التقسيم الذي فرضته الدول الأوروبية، تارة سرا وتارة علانية، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

خريطة رقم 2: مراحل الإحتلال الفرنسي والإسباني للمغرب (1907-1934)



المراجع: تاريخ المغرب (أرشيف) - لوغان برنارد - 2011. تاريخ المغرب - ر. ج. فريش: 1895. المغرب.

3- الصراع المغربي الجزائري: أطواره وتداعياته.

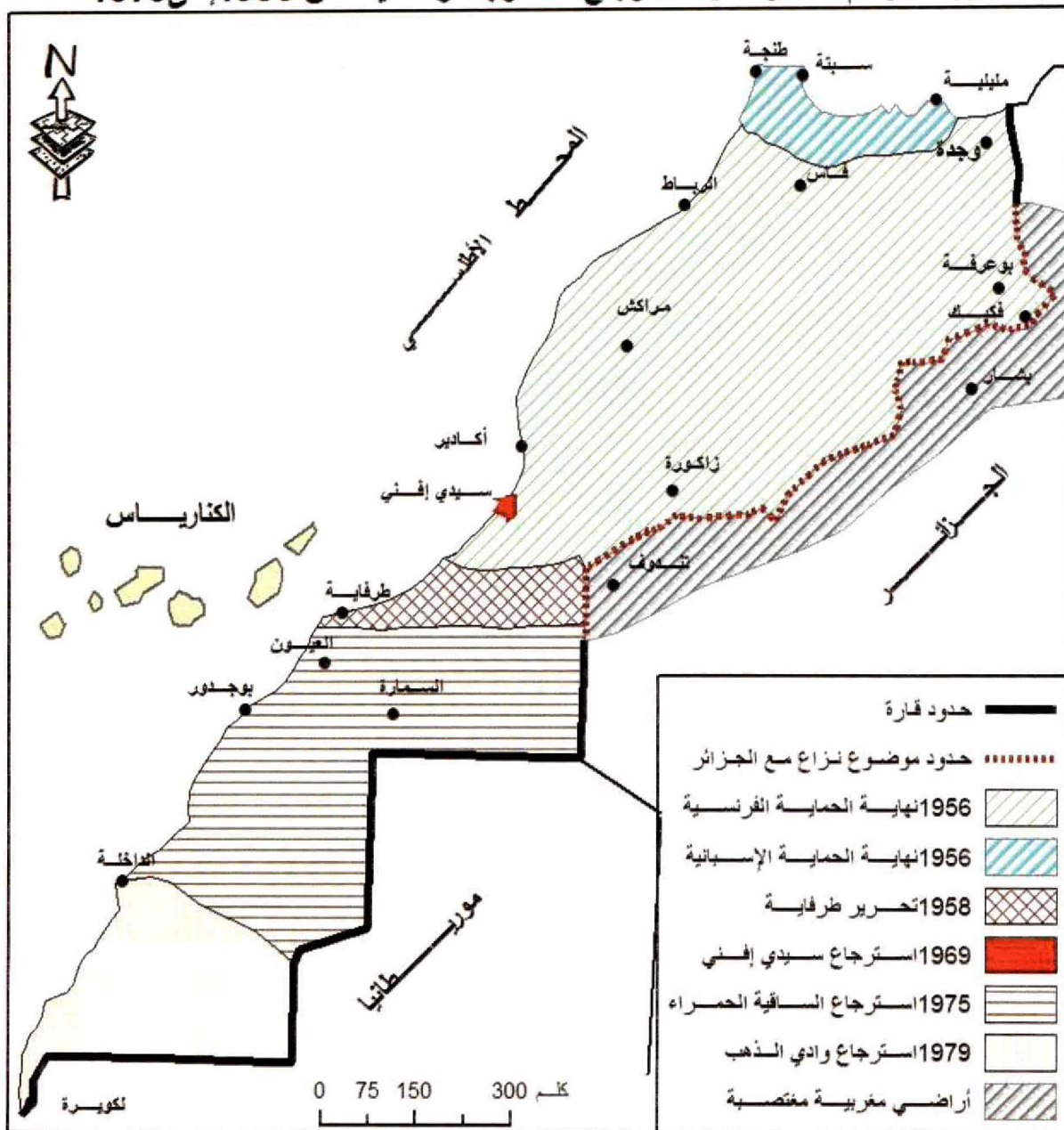
إن تاريخ الحماية بالمغرب هو تاريخ قصير (أقل من نصف قرن) لكنه استثنائي وحافل بالأحداث. فكما احتل المغرب على مراحل، استرجع استقلاله كذلك على مراحل (الخريطة رقم 3). وهكذا استقل في جزئه الشمالي عن فرنسا وإسبانيا سنة 1956م، باستثناء سبتة ومليلية وجزر صغيرة على طول الساحل المتوسطي المغربي، كما استعاد إقليم طرفاية سنة 1958م، وسيدي إفني سنة 1969م، واسترجع الساقية الحمراء سنة 1975م ووادي الذهب سنة 1979م، فيما انفصلت عنه أقاليم شنقيط منذ 1900م في ظروف لم يقبل بها، فطالب باسترجاعها إلى حدود استقلالها سنة 1960م، ولم يعترف بها لدى الأمم المتحدة إلا سنة 1969م¹⁰، عندما تأكدت لديه نية الجزائر في معارضة استرجاعه لإقليمي الساقية الحمراء ووادي الذهب، بعد أن تنصلت قبل ذلك من عهود قطعها زعماءها وحكومتها في المنفى على أنفسهم.

كما تجدر الإشارة إلى أن المحتوى المجالي المفصل للبخانة المعنونة بـ "الاحتلال الفرنسي قبل 1907م"، الواردة في مفتاح الخريطة رقم 2، هو ما عرضنا له بتفصيل قبل ذلك وضمناه الخريطة الأولى. ويظهر من خلاله مدى شساعة الأراضي المغربية التي اقتطعها المستعمر الفرنسي وضمها إلى مستعمرته، ولم يتمكن المغرب من استرجاعها بعد استقلال الجزائر إلى اليوم، كما ظلت الحدود الشرقية موضع نزاع بين البلدين .

10 - أبرمت فرنسا وإسبانيا سنة 1900م اتفاقية نالت فرنسا بموجبها كل المنطقة الموجودة بين وادي الذهب والسنغال، لكن احتلالها لم يكن قد حدث بعد. وفي سنة 1905م (12 ماي) قتل كزافيي كوبولاني، أول مفوض فرنسي في أقاليم شنقيط، من طرف المقاومة، فعوضه العقيد كورو الذي أخضع على التوالي أقاليم أدرار وأطار وشنقيط وواديان (يناير-يوليوز 1908م). لكن المقاومة ضد المستعمر لم تتوقف حتى سنة 1936م، حيث قاد تقي الله ماء العينين بين 1923م و1931م ثورة حقيقية ضد الاحتلال الفرنسي.

وعن مغربية أقاليم شنقيط كتب كوبولاني يقول: "موريطانيا امتداد طبيعي وسياسي للأمبراطورية الشريفة للمغرب، وفرنسا هي التي سمت هذه المناطق الصحراوية بموريطانيا، في حين يتعلق الأمر بالنسبة للمغاربة بأقاليم شنقيط، وهي منطقة كانت دائما تحت نفوذ المغرب" (ورد في: لوغان، مصدر سابق، ص 317). ومنذ سنة 1920، اقتطعت أقاليم شنقيط من المغرب، حيث كانت تشكل منذ عهد الدولة السعدية (ق 16-17م) من أربع إمارات هي: أدرار، وبراكنة، وتكانت، وترارزة، وضممتها إلى مستعمرتها الإفريقية الثانية (إفريقيا الغربية الفرنسية). وظل المغرب يطالب بها رسميا لدى الأمم المتحدة وفي كل المحافل الدولية إلى أن استقلت سنة 1960م، مدعوما في ذلك بسكان وأمراء هذه الأقاليم وبعض تنظيماتهم كحزب النهضة الوطنية الموريطانية. ومنذ 1956م، استقر عدد من القادة الموريطانيين بالمغرب، كما كان يأتي البعض الآخر للبيعة وطلب الانضمام إلى المغرب، وعلى رأسهم فال ولد عمير، أمير ترارزة، وغيره من أعيان موريطانيا وقادتها.

خريطة رقم 3: مراحل استرجاع المغرب لأراضيه من 1956 إلى 1979



المراجع: أرشيف تاريخ المغرب- تركيب الباحث

ساند المغرب حركة التحرير الجزائرية بالقدر المعروف والشكل الذي يحفظه التاريخ، ولا مجال للتذكير بهما هنا، ورفض ترسيم حدوده مع فرنسا لكي لا يعتبر ذلك طعنة في ظهر الجزائر المحتلة، فكان جواب السلطان محمد بن يوسف على الطلب الفرنسي هو أن المغرب يفضل أن يحل مشكل الحدود بعد استقلال الجزائر للسبب المذكور وليس قبله. وهكذا وقع في 6 يوليوز 1961م مع "الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية" اتفاقية تنص على أن مشكل الحدود بين البلدين سيوجد حلا مرضيا مبنيًا على التفاوض والتفاهم بمجرد حصول الجزائر على استقلالها. وكان نص الاتفاقية مفعما بالطموح وبالنوايا الحسنة، وتأسست لذلك لجنة مشتركة، طالب المغرب باجتماعها بعد استقلال الجزائر لتفعيل اتفاقية 6 يوليوز 1961م، لكن حكومتها برئاسة أحمد بن بلة لم تستجب لطلب المغرب، وكانت قد أبعدت في 15 شتنبر 1963م فرحات عباس، موقع الاتفاقية، تمهيدا لهذا الموقف.

وهكذا نصبت الجزائر نفسها وريثا لفرنسا على الأراضي المغربية التي عاشت منذ قرون تحت حكم الدولة المغربية الموحدة والمستقلة. وقد قطعت خط الرجعة في صراعها مع المغرب عندما هاجم جيشها في 8 أكتوبر 1963م منطقة فكيك وأفنى عدة ثكنات عسكرية بكل من حاسي بيضا وتينجوب وتينفوشي، وهدد باحتلال فكيك. وكان رد المغرب قويا، فاندلعت "حرب الرمال" التي انتصر فيها المغرب، لكنه لم يستغل هذا الانتصار لاسترجاع أراضيه لاعتبارات سياسية جعلت موقف المغرب يبدو آنذاك أكثر حكمة وورازنة¹¹. كما تجنب إهانة الجزائر لاعتبارات أخرى أهمها أن تصفى مسألة الحدود بين البلدين بصفة ودية ونهائية ليتفرغ المغرب لقضية استرجاع الساقية الحمراء ووادي الذهب من المستعمر الإسباني بمساندة الجزائر لمساعيه في هذا الباب. لكن ذلك أيضا لم يحدث، حيث أن الجزائر بدأت منذ 1975م بتسليح مقاتلي البوليساريو ضد المغرب، وإيواء فلول من مختلف الجنسيات في مخيمات الحمادة، أي في تندوف التي هي أصلا أرض مغربية قحة¹²، فقدتها

11 - اعتبر الملك الحسن الثاني آنذاك أن مبدأ القيام بالحرب يجب أن يفضي إلى سلم يدوم على مدى جيل على الأقل. وإذا لم يكن كذلك فمن الأفضل أن يحجم الإنسان عن الحرب لأنها تشوه الحاضر وتقوض المستقبل. فما الفائدة من ضياع الرجال والمال إذا كانت هذه الحرب ستندلع من جديد بعد أربع أو خمس سنوات؟ (الحسن الثاني، 1993م: ذاكرة ملك، ص: 86 من الطبعة الفرنسية).

12 - يحتفظ أرشيف المملكة بالعديد من الوثائق تثبت استمرارية الإدارة المغربية في وادي تندوف الذي كان تابعا لنفوذ خليفة تافيلالت وقواده المعينين بظواهر سلطانية من ملوك المغرب.

أسست فيها يبدو في القرن السادس عشر للميلاد ثم اندثرت، ولم يعد تأسيسها إلا بين 1852 و 1857م من طرف زعيم قبيلة تيجكانت التابعة للمغرب بحكم فروض البيعة. احتلتها فرنسا سنة 1934م، وضمتها في مرحلة أولى إلى المنطقة العسكرية للحكم الفرنسي بالمغرب قبل أن تضعها لمدة وجيزة تحت نفوذ الحاكم العام للجزائر، ثم عادت من جديد إلى المغرب. وفي 1956م كانت تندوف تابعة إداريا لجهة أكادير التي كان يمتد نفوذها الإداري إلى غاية الاحتلال الإسباني =

المغرب في أكتوبر 1962م فقط في ظروف تبعث على الاستغراب: فإلى حدود يوليو 1962م، تاريخ استقلال الجزائر، كان لفرنسا وجود عسكري ضيق بتندوف (عبارة عن ثكنة) إلى جانب الإدارة المغربية، ومع انسحاب الجيش الفرنسي في أكتوبر من نفس السنة استولى جيش التحرير الوطني الجزائري على المدينة وطرد بالقوة الإدارة المغربية التي رفضت أطرها الانسحاب، مما خلف ضحايا بينهم. وتعود آخر بيعة أدتها قبائل تجكانت والرگييات من تندوف للملك المغرب إلى شهر يوليو 1962م¹³.

واليوم، بما أن الأرض مغربية وسكان مخيمات لحماة مغاربة محتجزون فوقها، وحيث إن الجزائر تدعي الدفاع عن "حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره"، فمن واجبها أن تنظم استفتاء في المخيمات يتم من خلاله اختيار ساكنة تندوف بين العودة - أرضا وسكانا - إلى الوطن الأم (المغرب) أو الحكم الذاتي فوق أراضي تندوف وتحت السيادة المغربية باعتبار المغرب المالك الأصلي والشرعي للأرض. ونفس الفعل يجب أن يمتد إلى باقي الأراضي المغربية المغتصبة على حدوده الشرقية إذا كان حكام الجزائر أوفياء حقيقة لمبدأ تقرير المصير، والذي يصح على هذه الأراضي وسكانها أكثر من غيرها.

= = في 1934م إلى الحدود مع شتقيط التي اقتطعتها فرنسا بدورها من المغرب منذ 1920م كما أسلفنا. وكان حصن ترينكي (أم كرين حاليا) تابعا للمغرب. فكيف يمكن ألا تكون الساقية الحمراء ووادي الذهب بحكم موقعها أرضا مغربية؟ (عن لوغان: مغربية تندوف، ص 326-327، مصدر سابق).

13 - Lugan, B. 2011, Op.cit, pp. 326 - 327.

إيديولوجية "البوليساريو" خارج مقررات القانون الدولي

ذ. عز الدين قريوح
محام مغربي بألمانيا¹

هناك محاولات توضيح ونظريات مختلفة حول نشأة وقيام النزاعات المسلحة والأسباب التي تؤدي إلى اندلاعها. وفي نظري، إن إشكالية الصراع في منطقة الصحراء المغربية تستلزم تحليل النزاع انطلاقاً من وجهة نظر قانونية قصد الوصول إلى نتائج موضوعية.

ويهمني في هذا المقال أن أبين هل تحظى أطروحة انفصاليي جبهة "البوليساريو" بالشرعية الدولية؟

إن ميثاق الأمم المتحدة يشير بوضوح إلى حق الشعوب في تقرير مصيرها²، ويسود الاتفاق بالأغلبية اليوم حول المعنى القانوني لهذا المبدأ الأساسي بميثاق الأمم المتحدة: ويتعلق الأمر هنا بمبدأ حقيقي في القانون الدولي.

ويسود الاتفاق حول مسألة أن تحقيق حق تقرير المصير لا يؤدي حتماً إلى تدمير دولة ذات سيادة وشعوب وقبائل مختلفة.

ويمكن لشعب ما ضمان حق تقرير مصيره ببقائه داخل وتحت سيادة دولة قائمة مستقلة ذات شعوب وقبائل متعددة (على سبيل المثال بواسطة ضمان حق الحكم الذاتي)، ولهذا فإنه لا يحق لنا المقارنة بين حق الشعوب في تقرير مصيرها وحقها في الانفصال.

والخلاف يسود وسط أخصائيي القانون الدولي حول مفهوم حق تقرير الشعوب لمصيرها، هل حق تقرير المصير يعطي الأقليات حق مطالبتها بالانفصال عن دولة قائمة ذات سيادة؟ إن الرأي العام السائد في العلوم القانونية يرفض مثل هذا الحق في تقرير المصير، ويشير إلى أهمية الدول القائمة في الحفاظ على وحدتها الترابية ومصلحة الدول في الدفاع عنها.

1 - مؤلف كتاب "النزاع في الصحراء الحكم الذاتي كحل رشيد" باللغة الألمانية.

2 - كما جاء في المادة الأولى فقرة 2 والمادة 55.

وهناك رأي تمثله الأقلية التي تعتقد أن حق تقرير المصير له خاصية تتجلى في حق الدفاع عن النفس، وبالتالي ينتج عن هذا حق الانفصال عند وجود حالات طارئة، على سبيل المثال خروقات القانون الدولي (جرائم القتل الجماعي)³.

نستنتج من هذا الكلام أنه حسب الرأي العام السائد وسط خبراء القانون الدولي، فإن جبهة "البوليساريو" ليس لها الحق في طلب الانفصال.

وحتى حسب الرأي السائد لدى الأقلية، فالشروط الواجب توفيرها على الأقل للحصول على حق الانفصال منعدمة.

وتكمن الإشكالية هنا أولاً في تعريف مفهوم الشعب "في حق الشعوب" في تقرير مصيرها، فإن لم يحصل الاعتراف بشعب ما، فليس لهذا الشعب الحق في حقوقه الخاصة.

3 - يقول الكاتب والسياسي والديبلوماسي المغربي الراحل عبد الهادي بوطالب: "... لقد تساءل الفكر القانوني الدولي عما إذا كانت إشكالية ثنائية حق الشعوب في تقرير مصيرها من جهة، وحق الدول في الحفاظ على وحدة ترابها وسيادتها تحتضن تناقضاً بين الشقين، وانتهى إلى أن حق الشعوب في تقرير مصيرها قد انتهى العمل به لأنه كان يعني رفع الاستعمار عن المستعمرات وتحرير الشعوب بناء على حقها في تقرير مصيرها. ولأن هذا الاستعمار قد انتهى، فإن الحق الناتج عنه قد انتهى أيضاً، لأن فقد السبب يقتضي انتهاء المسبب.

وعلى العكس لا يمكن انتهاء حق الدول في الحفاظ على وحدتها وبسط سيادتها على كامل ترابها لأنه حق ثابت لا يزول إلا بزوال الدولة المعنية به أو انقراض مفهوم الدولة".

كما أشار إلى القرار الذي أصدره المجلس الأعلى للقضاء في كندا قراراً بمنع الحكومة الكندية المركزية من التخلي عن «كيبك» وعدم السماح لها بالاستقلال، "لأن الحكومة لا تملك هذا الحق. وهي ملزمة بالتقيد بمبدأ واجب الحفاظ على وحدة كندا الترابية وعلى وحدة سيادة الوطن الكندي. وإضافة القرار أنه لا يجوز أن يطبق على حالة «كيبك» (التي توجد فيها حركة انفصالية تريد أن تطبق الفرنكفونية) مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها. وقالت المحكمة العليا الكندية إنه لا يوجد في القانون الدولي ما يسمى حق فصيلة من الشعب في الانفصال عن وطنها بإرادتها الانفرادية.

وأثار قرار المحكمة إشكالية تعريف «الشعب» الذي لم ينته القانون الدولي إلى تعريف المراد منه. وقال إنه لا يمكن أن يعتبر شعباً فصيلة منه تعمل بإرادتها المنفردة للانفصال عن شعبها الكبير الذي تؤطره دولة ذات سيادة وينتشر على تراب وطني واسع. لذلك كله حظرت المحكمة الكندية العليا على الحكومة الكندية المركزية أن تقبل هذا الانفصال أو تسلم به أو تساعد عليه". وجاء في ختام قرار المحكمة الكندية ما يلي:

«إن أية دولة تدير شؤونها حكومة لا تفرق بين فصائل شعبها المنتشرة على ترابها الوطني الواحد، ولا تقيم بينها تمييزاً عنصرياً، وتعامل شعبها بمبادئ المساواة، لا يجوز لها بمقتضى القانون الدولي أن تقبل الانفصال أو تساعد عليه، وإنما يكون واجبها الأوحد هو المحافظة على ترابها وسيادتها الوطنية على هذا التراب».

انظر: عبد الهادي بوطالب، "الإشكالية القانونية لحق الشعوب في تقرير مصيرها وحق الدول في الحفاظ على وحدة ترابها"، جريدة "الشرق الأوسط" اللندنية، 21 غشت 2002م العدد 8667.

ومن المسلم به تاريخيا أن سكان الصحراء المغربية، ظلوا أوفياء لعقد البيعة الشرعية التي تربطهم بسلاطين المغرب وبوطنهم الأم، وحتى وقت انسحاب الاستعمار الإسباني من الصحراء المغربية كانت أغلبية سكان هذه الأقاليم رحلا متنقلين.

وطبقا للمبادئ الأساسية للقانون الدولي فإن السكان الرحل المتنقلين لا يمكن لهم تكوين دولة معترف بها.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو معرفة هل يمكن الحديث عن نقط يتجلى فيها خرق للقانون الدولي.

ولسنا في حاجة للإجابة عن هذه الأسئلة، لأن حق انفصال الأقليات يصبح منعما لسبب عدم احترام منع استعمال العنف.

إنه من الضروري بالنسبة لأنصار حق الانفصال احترام بصرامة منع استعمال العنف قصد تحقيق حق تقرير المصير؛ فميثاق الأمم المتحدة ينص في المادة الثانية: فقرة 4، على احترام منع استعمال العنف⁴، ومنع استعمال العنف يشكل مع الحق المنحدر منه وهو الحق العام للشعوب في السلم ركنا من القانون الدولي الجاري به العمل، ولهذا فإن كل تقليل من أهمية منع استعمال العنف كيفما كان نوعه يصبح شيئا محظورا.

وطبقا للقانون الدولي الجاري به العمل، فإن منع استعمال العنف يحظى بالأولوية على حق تقرير الشعوب لمصيرها بالرغم من أن المبدأين يمثلان القانون الدولي الملزم به على حد سواء.

إن جبهة "البوليساريو" لا يمكن اعتبارها تنظيما عسكريا منظما على المستوى الدولي، وإنما هي جماعة خارج القانون، تلجأ إلى استعمال طرق عسكرية من أجل تحقيق أهدافها السياسية باستعمال العنف.

إن جبهة "البوليساريو" تحاول تحقيق مصالحها باستعمال العنف العسكري، وهذا الأمر مسلم لا يحتمل أي نقاش لدى زعماء وأنصار الجبهة.

4 - تنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية من الفصل الأول لميثاق الأمم المتحدة على ما يلي: "يمتنع أعضاء الهيئة جميعا في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأي دولة أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد "الأمم المتحدة".

ونذكر أن القانون الدولي الجاري به العمل ينص في المادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة على "الحق الطبيعي" المسمى بحق الدفاع عن النفس، لكن حق الدفاع عن النفس يخول فقط للدول القائمة وذات سيادة، وليس لجماعة خارج القانون كما هو الشأن بالنسبة لجبهة "البوليساريو"⁵.

فجبهة "البوليساريو" ليست دولة، بل هي جماعة خارج القانون كما قلنا ولهذا فليس لها الحق في حق الدفاع عن النفس، وما يسمى كذلك بـ "الجمهورية العربية الديمقراطية" التي تم الإعلان عنها من طرف جبهة "البوليساريو" لا يحق لها استعمال حق الدفاع عن النفس، لأنها ليست عضوا في منظمة الأمم المتحدة.

وإن عضوية أي دولة ما في منظمة الأمم المتحدة تحتاج إلى الاعتراف بهذه العضوية من طرف جميع الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي وهي: الولايات المتحدة الأمريكية، وروسيا، والصين، وفرنسا، والمملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية.

إن ما يسمى بـ "الجمهورية العربية الديمقراطية الصحراوية" التي تم الإعلان عنها من طرف جبهة "البوليساريو" لا تحظى باعتراف هذه الدول.

وعلى سبيل المثال، تجدر الإشارة إلى أن أغلبية الدول الأعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية، وكذلك أغلبية الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة لم تعترف بها يسمى بـ "الجمهورية العربية الديمقراطية الصحراوية" التي تم الإعلان عنها من طرف الحركة الانفصالية "البوليساريو".

ومن الممكن أن تكون هناك أصوات قليلة ترى في إعطاء الأولوية لحق تقرير الشعوب لمصيرها بدعوى أن منع استعمال العنف بدعوى حق تقرير الشعوب لمصيرها عرقلة في وجه هذه الأخيرة في حق تقرير مصيرها.

5 - تنص المادة 51 من الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة على ما يلي: "ليس في هذا الميثاق ما يضعف أو ينقص الحق الطبيعي للدول، فرادى أو جماعات، في الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء "الأمم المتحدة" وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي، والتدابير التي اتخذها الأعضاء استعمالا لحق الدفاع عن النفس تبلغ إلى المجلس فورا، ولا تؤثر تلك التدابير بأي حال فيما للمجلس - بمقتضى سلطته ومسؤولياته المستمرة من أحكام هذا الميثاق - من الحق في أن يتخذ في أي وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولي أو إعادته إلى نصابه".

وهناك نماذج من التاريخ توضح أن هذا الادعاء خاطئ، لا أساس له من الصحة، ولم يؤخذ بعين الاعتبار؛ إذ أنه في كثير من الحالات التي تم فيها خرق القانون الدولي كانت ردود الفعل بطرق سلمية دون اللجوء إلى استعمال العنف.

ويجب علينا الأخذ بعين الاعتبار أن ميثاق الأمم المتحدة يظهر لنا شتى إمكانيات رد الفعل إزاء خرق القانون الدولي.

وفي هذا السياق نذكر بالمادة 51 من ميثاق الأمم المتحدة والتي تنص على أنه بالإمكان استعمال ردود فعل جماعية، إذا دعت الضرورة، بطرق عسكرية.

وخلاصة التحليل: إننا نؤكد على أن أطروحة جبهة "البوليساريو" يجب أن تلقى معارضة شديدة في أوساط أنصار الحق في الانفصال.

إن ما تم توضيحه سابقا يظهر أن القانون الدولي يسعى إلى خلق توازن بين الوحدة الترابية للدول وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وهذا الأمر يؤدي إلى ضمان حالة الحكم الذاتي كخيار ديمقراطي متقدم.

ولم يستطع مبدأ الحق العام في الانفصال فرض إرادته على القانون الدولي وبالتالي لم يلق نجاحا، لأن القانون الدولي الجاري به العمل يحمي الوحدة الترابية لجميع الدول التي لها حكومات تمثل جميع أفراد شعبها بدون تمييز بسبب الجنس، أو الاعتقاد الديني أو لون البشرة، كما ذكر في تصريح الأمم المتحدة حول علاقات الصداقة في 24 من شهر أكتوبر سنة 1970م.

قضية الصحراء المغربية وإشكالية الاستفتاء: من المثالية إلى النجاعة

ذ. خالد شيات
أستاذ العلاقات الدولية،
جامعة محمد الأول، وجدة

إن الصحراء المغربية هي قضية استكمال وحدة ترابية للمغرب تحولت بتأثير عاملين إلى نزاع ترابي قائم على مبدأ من مبادئ القانون الدولي والعلاقات الدولية، وهو مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها؛ العامل الأول هو نزعة المجتمع الدولي إلى التنميط في معالجة قضايا الاستقلال بعد موجة الاستعمار الغربي، وتركيز مجهوده الهادف لاستقلال الدول على تركة الاستعمار نفسه، حيث إن الدول المستقلة هي بقايا جغرافية الاستعمار ولا يمكن أن تكون بأي حال من الأحوال امتدادا لحركات التحرر نفسها. والعامل الثاني هو عدم تزامن مفهوم الاستقلال مع المعايير الاستراتيجية الوطنية للاستقلال وارتباطها لمعايير قارة غير متحركة وجامدة قامت عليها ما يسمى بالشرعية الدولية، أي مسألة عدم تناسب السعي المغربي مع تحرير كل أراضيه مرحليا مع المحددات التي سبق للمجتمع الدولي أن أقامها، وعلى رأسها اعتبار المنطقة أرضا لم تعرف سيادة مغربية خالصة بالمفهوم الذي يعزز بناء دولة موحدة من جهة، والجمود النظري لمبدأ تقرير المصير من جهة ثانية.

إن تداخل محددات القانون الدولي في استمرار نزاع الصحراء مسألة بينة وظاهرة، ليس لأن البديل هو إقرار واقع موضوعي من خلال الصراع، الذي هو متناقض مع مسارات السلم القائم كأساس لبناء منظومة الشرعية الدولية، وذلك بين أطراف النزاع التي يمكن من خلالها الوصول إلى قواعد مستقرة للسلام فقط، بل لكون المقررات الدولية التي تقوم عليها ما يسمى بالشرعية الدولية هي حاجز حقيقي لوضع تخطيط قابل للتطبيق لعدة اعتبارات منها، أولا: أن التناسب بين الحل القابل للتطبيق والمعطيات الواقعية لم يجد طريقه للوجود بعد، فكل المسارات التي تضعها الأمم

المتحدة، باعتبارها راعية لمسار السلام بالمنطقة، هي مسارات تميل إلى القانونية أو الحفاظ على المبدئية التي تحكم العمل المثالي لتصور الحل النهائي. وثانيا: ارتكازها في تصور الحل النهائي على الآليات التي تتخذ من خلالها القرارات داخل المنظمة الدولية والتي تقوم على مبدأ التوازن وليس على تحقيق العدل والسلام الدولي باعتباره معطى ومسعى نهائيا، بل إن السلم الدولي هو نزعة سياسية قائمة على أبعاد استراتيجية، وليس نزعة قانونية يمكن أن تعطي بديلا قارا لحل أو تصور نهائي، بعيدا عن المعطيات الموضوعية التي تتحكم فيها القوى المهيمنة على القرار الدولي باعتباره مدخلا لضمان المصالح والحفاظ على التحالفات.

من خلال تتبع مسار طويل للنزاع حول ضابط الشرعية الذي يقوم عليه تصور حل نهائي لقضية الصحراء يمكن الخروج بتصورات حول موانع الحل المرتقب، والحواجز الموضوعية التي تحول دون تطبيقه من جهة، وكذا يمكن إعطاء توجهات كبرى لتجنب السعي المفرط للقانونيين لحل النزاع على حساب الرؤى الموضوعية القائمة على البعدين الاستراتيجي والمبدئي.

هل يمكن بناء الأسس التي يقوم عليها حل قضية الصحراء، باعتباره بؤرة صراع، في نسق قائم على أسس القانون الدولي فقط؟ وهل يمكن أن يكون هذا البناء ركيزة لاستمرار السلام؟ وما هي الضوابط الموضوعية التي تتيح له إمكانية الحل في نسقية القانون الدولي للوصول إلى مستوى يضمن الاستقرار والسلام والتنمية؟

وهل تحتاج القضية إلى تحويل مسار النزاع في إطار ما يسمى بالشرعية الدولية، ولا سيما مقررات منظمة الأمم المتحدة، من مبدأ تقرير الشعوب لمصيرها إلى المسار الطبيعي الذي قامت عليه ابتداء وهو استكمال الدول لتحريرها؟ وما هو دور المعطيات القابلة للتطبيق والواقعية التي تراعي قيم مستقرة في بناء مسار جديد قابل للتطبيق ومستوف لشروط النجاح؟

أولا: الصحراء المغربية وأدلة التحرر وآثاره على مفهوم الشرعية في القانون الدولي

جاء في أحد الأحكام الدولية أنه "كل ما يمكن أن يطلب من دولة ما هو عدم تجاوز الاختصاصات التي يرسمها لها القانون الدولي"¹، فقد أصبحت الدولة في مرحلة ما بعد الحرب

1 - CPJI, 1927, affaire du Lotus, série A, n 10, p 19.

العالمية الثانية قاعدة لبناء معايير قارة للقانون الدولي نفسه وإطارا لتطبيقه، وأصبحت الحاجة ملحة لبناء كيانات واضحة الحدود لتسهيل تطبيق القواعد التي سبق أن وضعتها الأمم "المتمدنة" في نسق قانون بدأ مع معاهدة وستفاليا قرونا قبل ذلك.

لكن المشكل أن ذلك تزامن مع بناء نظري ومسار تنازعي على المستوى الإيديولوجي، وإن تم تسجيل احتكار الإنسانية لمنطق واحد في علاقتها بالقانون الدولي إلا أنها اختلفت في فلسفة تنزيله، أي أنه رغم بقاء الدولة المحور الرئيس لبناء تطوري للقانون ومفهوم الشرعية على المستوى التصوري قائما على الدولة إلا أنه تنازع في ولاء الدولة نفسها، وأصبح يلتبس كل فريق من فريقين التقابل الإيديولوجي المعطيات الواقعية لتكييفها على المستوى القانوني لأدوار الدول في عالم الصراع بين الشرق والغربي، أي بين المعسكر الليبرالي والمعسكر الشيوعي.

أ- مركزية القيم الاستعمارية في بناء الحل القانوني لقضية الصحراء

لقد ابتلي العالم بمشكلتين كبيرتين أثرتا على مسار بناء السلم الدولي؛ الأولى هي الاستعمار والتنافس على المستعمرات، والثانية هي الإيديولوجيا التي توازي القوة وتبعاتها، أي التنافس الإيديولوجي، فإن كانت الأولى تعبيرا عن الانشطار في المزايا المادية فإن الثانية تعبير عن انشطار فكري حاد رهن المصالح المادية لعقود خاصة من أواسط إلى نهاية القرن العشرين.

ومنطقة الصحراء هي مجال كان رهنا للمعيارين معا؛ من جهة لعب الاستعمار دوره التقليدي في فصلها تاريخيا عن أي امتداد، وعمليا أججت الصراعات الإيديولوجية بين المعسكرين الشرقي والغربي استمراره وأعطته فرصة ليأخذ مسارا قانونيا يقوم على مبدأ ثابت هو تقرير الشعوب لمصيرها.

استعمرت إسبانيا المنطقة بالتدريج ابتداء من سنة 1881م إلى سنة 1887م، وجاء استعمارها للمنطقة بداية كرد فعل فرنسي ضد مساندة المغرب للثورة الجزائرية وقائدها آنذاك الأمير عبد القادر، وقد انغمست كل من فرنسا وإسبانيا في المغرب وتقاسمتا مناطقه بطريقة توافقية، حيث لم يحدث أي تصادم بين القوتين منذ بداية احتلال مناطقه وهو ما يدل على أن المنطق كان هو تقسيم المغرب بين القوتين. ومن سنة 1881م، أو تاريخ بناء أول رصيف بحري في الداخلة إلى بسط النفوذ

على طول الساحل الصحراوي سنة 1887م لم يكن هناك أي نوع من التصادم بين القوتين ومجالها المتوافق عليه جغرافيا².

إن هذا التوافق بين الرؤيتين الاستعمارييتين الفرنسية والإسبانية كان قائما على تقسيم المغرب وعلى تشتيت قوته ليسهل التحكم فيه، وهو أمر بين باعتبار أن المنطق الاستعماري منطق تقزيمي وإضعاف منطلقات استرجاع القوة عنصر أساسي في بناء الهيمنة. لكن بعيدا عن منطق الاستعمار الأوربي زمنيا وارتباطا به موضوعيا يمكن إثارة مسؤولية الاستعمار عن استعادة زمام المبادرة بعد انسحابه من المنطقة في النقط التالية:

أولا: إن الجغرافية التي ورثها المشكل من الناحية القانونية باعتبارها مجالا للنزاع لا تتناسب مع المعطيات السوسولوجية والواقعية، فمفهوم الإقليم المتنازع حوله يقوم في مجال مضبوط بالمجال الذي تركته إسبانيا كفضاء كانت تمارس عليه إدارتها الاستعمارية؛ وهما إقليما وادي الذهب والساقية الحمراء، في حين أن المجال السوسولوجي للصحراء هو أوسع من ذلك، حيث يشمل بعدا قبليا وليس بعدا جغرافيا، ثم هو لم يكن قارا في كل مكوناته القبلية.

لذلك، نتساءل كيف يمكن أن يكون المنطق المجالي الاستعماري أساسا لكيان، كيفما كان، بناء على محددات غير متناسبة من الناحية السوسولوجية؟ فبمنطق القانون الدولي يمكن التساؤل حول قاعدة البناء القانوني الجامد الذي يحدد المشكلة باعتبار أن هناك "شعبا" يريد تقرير مصيره، لكن بتدقيق الملاحظة نجد القانون الدولي يجعل من معيار الجغرافيا الاستعمارية مجالا لتحديد وتنطبق هذا "الشعب"، الذي لا محالة يوجد جزء منه في مجالات تابعة لفضاءات سلطوية أخرى وهي المغرب والجزائر وموريتانيا، بل وتمتد حتى مالي والنيجر. ولا بد للجواب عن التساؤل أن يتم بإقحام أبعاد

2 - يرى البعض أن هناك حقيقتين حركتا مسألة الاستعمار ضد المغرب في فترة القرن التاسع عشر، أولى الحقيقتين تتعلق بموقع المغرب، والثانية تتعلق بصفته السياسية والحضارية، فمن حيث الموقع المغربي الأدنى إلى أوروبا من أي موقع عربي إسلامي آخر. نجد أن هذا الموقع قد جعل من هذه البلاد، الأرض الأكثر تعرضا من الناحية المنطقية، لآثار المد الأوربي البالغ آنذ أوج عنفوانه وسعة نطاقه، وموجب المنطقية في هذا، هو أن المغرب مجاور بالأخص لمنطقة غربي أوروبا، وقد كان الغرب الأوربي، في غضون القرن التاسع عشر، محور كل اندفاعية للتوسع الأوربي عبر البحر الأبيض المتوسط والمحيطين الأطلسي والهندي، ومصدر طاقة هذا التوسع، ورافده سياسيا وحضاريا. والحقيقة الثانية أن المغرب الذي كان عليه في غضون القرن التاسع عشر، أن يواجه التحديات الحضارية الواردة عليه من شمال المتوسط، وأن يهضمها ويتمثلها على نحو أو غيره، كان هو - أي المغرب، أمينا في نفس الوقت - على تراث حضاري أثيل، تقلد مسؤوليته لدى قرون وقرون، وحمل بمقتضاه رسالة تاريخية، أسهم بها في عملية التكييف الحضاري طويل الأمد بحوض البحر الأبيض المتوسط.

راجع: نظرة على الأحوال المغربية في القرن التاسع عشر، مجلة دعوة الحق، عدد 118.

متوفر أيضا عبر شبكة الأنترنت.

غير قانونية في التحديد الجغرافي، لأن الأمر لا يرتبط برؤية قانونية صرفة بل بنزاع بأهداف سياسية واستراتيجية إقليمية ودولية.

- تقوم رؤية الحل حسب زعم أحادي النزعة القانونية على احترام مبدأ من مبادئ القانون الدولي والعلاقات الدولية وهو مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، وهذا الأمر الذي قرره الأمم المتحدة في ميثاقها قائم في حالة الصحراء، كما هو حال باقي المناطق في العالم، على تعداد لمجالات جغرافية محددة³.

وقد أقحمت إقليم "الصحراء الغربية" ضمن مناطق غير المتمتعة بالحكم الذاتي منذ سنة 1963م⁴، واعتبرت أن القائم على المسؤولية الدولية هو المحتل الإسباني في الوقت الذي كان يطالب فيه المغرب بالصحراء، طبعاً إلى جانب عدم اعترافه بالحكومة القائمة في موريتانيا اعتباراً لكون المطالب المغربية كانت تشمل هذه الأقاليم.

3 - إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة، اعتمد بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 1514 من 14 كانون الأول/ ديسمبر 1960م.

والذي جاء فيه: "إن الجمعية العامة؛ ... تعلن رسمياً ضرورة وضع حد بسرعة وبدون قيد أو شرط للاستعمار بجميع صوره ومظاهره؛ ولهذا الغرض، تعلن ما يلي:

أ- إن إخضاع الشعوب لاستعباد الأجنبي وسيطرته واستغلاله يشكل إنكاراً لحقوق الإنسان الأساسية، ويناقض ميثاق الأمم المتحدة، ويعيق قضية السلم والتعاون العالميين.

ب- لجميع الشعوب الحق في تقرير مصيرها؛ ولها بمقتضى هذا الحق أن تحدد بحرية مركزها السياسي وتسعى بحرية إلى تحقيق إنائها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

ج- ينبغي ألا يتخذ أبداً نقص الاستعداد في الميدان السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو التعليمي ذريعة لتأخير الاستقلال.

د- يوضع حد لجميع أنواع الأعمال المسلحة والتدابير القمعية، الموجهة ضد الشعوب غير المستقلة، لتمكينها من الممارسة الحرة السلمية لحقها في الاستقلال التام، وتحترم سلامة إقليمها القومي.

هـ- يصار إلى اتخاذ التدابير الفورية اللازمة في الأقاليم المشمولة بالوصاية أو الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي، أو جميع الأقاليم الأخرى التي لم تنل بعد استقلالها، لنقل جميع السلطات إلى شعوب تلك الأقاليم، دون قيد أو شرط، ووفقاً لإرادتها ورغبتها المعرب عنها بحرية، دون تمييز بسبب العرق أو المعتقد أو اللون، لتمكينها من التمتع بالاستقلال والحرية التامين.

و- كل محاولة تستهدف التقيؤ الجزئي أو الكلي للوحدة القومية والسلامة الإقليمية لأي بلد، تكون متنافية ومقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.

ز- تلتزم جميع الدول بأمانة ودقة أحكام ميثاق الأمم المتحدة، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وهذا الإعلان على أساس المساواة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية لجميع الدول، واحترام حقوق السيادة والسلامة الإقليمية لجميع الشعوب.

4 - هذه الأقاليم هي "أنغولا" و"برمودا" و"جزر فرجين" و"جزر كايمان" و"جزر فوكلاند" و"مونتسيرات" و"سانت هيلانة" و"جزر تركس وكايكوس" و"جبل طارق" و"بيتكيرن" (المملكة المتحدة)، و"جزر فرجين" و"ساموا" و"غوام" (الولايات المتحدة الأمريكية). و"كاليدونيا الجديدة" (فرنسا). و"توكيلاو" (نيوزيلندا).

وكان من الطبيعي أن تسعى الأمم المتحدة إلى وضع مخطط من خلاله يمكن تجسيد مفهوم تقرير المصير بناء على الأسس السابقة والذي لم يكن سوى مخطط للاستفتاء حول رأي سكان الإقليم في طبيعة المنتظم السياسي الذي يروونه ملائما. وحرى بالتذكير أنه في هذا المستوى هناك مفارقة تقوم على بعدين زمنيين متناقضين بقي فيهما الاستفتاء بنفس الحمولة، ولعب في ذلك الاستعمار الإسباني دورا حاسما:

- مرحلة استعمال الاستفتاء كآلية لبقاء الاستعمار بالمنطقة، باعتبار أن إقحام منطقة الصحراء في المناطق غير المتمتعة بالحكم الذاتي كان قطعاً للطريق على المغرب الذي كان يسعى لاستعادة أراضيها، حيث يمكن القول إن المغرب عوقب لعدم سعيه لاستقلال تام وشامل ومتناغم يشمل كافة أراضيها، ودفع ثمن قبوله بالاستقلال على مراحل، حيث تم ضبط الشعوب غير المتمتعة بالحكم الذاتي طبقاً للمناطق التي بقيت تحت الاحتلال الأوربي بالخصوص والتي لم تدخل في مناطق مشمولة بالوصاية، واستبق إعلان منح الاستقلال للشعوب السابق مسألة مطالب الدول حديثة الاستقلال، وقامت الجزائر بدفع منظمة الوحدة الإفريقية إلى وضع مبدأ إقليمي جديد إفريقيا بعد حربها مع المغرب سنة 1963م، وتبنت المنظمة المبدأ سنة 1964م، وهو نفس الأمر الذي تم في القارة الآسيوية والذي هو مبدأ جديد لتدبير مرحلة ما بعد الاستقلال، حيث خلق مبدأ قدسية الحدود الموروثة عن الاستعمار⁵ (Uti Possiditis).

لقد سعت إسبانيا إلى وضع قواعد موالية لبقائها أولاً بالصحراء عبر إيجاد آلية قانونية لتأكيد تبعية الصحراء لها عبر "تقرير المصير"، ثم سرعان ما وضعت العراقيل أمام المسار واعتبرت قاعدة لحل النزاع فيها بعد فشل مخططها القائم على السعي للحفاظ على الإقليم إسبانيا⁶.

+ مرحلة استعمال تقرير المصير كآلية ضد المغرب، وقد بدأت بإحاطة إسبانيا الأمين العام للأمم المتحدة في 26 فبراير 1976م أنه اعتباراً من ذلك التاريخ تنهي وجودها في إقليم الصحراء المغربية، وأنها ترى من الضروري أن يكون مدونا أن إسبانيا تعتبر نفسها من ذلك الحين معفاة من أي مسؤولية ذات طابع دولي في ما يتصل بإدارة الإقليم، في ضوء توقف مشاركتها في الإدارة المؤقتة المقررة للإقليم.

5 - مبدأ يقضي بأن تبقى الأراضي لمالكها بعد انتهاء الصراع الذي غالباً ما يكون حرباً.

6 - قامت إسبانيا بإحصاء سكان الصحراء سنة 1974م استعداداً لمشاركتهم في الاستفتاء الذي كانت تروجو أن يكون ملائماً لمساها بالبقاء بطريقة شرعية بالإقليم وحصار المغرب استراتيجياً من الشمال والجنوب، وكذا الاستفادة من الثروات التي تزخر بها المنطقة.

ومع هذه المرحلة بدأ الدور الجزائري في أخذ راية معاكسة الحق المشروع للمغرب في استعادة أراضيهِ المحتلة من طرف إسبانيا، واتخذ مسارين؛ مسار عسكري دعمت من خلاله الجزائر جبهة البوليساريو عسكرياً للهجوم على كافة المناطق قصد السيطرة الميدانية عليها، ومسار سياسي دبلوماسي دعائي قائم على بعدين أيضاً؛ من جهة إعلان قيام ما يسمى "الجمهورية الصحراوية" وحشد الدعم لها قارياً ودولياً، ومن جهة أخرى العمل على استمرار مبدأ تقرير المصير داخل الأمم المتحدة كآلية وحيدة قانونية وشرعية ومبدئية لحل النزاع. وبذلك أخذت الجزائر لواء الاستعمار الإسباني في المنطقة بدواع قائمة على دعم الشعوب لتقرير مصيرها.

ثانياً: حلول القانون الدولي لقضية الصحراء: أي نجاعة؟

لقد أقر القانون الدولي نمطاً جامداً لبناء الدولة وتجاوز الوسائل التقليدية للترابط، فقد أصبح القانون الدولي يوجه مسارات وجود الدولة في اتجاهين اثنين جامدين ومتناقضين، فحسبه لا يمكن تشكيل دولة جديدة إلا بطريقتين؛ بالانفصال عن إقليم مستعمر من طرف دولة "مطرائية" أوربية المجال في إطار تصفية الاستعمار، أو بانسطار دولة موجودة مسبقاً أي بالانفصال أو الإحلال أو الإنشاء⁷.

إن هذه الثنائية المسطرية لوجود الدول التي تم التخفيف من حدتها بمبدأ أقل جاذبية، وهو مبدأ سيادة الدول والحفاظ على وحدتها، جعل الفوضى تدب إلى الاستعمال المبدئي المفرط في خضم الدعاية القائمة على تنازع قوي للإيديولوجيا التي تمجد القيم الاشتراكية التي قامت عليها أولاً جبهة البوليساريو، التي كانت مدعومة من القوى الاشتراكية متمثلة في الجزائر وليبيا وكوبا ويوغسلافيا بالأساس، وذلك في مقابل الدولة المغربية "الاستعمارية التي تمجد قيم التقليدية والتخلف"، حسب ما كانت تتبناه الجبهة وهو أساس التعاطف الدعائي.

وما زالت قضية الوحدة الترابية للمغرب مغلفة بغشاء دعائي سميك يستهدف المجتمع العالمي من أحزاب واتجاهات إنسانية قائم على تصوير الصراع باعتبار وجود "شعب" منفي ولاجئ في صحراء تندوف يرغب في إقامة دولته قصد تقرير مصيره. وإن كان ذلك جزءاً من الوهم الذي يحيط بقضية الوحدة الترابية للمغرب فإن غير المقبول هو أن تنساق مقررات القانون الدولي الخاصة بحل النزاع لتحقيق نزعة مثالية بدل تحقيق حل ناجع يخرج ساكنة مخيمات تندوف من التبعية والاستغلال.

7 - Ngyuen Quoc Dinh, Droit International Public, LGDJ, 8e édition, Paris, 2009, p575.

أ- مسار الحل القانوني ومتاهات الجمود

حاول المغرب الاستفادة من جوانب قابلة للتأويل السليم في بنية المنظومة القانونية الدولية لما بعد الحرب العالمية الثانية في نسقية البناء الذي أوجدته الأمم المتحدة، حيث بدا أن المغرب مقتنع بداية بعدالة اللجوء إلى المقررات القانونية التي تتيحها محكمة العدل الدولية وإمكانية تحقيق خرق في مجال المشروعية بدل التركيز على الأسس الشرعية الجامدة.

وقد كانت أولى محاولاته بطلب رأي استشاري لمحكمة العدل الدولية حول العلاقة بين الإقليم الموضوع في إطار الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي في إطار القانون الدولي وعناصر ممارسة السيادة خلال المراحل السابقة على الاستعمار الإسباني بالخصوص. وقد تضمن الرأي جوانب عبرت عن إلمام بالحقائق التاريخية وأخرى لم تصل إلى مستوى الإقرار بالعلاقة السيادية، وحرى بالتذكير أن الرأي الاستشاري لمحكمة العدل تضمن المفارقات التالية على الأقل:

- أن الطلب المغربي لم يكن يستهدف تحديد عناصر لسيادة بالمعنى الذي تتأسس بنشأة الرغبة في تصفية الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية أي باعتبار وجود ركائز تامة البناء القانوني بالقياس مع مقررات القانون الدولي المعاصر، بل فقط "قيم السيادة" أي الجوانب التي أقرتها المحكمة نفسها من بعد ديني وروحي وبعد سلطوي باعتبارهما أساسا لممارسة السلطة قبل ذبوع قيم الدولة الوطنية التي خلفها الاستعمار الأوروبي. وأن استعمال معايير السيادة هو استعمال لمعيار لاحق على واقع سابق؛ ذلك أن الروابط السيادية لا تتأسس بالتحكم في الأشخاص باعتبارهم رعايا أو مواطنين بالمفهوم الحالي بل باعتبار وجود معيار روحي قائم على التبعية الدينية لأن الدولة في الإسلام تأسست لحماية الشريعة وتثبيت شوكتها⁸.

- بناء المحكمة الفترة الزمنية التي تحدد ضوابط اتخاذها الرأي الاستشاري على مرحلة ما قبل الاستعمار الإسباني، وهي مرحلة لا شك كانت مترامنة مع الوهن السياسي للدولة المركزية، فلا

8 - جاء في الرأي الاستشاري لمحكمة العدل الدولية: "... ومن ناحية أخرى فإن المحكمة خلصت إلى أن المواد والمعلومات المقدمة إليها لا تقيم الدليل على وجود أي رابطة من روابط السيادة الإقليمية بين إقليم الصحراء الغربية والمملكة المغربية والكيان الموريتاني. وهكذا لم تجد المحكمة أي روابط قانونية كذلك الروابط ذات الطابع الذي يمكن أن يؤثر على تطبيق قرار الجمعية العامة 15-14 (د-15) في إنهاء استعمار الصحراء الغربية، ولا سيما تطبيق مبدأ تقرير المصير من خلال التعبير الحر والحقيقي عن إرادة سكان الإقليم".

راجع: موجز الأحكام والفتاوى والأوامر الصادرة عن محكمة العدل الدولية: 1948م-1991م، منشورات الأمم المتحدة، رقم المبيع A.92.V.5، ص 132.

يمكن أن يتم احتلال شواطئ دولة معينة والتحكم بمواردها دون أن تكون عوامل الوهن المرتبطة بمجال السيادة في مستوى متدن يوحى بعدم الترابط⁹.

وبذلك أخذت المحكمة "بالتعاقد" الذي تم بين بعض شيوخ القبائل الصحراوية والاستعمار الإسباني للتدليل على كونها أرضا ليست خلاء، وهو معيار لا يرقى إلى مفهوم الترابط إلا بتحديد زمني ضيق أخرجه من الترابط على أساس ممارسة السيادة باعتبار معيار الاحتلال، وأخرجه أيضا من مجال السيادة المغربية، وعومه في محور آخر هو الترابط السيادي مع موريتانيا، وهو أمر لا يستقيم باعتبار أن الاستعمار ومعايره لا يمكن أن تكون أساسا لتحديد نوع الترابط القانوني الذي يمكن أن يكون سائدا بين المغرب والمنطقة.

- أنتجت المحكمة قاعدة لم يطلب منها الفتوى من خلالها أصبحت منطلقا للمطالبة من طرف الانفصاليين، باعتبار أنها "أوصت" بتطبيق إعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة، الذي اعتمد بموجب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 1514، أي السعي لإيجاد الأراضية المناسبة لتطبيق فكرة استفتاء رأي سكان الإقليم حول تقرير مصيرهم¹⁰.

التساؤل حول هذه النزعة المثالية في قراءة الوقائع والفتوى، حيث إن المحكمة نصبت نفسها في موقع القاضي وليس في مستوى إبداء الرأي، حيث إنها إذا كانت قد أجابت عن تساؤلات قانونية بمنطلقات قائمة على مفهوم الأمر الواقع الناتج عن الاستعمار، فإنها أفتت باعتماد رأي قائم على توجيه المجتمع الدولي في اعتماد آلية وحيدة دون سواها للتعبير عما أقحمته في مجال تصفية الاستعمار الإسباني من جهة، وتطبيق مبدأ أممي من جهة أخرى وهو مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

لقد أثر الرأي الاستشاري في بنية الحل الذي يمكن أن يكون حالا عاجلا ومنطقيا بتحديد آلية الاستفتاء لتقرير المصير، وهو ما كان له عواقب وخيمة على مسار القضية من الناحية العملية.

9 - جاء في ملخص القرار أيضا: "لغرض الفتوى يمكن أن يعتبر "وقت الاستعمار الإسباني" بأنه الفترة المبتدئة من سنة 1884م عندما أعلنت إسبانيا حمايتها لوادى الذهب. ولذا فإن المفهوم القانوني للأرض التي لا مالك لها يجب أن يكون تفسيره بالرجوع إلى القانون الساري في تلك الفترة".

منشورات الأمم المتحدة، المرجع السابق، ص 133.

10 - "لم تجد المحكمة أي روابط قانونية كتلك الروابط ذات الطابع الذي يمكن أن يؤثر على تطبيق قرار الجمعية العامة 1514 (د-15) في إنهاء استعمار الصحراء الغربية، ولا سيما تطبيق مبدأ تقرير المصير من خلال التعبير الحر والحقيقي عن إرادة سكان الإقليم".

المرجع نفسه، 132.

ب- الاستفتاء: بين المبدئية والواقعية

قبل المغرب بداية بألية الاستفتاء في إطار منظمة الوحدة الإفريقية، واعتبر أن المنظمة كفيلة بإيجاد الصيغ العملية لإقراره عمليا، وقد وضع المغرب هذا المسار اعتبارا لإيمانه بأن المنظمة يجب أن تبقى متشبثة بالقيم النبيلة التي أنشئت من أجلها وعلى رأسها الحفاظ على الوحدة الترابية للدول الإفريقية والابتعاد عن بلقنتها في صراع الشرق غرب الذي كان يعصف بالعالم آنذاك¹¹.

في خضم هذا المسعى قبل المغرب الدخول في المسار التطبيقي المرتبط بإيجاد أرضية ملائمة للتنفيذ، وهو ما دفع المنظمة لإنشاء "لجنة للتفعيل تملك كل السلطات، وتتكون من البلدان التالية: غينيا وكنيا ومالي ونيجيريا وسيراليون والسودان وتنزانيا، من أجل ضمان تفعيل توصية اللجنة المختصة، بمشاركة الأطراف"، وكذا "دعوة أطراف النزاع إلى وقف إطلاق النار بسرعة، وتكليف لجنة التفعيل بمراقبة وقف إطلاق النار بدون أجل مسمى"، قصد إجراء استفتاء في المنطقة¹².

والتساؤل هو حول أسباب عدم إجراء الاستفتاء في تلك المرحلة، ومن الذي يتحمل مسؤولية ذلك؟

لقد قام البوليساريو بمجموعة من المحاولات من أجل إثبات وجهة نظرها وتوجيه الدول نحو إقرار واقع وليس إجراء استفتاء، ومن العوامل التي ترجح مسؤولية البوليساريو عن فشل استفتاء منظمة الوحدة الإفريقية ما يلي:

- أن البوليساريو أعلنت قيام "الدولة" قبل أي استفتاء، وبالتالي لا يمكن أن يكون الاستفتاء آلية لإقرار السلم مادام أنها حركة مسلحة لن تقبل بأي نتيجة يأتي بها الاستفتاء؛

- أنها كانت تسعى إلى الانضمام إلى منظمة الوحدة الإفريقية كـ "دولة" تامة السيادة، وهو ما تحقق بضغط جزائري قوي، وهو ما أفشل أي مسار للاستفتاء، ودفع المغرب للخروج من المنظمة وبالتالي تفويض مساره؛

11 - "لأننا نريد بكل قوة إرادتنا إنقاذ أمتنا الإفريقية من كل ما يمكن أن يهددها بالتفرقة والانقسام، ولأننا نريد الاحتفاظ لمنظمة الوحدة الإفريقية، أمام أعين العالم، بصورتها هيئة منسجمة وواعية ومسؤولة، فإننا قررنا تنظيم استفتاء مراقب تشكل مقتضياته حقا لأهداف التوصيات الأخيرة للجنة المختصة (لجنة الحكماء)، وإيمان المغرب بحقوقه الشرعية".

من رسالة الملك الراحل الحسن الثاني للقمعة الإفريقية المنعقدة في نيروبي سنة 1981م.

12 - وذلك بعد تبني القرار AHG/RES.103 (XVIII).

- أنها أعلنت أنها، باعتبارها "دولة ذات سيادة"، فهي لن تقبل بالاستفتاء باعتباره آلية متجاوزة وأن النزاع هو بين قوتين متحاربتين تشكلان دولتين قائمتين¹³.

في مرحلة لاحقة، وبعد إعلان وقف إطلاق النار والدخول في مسار جديد لتحديد شروط وآليات تطبيق الاستفتاء في الصحراء سنة 1991م، تبين مرة أخرى أن البوليساريو ليس لها رغبة في أن تقيم هذا الاستفتاء نظرا لعدة اعتبارات:

- أنها مع ترقب الاستفتاء تخلت عما يسمى بصحراوي الشمال، الذين لا يدخلون مجاليا في الصحراء حسب التصور القانوني، والذين يمكن أن يكون ولاؤهم مشكوكا فيه بالنسبة للبوليساريو، واعتمدت ما يمكن تسميته بالأصوات المضمونة لربح الاستفتاء، وهو أمر أدخلها في حسابات ضيقة عقدت من عملية الإحصاء.

- أن الشرعية التي اكتسبتها بالحرب، حسب التصور الثوري لهذه المجموعة، سيتم فقده إن هي خطت الحل بالأساليب السلمية التفاوضية، خاصة أن هناك اتجاهات متطرفة بالجهة، لا يرتقب إيقاف التهجم على المغرب في كل حالات الحل التي يمكن أن يقررها الاستفتاء، لارتباطه بأجندة الجزائر الإقليمية.

- أن مجموعة من القياديين، بمن فيهم رئيس الجهة، لم يجدوا معيارا مناسباً للدخول في لائحة الاستفتاء، ومنهم من لا تنطبق عليه المعايير، ومنهم من لا يجد مجالا إلا باللجوء إلى آخر المحددات التي تنزع منه "النقاوة" القبلية التي هي معيار السلطة في الصحراء¹⁴.

من الواضح أن المسار الذي عرفه المخطط القائم على آلية تقرير المصير من خلال الاستفتاء هو مسار مغلوط وملغم وغير واقعي وغير قابل للتطبيق، وأن كل من يسعى لتطبيقه إنما يسعى لوضع برنامج يولد ميتا، وهو الأمر الذي تم تضمينه في أحد تقارير الأمين العام للأمم المتحدة، حيث

13 - يقول محمد عبد العزيز، رئيس ما يسمى "الجمهورية الصحراوية" المعلنه في 26 فبراير 1976م، ورئيس جبهة البوليساريو: "قد استمعنا إلى مقترح المغرب الموجه إلى اللجنة المختصة، وموقفنا هو أن فكرة الاستفتاء متجاوزة، ندعو منظمة الاتحاد الإفريقي إلى معاناة الأمر على أرض الواقع".

حوار مع وكالة الأنباء الجزائرية، في 23 فبراير.

14 - بعد أخذ ورد حول مسألة التحقق والاطمئنان، والتي توقفت سنة 1996م ولم يتم استئنافها إلا في سنة 1998م بعد تقديم الأمين العام لبروتوكول حول عملية الطعون. وللإشارة فقد تضمنت القائمة الأولية (قائمة التحقق الخاص بسنتي 1994م و1995م وفترة دجنبر 1997م إلى شتنبر 1998م) حوالي 84000 شخص تنطبق عليهم المعايير، بعدما تم تسجيل طلبات أكثر من 142000 شخص في نفس الفترة الزمنية السابقة، وقد تم تسجيل أكثر من 79000 طعن في الأشخاص المعبرين المؤهلين للتصويت.

دخلت القضية مسار إيجاد حل سياسي متوافق عليه وقابل للتنفيذ، وهو ما يناقض الخطة التي تبتغيها البوليساريو القائمة على ما يمكن تسميته المبدئية الجامدة في مفهوم تقرير المصير كما صاغته قيم العلاقات الدولية لمرحلة الحرب الباردة، وهو الأمر الذي لم يعد قابلاً للتطبيق.

وفي مقابل هذا المطب سعت البوليساريو إلى تعويم المسألة الدولية في قضيتين مبدئيتين أخريين هما مسألة مراقبة حقوق الإنسان، ومسألة استغلال الثروات، مما سيعطي لبعثة الأمم المتحدة مجالا للتحكم في سيادة المغرب من جهة ويمكن من استمرار قيم القانون الدولي بالمفاهيم السابقة لتسوية النزاع دون ابتكار ولا تجديد ولا نجاعة.

الملوك العلويون وقبائل الصحراء مواءمة دينية وسياسية لواقع الصحراء الإفريقية

تمثيل الصحراويين في المؤسسات الوطنية من العرف القبلي إلى الانتخاب الديمقراطي

ذ. عبد الفتاح الفانحي
باحث، الرباط

سنحاول في هذا المقال رصد تطور مفهوم البيعة ودورها في حشد مقومات البناء المجتمعي واستقراره في الفضاء الإفريقي، وتدبير نسقية التفاعل المجتمعية في نسق تطوري من البعد الديني فالتجاري ثم السياسي.

وإذ نتبع تطور مفهوم البيعة كمبدأ ديني والتزام سياسي، فإنها لحمة دعمت مواءمة قوية جدا فيما بين الارتباط الديني والسياسي، وحافظت على خطي التوازي بينهما فضمنت إفريقيا اهتمام الملوك المغاربة رغم اهتمامهم في عهد المرابطين بالأندلس، ورغم أنه فضاء جد مغر، إلا أن المغاربة لم يفرطوا في عمقهم الإفريقي.

وفي سياق تدبير التطور المجتمعي بنيويا، كانت البيعة عامل استقرار والتفكير في العمران والبناء الحضاري، ولم يكن ذلك ممكنا دون الدور الذي اضطلعت به الزوايا الصوفية التي لقيت حضنا فعالا في شيوخ القبائل الصحراوية، ولذلك ظهرت معالم نهضة حضارية علمية وحضارية تجسدت في العديد من العواصم الإفريقية. ومنها مدينة تمبوكتو في مالي، التي تعتبر في التاريخ الوسيط من أهم العواصم الإسلامية في غرب إفريقيا، وتلقب «بجوهرة الصحراء المتربعة على الرمال»، وهي البوابة بين شمال إفريقيا وغرب إفريقيا، وهي ملتقى القوافل البرية للقادمين من النيجر وليبيا، وكذلك تجار الملح القادمين من تودني، وقد أنجبت العديد من الفقهاء والعلماء، وازدهرت فيها الحركة الثقافية¹.

1 - السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، حققه وترجمه للفرنسية، هوداس وبنون، طبعة باريس 1981م، ص: 320.

وفي قراءة لهذه السيرورة التاريخية، مدا وجزرا، كانت القبائل الصحراوية تستوعب جدلية التعاون مع ملوك المغرب في أمور الدين والدنيا، وهكذا استقدمت النظم السياسية وطرق التدبير ومقاربة التحديات سيما أن إفريقيا ظلت هدفا للأطماع الأجنبية الإسبانية والبرتغالية، ولذلك اعتمد الجهاد في معناه الديني ضد المستعمر، وهو مفهوم لا يتم إلا بمبايعة إمام في الدين والسياسة.

1- البيعة لإمارة المؤمنين في العمق الإفريقي

إن استمرار الارتباط الديني من خلال البيعة للملوك المغرب يتجاوز الربط الروحي إلى ربط سياسي «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تومنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا»² أي أن المسؤولين الموكلون لهم رعاية شؤون الرعية، بل إن المسؤولية السياسية تستمد قوتها من مفهوم الحاكمية في روح القانون الإسلامي.

وفق هذا النسق الديني ساير ملوك المغرب انتشار الإسلام في إفريقيا إشرافا وتوجيها، بل وجدت لذلك جهات أسست لنقل مؤسساته وتوطين الإسلام في الصحراء الإفريقية. وكان من الطبيعي أن يتوافق الإنجاز الديني والدعم السياسي والمادي للملوك المغرب، وهكذا وجدت مواءمة قوية جسدها مبدأ البيعة التي تجمع المقوم الديني والسياسي.

ولقد كان التوفيق حليف ربط البيعة بانتشار الإسلام ودعم الأنساق المجتمعية في إفريقيا. ولذلك عد مبدأ البيعة وسيلة لضمان المسار المتوازن بين نشر الإسلام وضمان التأيد للسلطين المغاربة. وزاد من قوة هذا المبدأ أنه مسنود بمرجعية دينية "من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"³.

ولأن البيعة مؤصلة في الحديث النبوي فإنها أصبحت من المبادئ الأساسية لنشر الإسلام في صفوف الأفارقة ومنذ ذلك الحين باتت عقدا سياسيا يستدعي حضورا سياسيا للملوك المغرب في تدبير شؤون المناطق في الصحراء الإفريقية.

2 - سورة النساء، الآية 58.

3 - رواه مسلم في صحيحه.

ولا تنكر كتب التاريخ قيام ملوك المغرب لتثبيت الأمن أو لفض نزاعات القبائل، ومن ذلك قيام المولى رشيد بمراقبة الظروف الأمنية، حتى إنه أنزل المولى عبد الله مرتين إلى "دياني" قرب "تمبكتو"، كما أرسل أحمد ابن أخيه على رأس فرقة عسكرية لفض بعض النزاعات بين القبائل. وقام السلطان سيدي محمد بن عبد الله بتثبيت حفيد علي شندورة، المختار بن عمر بن علي؛ على إمارة الطرارزة⁴.

وقد دأب الأفارقة على الارتباط بملوك المغرب بنظام البيعة، حيث يقر فيها السكان رسميا الاعتراف بالحاكم الشرعي ودفع الضرائب له. ولتجسيد قوة الدولة كانت حملة السلطان السعدي أحمد المنصور على غاو وتمبكتو. وكانت موجهة ببعد ديني وتجاري وأمني في منطقة الصحراء، ذلك أن أحمد المنصور باعتباره أميرا للمؤمنين وحريصا على تدعيم الروابط الدينية والتجارية مع الفضاء الأفريقي، وللحيلولة دون أي تهديد خارجي، سارع في سنة 1585م إلى دعم واستقرار الصحراء وتعزيز الوجود المغربي في المنطقة الساحلية ما بين درعة ونهر السينغال. وبذلك "حال المنصور دون أي تدخل للإسبان في بلاد السودان بالرغم من احتلالهم لجزيرة "أركان" القريبة من الرأس الأبيض ومصب نهر السينغال: "... العساكر والأجناد التي جعلناها لنكاية عدو الدين بالمرصاد واعتدناها للذب عن كلمة الإسلام وحيطة البلاد والعباد"⁵.

ومهما تكن دواعي هذا الارتباط المغربي الإفريقي فإن التاريخ القديم والحديث لا يمكنه أن ينكر حتمية الروابط الدينية والجيوستراتيجية للملوك المغرب في إفريقيا في ظل تهديدات استعمارية كانت على الدوام تترصد بإفريقيا. ومن جهة أخرى فإن الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب ينتمون إلى الصحراء، وأن قوة عصبيتهم آنذاك صاحبته من زوايا دينية كانت ممتدة في الصحراء الإفريقية. حتى أن يوسف بن تاشفين "استطاع إنشاء امبراطورية مغربية تمتد بين مملكة بجاية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وما بين البحر المتوسط شمالا حتى السودان جنوبا"⁶.

ومن عمق الصحراء الإفريقية قدم يوسف بن تاشفين إلى المغرب ليؤسس أكبر امبراطورية في تاريخ المنطقة، وهو من قبيلة لتونة التي سكنت المنطقة الممتدة من وادي نون إلى رأس موغادور، إلى

4 - عبد الهادي، التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد الخامس دولة المرابطين، الطبعة الأولى، مطابع فضالة، ص: 7.

5 - السعدي، عبد الرحمن، تاريخ السودان، تحقيق وترجمة للفرنسية: هوداس - بنوة، طبعة باريس 1981م، ص: 135.

6 - أبو خليل، شوقي، الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 219.

مدينة أزكي شرقاً، وكانت المناطق الشمالية مقراً لبني وارتقطين، وفيها ولد ابن تاشفين عام 1009م. عرفت قبيلته بالسيادة وبسطة سيطرتها على صنهاجة، واستطاعت الاحتفاظ بالرئاسة منذ أن جعلها فيها الإمام ابن ياسين⁷. وقد كان الفضل لقبيلة لمتونة في انتشار المذهب المالكي في المغرب وأفريقيا والأندلس، قال ابن حزم الأندلسي: "مذهباً انتشراً في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، الحنفي في المشرق، والمالكي بالأندلس، قام ببناء مدينة مراكش عام 106م"⁸، وجعلها عاصمة مملكته⁹.

إن السيرة التاريخية لا بد أن ينضج منها وعي مغربي بعمقه الاستراتيجي متدرجاً، ولذلك توفق المغرب في المحافظة على رابط البيعة باعتبارها مبدأً دينياً وعقداً سياسياً، ذلك أن الدين كان دوماً ديناً ودولة، ولذلك فإن أمير المؤمنين بعد الإمارة هو كذلك رئيس دولة.

وتأتي مشروعية الحكم المكتسبة من البيعة بناءً على تأمين الكليات الشرعية وهي حفظ الدين وأمن النفوس والنظام العام والملكية والكرامة. فالملك أمير للمؤمنين ورئيس الدولة ويعقد البيعة هو موكول إليه، فضلاً عن حفظ الكليات الشرعية التي نجدها في دساتير النظم السياسية الأخرى، بحفظ الدين.

وعليه، فإن السيرة الطويلة لهذا الارتباط والترابط طور آلية ضمان التفاعلات القائمة بين شمال المغرب وفضاء الساحل والصحراء، ولذلك كان من الطبيعي أن تنشأ مؤسسات تشرف على انسيابية العلاقات البينية، ومن تلك المؤسسات الزوايا الصوفية التي عرفت انتشاراً كبيراً في الفضاء الإفريقي.

والحق أن الزوايا الصوفية فضلاً عن دورها الديني والذي اعتمد وسيلة فعالة لضبط حركة المجتمعات القبلية الإفريقية قد ساعدت في تنظيم بنيات المجتمع حتى يستوعب المعاملات التجارية والسياسية. وفي ذلك مكن المذهب المالكي السني الذي اعتمدته الزوايا الصوفية من دعم استقرار

7 - المراكشي عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ص: 97.

8 - ابن حزم، الأندلسي، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثانية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص: 229.

9 - بوتشيش، إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عهد المرابطين المجتمع الذهني الأولياء، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص: 97.

البنيات الاجتماعية الإفريقية بكبح نزاعاتها القبلية والدعوة إلى العمل في إطار الجماعة وكل ذلك قلص من النزعات الانفصالية.

إن هذا الترابط الجدلي والذي تعمق بازدياد حجم المصالح البينية فيما بين الأفارقة وملوك المغرب، زاد من مسؤولية المغرب الإدارية والأمنية والسياسية مراقبة أمن واستقرار إفريقيا. وهو مضطر إلى ذلك على الأقل لضمان السيرورة الطبيعية للعملية الاقتصادية وحماية طرق القوافل التجارية من السودان إلى سجلهامة.

2- القبائل الصحراوية والتأسيس المجتمعي من خلال العملية الديمقراطية.

إن واقع الحال في تدبير بناء المجتمع في الصحراء تعايش من قبل مع الظروف الجغرافية وطبيعة عيش الساكنة، إلا أن رهان الاستقرار المجتمعي وتدبير حاجيات السكان كانت جوهرها يفترض التعاطي معه بجدية¹⁰. والأكد أن هذا التصور المستقبلي ارتبط بشكل آلي، مع مقومات بناء المغرب الحديث في العصر الراهن وممكن من وقوع تحولات في المجتمع الصحراوي مست جميع بنياته الاجتماعية والاقتصادية وكذا السياسية، تمثلت في الانتقال من نمط عيش البداوة الطاعنة إلى الإقامة في التجمعات السكنية المحدث¹¹.

وهكذا وفي سياق الوفاء بالتزاماته التاريخية في الذود عن سيادته الترابية وتطهير الصحراء من المستعمر الأجنبي التي ظلت هدفا ممتدا، استعاد المغرب صحراءه بالمسيرة الخضراء في نونبر 1975م تم فيها "الالتقاء الأخوي بين رجال المسيرة وأهل الصحراء، هو في نظر الإسلام الاستفتاء الحقيقي، للدلالة على أخوة الشعب الواحد، وعلى رباط المعاهدة، ووحدة الآباء والأجداد، وفوق ذلك كله، وحدة كلمة الأمة الإسلامية في هذه الرقعة من أرض الأمة الإسلامية، وأن أي إجراء يختلف مع ذلك ترفضه الأمة الإسلامية ولا توافق عليه"¹². وهكذا فخلافا للاستعمار الذي لم يكن يولي عنايته للمناطق الصحراوية إلا بغاية استغلال خيراتها، إذ ظل يعتبرها أرضا خلاء، فلم يهتم

10 - بوبريك، رحال، "دراسات صحراوية، المجتمع والسلطة والدين، دار أبي رقراق للطباعة والنشر الرباط، الطبعة الثانية، 2008م، ص 153.

11 - دحمان، محمد، الترحال والاستقرار بمنطقتي الساقية الحمراء ووادي الذهب، مطبعة كوثر، الرباط، 2006م، ص: 156.

12 - دعوة الحق، المسيرة الخضراء أكبر حدث شهده المغرب بعد الاستقلال، العددان 184 و185.

<http://www.habous.gov.ma/daouat-alhaq/item/5018>

بتدقيق حدودها، فبالأحرى بالنظم السياسية، معتبرا إياه فضاء جغرافيا يتحرك الكل فيه وفق مشيئة الظروف الطبيعية للمناطق الصحراوية¹³.

ومنذ ذلك الحين أصبح تقوية الاستقرار المجتمعي في الصحراء هدفا مؤسساتيا، تبلور في النموذج التنموي لسنة 1975م والذي واكب فترة ما بعد المسيرة الخضراء واستهدف دمج الأقاليم الجنوبية بالمغرب عبر تطوير بنياته التحتية والنظم التدييرية، كل ذلك حقق طفرة اقتصادية واجتماعية جعلت النسبة الغالبة من المجتمع الصحراوي تستوطن المناطق الحضرية، ذلك أن هذا النموذج حول البوادي إلى مدن حديثة.

وكان لا بد أن يصاحب هذه التغيرات البنيوية مواعيد بين السلطة المركزية والأقاليم الجنوبية وفقا لما يعرف المجتمع المغربي من تطوير هم كافة بنياء، في هذا السياق تفاعلت الأقاليم الجنوبية مع كل هذه اللحظات التاريخية كشفت مقدرة على التكيف في الاندماج مع حتميات تطور المجتمع كل ذلك سهل الانتقال من مجتمع القبيلة إلى المجتمع المدني. وتبعاً لذلك وعلى التوازي يمكننا التمييز بين نسقين في متطلبات العصر الحديث، ذلك أن التطور المؤسساتي والمدني الذي تعيشه الأقاليم الجنوبية يقابله الخصوم بتدبير سياسي تقليدي محافظ بل وديكتاتوري لا ينسجم وواقع المجتمعات الديموقراطية الحديثة.

فإذا كان الانتخاب ممارسة ديموقراطية للتمثيل الديموقراطي بالأقاليم الجنوبية فإن البوليساريو تعتمد مسطرة التعيين لتمثيل محتجزها داخل مخيمات تندوف. وهي بذلك تستطيع الادعاء أيضا بأنها هي "الممثل الشرعي والوحيد للصحراويين" إن واقع كهذا يكشف اختلالا في المعادلة المشار إليها بكل المقاييس. والحق أن هذه الإشكالية فيها تفصيلات أخرى سنرد عليها.

وجه الخطاب الملكي بمناسبة الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء أجندة الدبلوماسية المغربية لمواجهة دبلوماسية الجزائر والبوليساريو على أساس تمثيلية الصحراويين، حيث جاء في الخطاب الملكي أن الصحراويين قد انتخبوا ممثلين لهم خلال الانتخابات المحلية والجهوية ل 4 شتبر 2015، والتي على أساسها تبدأ عمليا بتنفيذ مشاريع الجهوية المتقدمة.

13 - رسم الاستعمار حدودا لإفريقيا بحسب أجندته السياسية والإدارية آنذاك، وهو ما جعل أهم بند في ميثاق الوحدة الإفريقية هو عدم تغيير الحدود الموروثة من الاستعمار.

ومعلوم أن تعثر المفاوضات غير الرسمية دفعت بوسيط الأمم المتحدة كريستوفر روس دعوة مجلس الأمن الدولي لاستصدار توصية لاستدعاء أعضاء من خارج جبهة البوليساريو، وهي بداية تجريد البوليساريو من تمثيليتها أمميا، والبحث عن تمثيلية موسعة تضمن تمثيل كافة الصحراويين.

ولقد بدا للوسيط الأممي أن مشكلة إيجاد حل لنزاع الصحراء ترتبط أساسا بالممثل الحقيقي للصحراويين، ولذلك يحاول البحث عن هذه التمثيلية بشكل موسع ولعل ذلك ما دعا به إلى طلب زيارة المنطقة والاستماع إلى كل الأصوات الصحراوية في الصحراء وفي موريتانيا ومخيمات تندوف والجزائر بل وبالخارج.

ولأن المغرب أحس بأن روس بمسعا هذا إنما يمس رمزية سيادته فيما يخص بنية التفاوض كطرف أساسي، فإنه أعلم روس بأنه لن يسمح له بزيارة الأقاليم الجنوبية، وأنه إذا كانت تحركاته تريد الاطلاع على الموقف المغربي فإنه سيجده بالرباط وليس في العيون.

3- الدبلوماسية المغربية ومسار حسم ملف الوحدة الترابية أمميا:

إن مفهوم البيعة في عرف الأمة مقوم مركزي لسيادة الدول في القانون الإسلامي. وأن المملكة المغربية انسجمت لهذا المقوم منذ تأسيسها في 788م إلى اليوم، لكونه مقوما من مقومات السيادة، وقد كانت البيعة حاضرة قوية في ثقافة وعرف القبائل الصحراوية بل حتى في العديد من المجتمعات في إفريقيا، ولأن الصحراء الغربية تميز جغرافي كالصحراء الشرقية للمغرب والتي تسيطر الجزائر عليها بمقولة الحدود الموروثة عن الاستعمار، بينهما هي امتداد جغرافي للمغرب من جهة الشرق والجنوب، وهي جزء لا يتجزأ من سيرورة الجغرافيا المغربية.

وفقا لإيمانه العميق باستكمال وحدته الترابية، يواصل المغرب صد الدفوعات الجزائرية الساعية إلى تأسيس دويلة موالية لها جنوب المغرب بالمشاريع التنموية التي ستقلل من ضغوط الادعاء باستغلال خيرات الصحراء وممارسة انتهاكات حقوقية بها. ذلك لأن حجم الاستثمارات التي أعلن عنها جلالة الملك أكبر بكثير من ثروات الصحراء، كما أن تعزيز اختصاص تدبير الصحراويين لشؤونهم عبر الممارسة الديمقراطية الشعبية وتطبيق الجهورية المتقدمة، التي تجعل من مسؤولية ساكنة الصحراء حماية الأمن العام والحريات العامة والإشراف على مسلسل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية عبر ممثليهم ومنتخبهم.

وعليه، فإنه يتوقع أن يؤسس المغرب خطواته المستقبلية لحسم ملف وحدته الترابية أمميا على أساس مبادئ الممارسة الديمقراطية بخصوص تمثيل ساكنة الصحراء المعنية بتقرير مصيرها، وتنفيذ المشاريع التنموية التي تحول الحواضر الصحراوية إلى مدن نموذجية لها الأفضلية مقارنة بنظيراتها في المنطقة المغاربية ومنطقة الساحل والصحراء، وأن تصبح محط جذب استثماري وسياحي للجميع.

إن المغرب يحس اليوم بأن الحفاظ على كاريزمية جبهة البوليساريو بالاستمرار بعدم منازعتها تمثيل الصحراويين لم يعد مجديا. ولذلك سيدفع بكل قوة لينازعها على المشروعية مستغلا دفوعات قوية أكثر إقناعا للرأي العام الدولي.

إن بنية جبهة البوليساريو تركز واقعا الديكتاتوري وعمق إشكالياتها مع الممارسة الديمقراطية، ويظهر ذلك بشكل بديهي في انتخاب قيادتها وعدم تداول السلطة داخل هياكلها التنظيمية. وفي استمرار "قياداتها التاريخية" على رأس هياكلها منذ انعقاد مؤتمرها التأسيسي في 20 مايو 1973م، ويستمر عبد العزيز المراكشي رئيسا لها بطريقة فجأة. ومقابل اللوائح الانتخابية والأسلوب الانتخابي كما هو الحال في الانتخابات بالأقاليم الجنوبية، فإنه لا أحد يعرف عدد الناخبين ولا الدوائر الانتخابية، ولا عن نسبة المشاركة فيها؛ وهو وضع استثنائي.

4- جبهة البوليساريو والبحث عن شرعية مفقودة.

وإذا تحاول جبهة البوليساريو شرعنة وجودها بين مبادئ القانون الدولي للحدود الموروثة عن الاستعمار وادعاء الشرعية التاريخية تارة وادعاء تمثيلها للساكنة الصحراوية تارة أخرى، وهي في ذلك تكشف عن تضليل لا يستقيم لانعدام مقومات التمثيلية ومنها الأسس الشرعية والتاريخية والحضارية والجغرافية وفق ما ينص عليه القانون الدولي. بل إنه حسب قانون المؤسسات الدولية، فإن محكمة العدل الدولية في لاهاي قضت بوجود روابط حضارية وجغرافية وتاريخية للامتداد الترابي للمملكة المغربية في الجنوب.

سبق لجبهة البوليساريو أن التمس شرعية تمثيل الصحراويين من خلال لقاء 12 أكتوبر 1975م والذي تحتفل به كعيد لما تسميه "الوحدة الوطنية"، وإن لم يتم ذلك عبر العملية الديمقراطية فإنها التمسته بشرعية الفترة الزمنية التاريخية. إلا أن ذلك لم يكن ممكنا لأن العديد من شيوخ قبائل الصحراء ممن حضروا هذا اللقاء أصرّوا أن تكون تمثيلية شيوخ القبائل للملك الراحل الحسن الثاني وأن ولائهم للمغرب قد سبق الاحتلال الإسباني.

ولم ينضج خيار البحث عن تمثيل الصحراويين في غير كنفها الطبيعي، إذ حاول الاستعمار الإسباني إسقاط السيادة المغربية على الصحراء بالبحث عنها في تقرير المصير من خلال إحصاء سنة 1974م، والذي تبين أنه غير ممثل وأنه لا يعكس تمثيلية كافة الصحراويين بسبب نزوح العديد منهم، مما فرض عليه مواصلة البحث عن ممثل لا شرعي للصحراويين.

وهكذا يكون تأسيس البوليساريو لشرعية تمثيل الصحراويين على هذا اللقاء متجاوزة، لأنه من جهة أقيم حينها على إقصاء العديد من الأحزاب وممثلي القبائل كما هو الحال مع حزب الاتحاد الوطني الصحراوي. ومن جهة أخرى فلأنه لم يكن مؤسسا على مبادئ الممارسة الديمقراطية الشعبية، حيث اعتمد التعيين بدل الانتخاب.

ومنذ ذلك الحين استمرت فصول الصراع حول التمثيلية داخل مخيمات تندوف، وتكررت في أكثر من مناسبة بالمظاهرات والاحتجاجات الشعبية ردت عليها الجبهة في كثير من الأحيان بالعنف والسجن. وفي أحيان أخرى كانت تقوم بإجراء انتخابات صورية لذر الرماد في العيون محليا ودوليا في لقاءات انتخاب أمانتها العامة.

إن الواقع العملي يفيد بأن غالبية الصحراويين تعيش داخل الأقاليم الصحراوية بينما تقيم البوليساريو رفقة أقلية فوق التراب الجزائري - (لا تزال ترفض إحصاءهم رغم الدعوات المتكررة للأمم المتحدة للقيام بذلك) -. وعليه فمن غير المعقول عمليا وواقعا رفع شعار أن البوليساريو هي الممثل الشرعي والوحيد للصحراويين.

وبقي هذا الشعار موغلا في الأمثلة، ولم تستوعبه البيئة على أرض الواقع. فهو شعار غير مؤطر بالطرق الديمقراطية المتعارف عليها ولذلك يفقد مصداقيته شعبيا. كما أن إطلاقه لم ينضج بشكل جماعي في لحظة حماسية متسعة، فلم يلتف حوله كل (الصحراويين). فقد جاء فضفاضا وديكتاتوريا، لذلك حتى في زمن التأسيس لم تستطع البوليساريو الالتزام به ديموقراطيا، لأنها بكل بساطة لا تمتلك مقومات تنظيم انتخابات بمعناها المتعارف عليه، ولكنها اعتمدت إيديولوجيا البلدان الديكتاتورية.

وعليه، فإن محاولة الادعاء بوجود إطار ديموقراطي لتمثيل البوليساريو للصحراويين أمر لا يستقيم قانونيا بقوة الواقع. فالتنظيم الذي يضع دستورا لدولة صورية ويمنع تأسيس أحزاب وجمعيات ونقابات لا يمكنه تمثيل الصحراويين، فبالأحرى الإعلان عن تأسيس دولة ما يسمى

"الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية"¹⁴ يهيمن بها قهرها ودكتاتوريا على رأي وحرية كل الصحراويين في إبداء رأيهم بخصوص وجهة نظرهم حول مستقبلهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي...

ولعل إقدام جبهة البوليساريو بالإعلان عن تأسيس جمهوريتها الوهمية إنما هو إحدى المناورات للبحث عن مداخل قانونية لشرعنة تمثيلها للصحراويين عبر مفهوم الدولة، أو بالأحرى البحث عن شرعية تمثيل مفقودة، إلا أن الواقع بقي أكبر بكثير من طموحاتها تلك، وهو ما يعكس فشلها في تكييف بنيتها السياسية وفق مبادئ العملية الديمقراطية والإبقاء على أسلوبها البوليسي.

لقد كان لهيمنة ثقافة الفكر الوحيد على قيادة البوليساريو أن ظلت بعيدة عن الممارسة الديمقراطية، وهو ما يجعل الانتخابات التي تجريها البوليساريو تعتمد التعيين من خلال وضع لائحة لمرشحين متحكم فيها أو بحصر إجراء هذه الانتخابات على ما تسميه بـ"الولايات" في مخيمات الاحتجاز، ومن دون أن تشمل باقي الصحراويين، وهو ما ترتب عنه إعلان تيار خط الشهيد الذي يتزعمه المحجوب السالك أخ مؤسس الجبهة الانفصالية والذي ينازع القيادة الحالية للبوليساريو التمثيلية ويسمها بأنها غير شرعية في تمثيل الصحراويين.

5- الأقاليم الصحراوية والتمثيلية المدنية والمؤسسية:

جربت المملكة المغربية إيجاد بديل لتمثيل الصحراويين من خلال المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراويين لإعادة التوازن لموقفها التفاوضي في الاجتماعات غير الرسمية تجاه ادعاء البوليساريو بأنها الممثل الشرعي والوحيد للصحراويين. حيث تأخر المغرب في منازعة البوليساريو في تمثيل الصحراويين، فلم يعلن عن تأسيس المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية حتى 25 مارس 2006م. وسبق ذلك تقدم المغرب بمبادرة الحكم الذاتي سنة 2007م، لينازع البوليساريو شرعية التمثيل. ولذلك جعل أعضاء من المجلس ضمن الوفد المغربي في مفاوضات مناهضة بنيويورك، وهم قيادات سابقة في البوليساريو غادرت مخيمات تندوف.

وهكذا أعلن الملك محمد السادس نصره الله في خطاب ذكرى 30 للمسيرة الخضراء من مدينة العيون عن إحداث المجلس الاستشاري الملكي للشؤون الصحراوية لإيجاد التوازن في تمثيلية

14 - أعلنت جبهة البوليساريو عن قيام جمهوريتها في 27 فبراير 1976م وشكلت أول حكومة لها برئاسة محمد الأمين أحمد في 6 مارس 1976م.

الصحراويين، إلا أن تحديد لائحة أعضاء هذا المجلس تم عن طريق التعيين، ولذلك لم يقو على منازعة البوليساريو مسألة تمثيل الصحراويين، ولذلك تراجع حضور أعضاء هذا المجلس في الاجتماعات غير الرسمية التي كان يشرف عليها المبعوث الشخصي للأمين العام إلى الصحراء كريستوفر روس.

وارتباطا بهذا الواقع سكت خطاب الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء عن مستقبل الوضعية القانونية لـ "كوركاس" بعدما وعد الملك في خطاب الذكرى الخامسة والثلاثين للمسيرة الخضراء عن إعادة هيكلة المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية. إلا أن واقع الحال يفيد التأكيد على أن تمثيلية ساكنة الصحراء تتم وفق ضوابط العملية الديمقراطية.

وبناء عليه، فإنه من غير الممكن الإبقاء على مؤسسة عين أعضاؤها، كما أن استمرار التعامل بها يناقض المبادئ الديمقراطية التي أكد جلالة الملك على التزام المغرب بها، ومن ناحية أخرى فإن الإبقاء على مجلس "الكوركاس" سينازع المجالس المحلية والجهوية المنتخبة ديموقراطيا العديد من الاختصاصات.

وبالنظر إلى هذه التداخلات القانونية والتوافق مع الشرعية الديمقراطية باعتبار مبادئها كونية، فإن المغرب لن يبقى على مجلس بأعضاء لم يتم اختيارهم عن طريق صناديق الاقتراع، وسيكون مدعوا للتوفيق بين نظام الجهوية المتقدمة والعملية الديمقراطية التي تدعم تدبير الصحراويين لشؤونهم الذاتية بأنفسهم. وفي ذلك يؤكد جلالة الملك على أن "الشرعية الديمقراطية والشعبية، التي حصل عليها المنتخبون، تجعل منهم الممثلين الحقيقيين لسكان الأقاليم الجنوبية، سواء على مستوى المؤسسات الوطنية، أو في علاقتهم بالمجتمع الدولي"¹⁵.

وهكذا تم الحسم في مسألة تمثيلية الصحراويين بما تقتضيه الممارسة الديمقراطية في أرقى مستوياتها هو ما عبر عنه جلالة الملك في خطاب الذكرى الأربعين للمسيرة الخضراء لنونبر 2015م، وذلك على ضوء المشاركة المكثفة للأقاليم الجنوبية في الانتخابات الجهوية والمحلية لـ 4 شتبر 2015م. وهو بذلك وضع -الخطاب الملكي- المجتمع الدولي أمام مسؤولياته الأخلاقية والسياسية فيما يخص مسألة التمثيلية، بين ممثلين انتخبهم الصحراويون وفق مبادئ الديمقراطية الشعبية وبين من يفرضون أنفسهم كممثلين للصحراويين.

15 - خطاب الملك بمناسبة المسيرة الخضراء لنونبر 2015م.

ولأن الجهوية المتقدمة التي أعلن جلالته الملك عن تطبيقها بأفضلية في الأقاليم الجنوبية فهي تحسم من جهة المسألة التنموية، ومن جهة أخرى تتجاوب مع الإشكال الأممي لقضية الصحراء عبر جعل الجهوية جسرا يمكن من المرور السهل نحو مبادرة الحكم الذاتي باعتبارها شكلا من أشكال تقرير المصير.

ومن مميزات الجهوية المتقدمة أنها تستوعب البعد الإنساني والحقوقى، فهي تؤسس لسبل العيش الكريم من خلال العمل على تحقيق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لسكان الأقاليم الجنوبية بطريقة جد مرنة. ذلك لأنها تقوم على المقاربة التشاركية في تدبير ساكنة الصحراء لشؤونهم الذاتية.

إن المغرب وبهذا الخطاب التاريخي دق آخر مسمار في نعش البوليساريو، حينما أكد أن لا أحد بإمكانه اليوم الادعاء بأحقية تمثيل الصحراويين دون الاحتكام إلى قواعد العملية الديمقراطية. وعليه، فإن الخطاب الملكي وطبعا معه كل الصحراويين أعاد التأكيد على أن تمثيل الصحراويين يمارسونه بإرادتهم في عملية اقتراعية نزيهة، وأن لا أحد بإمكانه أن يجردهم من أحقية اختيار ممثليهم، وأن ادعاء البوليساريو بأنها الممثل الشرعي والوحيد للصحراويين أمر في غاية الغرابة، ولا يقبله عاقل في العالم.

إنه على قدر العروة الوثقى التي جسدت عمق الروابط التاريخية بين المغرب وعمقه الجيوستراتيجي الإفريقي يبقى للمغرب أبعاده الحقيقية في التفاعل الإيجابي مع حتميات التطور ويستطيع التجاوب معها بابتكار البنيات الفكرية والسياسية والمؤسسية ويقترح مشاريع مستقبلية تنضج تداعيات التطور المجتمعي.

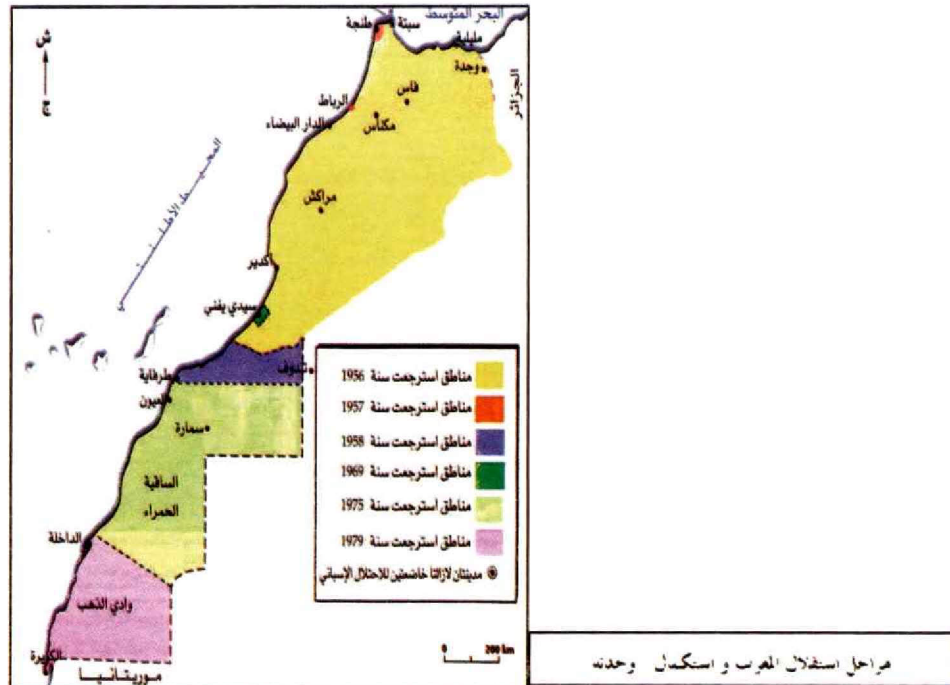
إن الأقاليم الجنوبية اليوم وهي تعيش تطورا مستمرا يضمن الحياة الكريمة، فإنها أيضا مواكبة بدراسات وتخطيط دقيق استلهم عناصر المخطط التنموي الجديد، الذي يتجاوز تنمية الأقاليم الجنوبية بل يجعلها أقاليم فاعلة في قيادة تنمية إقليمية في منطقة الساحل والصحراء بالنظر إلى طبيعة المشاريع الهيكلية التي أعلن عنها جلالته الملك محمد السادس حفظه الله خلال زيارته الأخيرة إلى الأقاليم الجنوبية.

لقد كان لبيعة إمارة المؤمنين فضل كبير للبناء المجتمعي ومواكبة التطورات الدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية في الصحراء الإفريقية، بل وأكدت الوقائع حرص إمارة المؤمنين في المغرب على حماية مصالح الأفرقة الدينية والاقتصادية، وأنها في ذلك كابدت الكثير من التحديات إلى أنها لم تتخل عن متابعة رسالتها الحضارية والتاريخية.

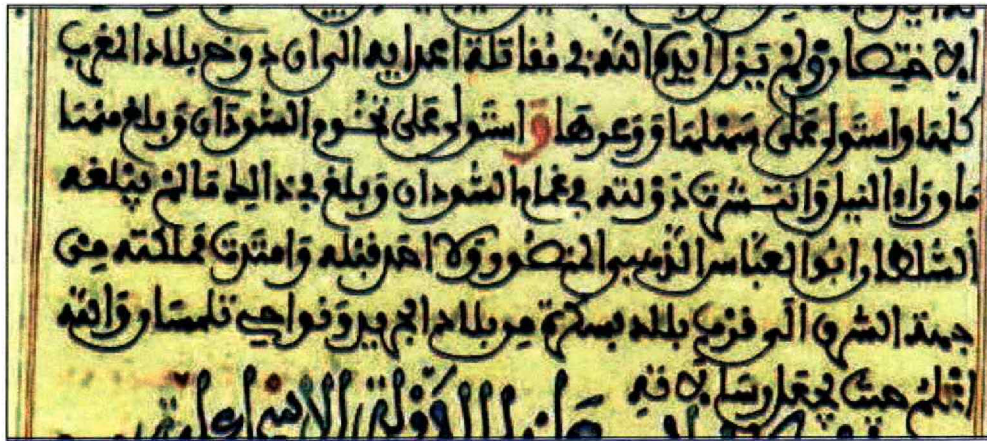
الحجج والوثائق التاريخية تأكيد لمغربية الصحراء

د. محمد زين العابدين الحسيني
باحث في التاريخ، الرباط

مما لا شك فيه، أن المغرب تعرض لتنافس إمبريالي، وضغوط استعمارية متعددة طيلة القرن التاسع عشر، خصوصا بعد استعمار الجزائر سنة 1830م. آلت إلى تقسيمه إلى مناطق نفوذ إسبانية وفرنسية ودولية في طنجة. وقد عمل المغاربة على استرجاع أراضيهم بشكل تدريجي وفق ظروف معينة. خصوصا وأن هذه المناطق كانت تربطها روابط متعددة مع السلاطين المغاربة. غير أن خصوم الوحدة يعتبرون هذا الاسترجاع شكلا من أشكال الاحتلال، بالرغم من كون بعض المناطق ما تزال محتلة مثل مدينتي سبتة ومليلية، وغيرهما. وبالرغم مما كان للمغرب من روابط مع أقاليمه الجنوبية تؤكد العديد من الوثائق والرسائل والظواهر الشريفة والمخطوطات، تؤكد سيادة المغرب منذ القديم على أراضيها في الجنوب، والتي تجسدها روابط البيعة بين السلطان والسكان.



وهكذا فإن العديد من المؤرخين المعاصرين للدولة العلوية يثبتون الوجود المغربي في جنوبه، فعلى عهد السلطان مولاي إسماعيل، وفي مخطوط محمد الصغير اليفرنى - المعنون بـ "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" جاء ما يلي: "ولم يزل أيده الله في مقاتلة أعدائه إلى أن دوح بلاد المغرب كلها واستولى على سهلها ووعرها واستولى على تخوم السودان وبلغ منها ما وراء النيل، وانتشرت دولته في تمام أو عمام السودان، وبلغت في ذلك ما لم يبلغه السلطان أبو العباس الذهبي المنصور، ولا أحد قبله"،



وفي مخطوط الروضة السليمانية ورد تأكيد ذلك، حيث يقول أبو القاسم الزياتي: "... في عام تسعة وثمانين وألف توجه لتدويخ السوس وتمهيده، فبلغ إلى طاطا وءاقا وتسنت، وشنقيط، وقدمت عليه وفود العرب أهل الساحل والقبلة، مغفرة، ودليم...."



1 - محمد الصغير اليفرنى - المعنون بـ "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي" ... مخطوط.

2 - أبو القاسم الزياتي، "الروضة السليمانية في ذكر ملوك الدولة الإسماعيلية ومن تقدمها من الدول الإسلامية" مخطوط.

وهذا يعني أنه كان هناك امتداد واضح للدولة المغربية على عهد العلويين نحو الأقاليم الجنوبية، مثلما كان في مراحل سابقة.

كما أن الروابط بين سكان الأقاليم الجنوبية وسلاطين المغرب تؤكد العديد من الرسائل السلطانية التي تتضمن إما تعيين عمال أو قضاة أو قادة عسكريين على هذه الأقاليم، وهذا ما يبين عنصرا مهما هو السيادة المغربية على هذه الأقاليم. وكدليل على ذلك سيتم عرض بعض الوثائق في هذا المجال، من بينها هذه الرسالة الموجهة من السلطان مولاي عبد الرحمن إلى عامله في الأقاليم الجنوبية محمد بن عبد الرحمن التلموذي، والتي يقول فيها :

"خدامننا الأرضين، آيت موسى وعلي يكتوت وأولاد إدريس والرثييات وأولاد تيدرارين، وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، وبعد، فقد ولينا عليكم خديمنا الأرضي القائد إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الودنوني، وأسندنا له النظر في أموركم..."



وهذه الرسالة من السلطان مولاي الحسن إلى نائبه في الشؤون الخارجية، محمد بن العربي الطريس بخصوص حدود المغرب الجنوبية، والتي تؤكد ارتباط ملوك المغرب بالأقاليم الجنوبية، ومحافظتهم على الوحدة الترابية المغربية، ومن بين ما جاء فيها :

وَتُحْمِيهِ مِنْ نَاحِيَةٍ وَتَضَعُ مِنَ الْخَوَابِ بِرُفْتِهِ نَصْلًا كَهَيْئَةِ كَتُونٍ عَلَى بَالٍ مِنْ وَالِدٍ وَأَمَّا
وَأَنَّ الزُّبَيْدَ بِفَرْجَتِهَا مَبْدَأُ عِبَادِ مَنْكَ النَّاحِيَةِ فَأَخْبِرْ وَأَنَّ مَرْزُوقَ الْحَمَلِ نَاحِيَةِ أَوْلَادِهِ وَلَمْ
وَرَفِيقُهُ تَحْمِيهِ بِالْمَرْبِ الزُّبَيْدِ ثُمَّ يَخْرُجُ عَنِ النَّسْرِ بَعْدَ النَّازِلِ بِمَنْزِلِهِ مِنَ الْأَسْرِ وَفَارَ وَتَحْمِيهِ

وهذه الرسالة من السلطان مولاي الحسن إلى القائد حافظ الدليمي:

108

والملاحظ أنه منذ بداية القرن التاسع عشر، ظهر جلياً نية الأوروبيين في احتلال أراض خارج أوروبا، حيث اتجهت أنظارهم إلى إفريقيا، وقد شجعهم على ذلك مفكرون أوروبيون نظروا لما عرف بالحركة الإمبريالية، أمثال "جول فيري" - "كومبيطا" - "جون سيسل رودس" ... وهذه الأفكار تدعو إلى التوسع، مبينين من خلالها الإيجابيات التي يمكن أن يحصل عليها الأوروبيون إذا ما توسعوا وبسطوا نفوذهم على أراض أخرى خارج قارتهم.

وقد وجه السلطان مولاي الحسن خطاباً صارماً في هذا الإطار إلى محمد بركاش نائبه في الشؤون الخارجية، بخصوص الفرنسيين والإسبان وتحركاتهم المشبوهة في المنطقة، جاء فيه :

"أما الصبنيول في هذا المعنى فقد أجبناك عنه في غير هذا، وأما الفرنضيص فبصره وأعلمه بأننا لم نسكت للنجليز على مكينسي بل لازال الكلام معهم في ذلك وقد تكلمنا مع باشدورهم حيث كان بحضرتنا العالية بالله في شأن من ذكر والمحل الذي نزل به فادعى أن ذلك المحل خارج عن إيالتنا فلم نقبل منه ذلك ورددناه عليه بما كنا وجهنا لك نسخة منه ومن جملته الاسترعاء على نزول المذكور هناك بغير إذننا وتصرفه مع قبائل إيالتنا افتياتاً وجعل الدرك عليه..."

ما اللام حتى بعد يعلم منهم بالمال وعلم ذلك حال أما الصبنيول في هذا المعنى فقد أجبناك عنه في غير هذا
نفساً أما البصنيول في هذا المعنى فقد أجبناك عنه في غير هذا
بهذا الك وقد تكلمنا مع باشدورهم حيث كان بحضرتنا العالية بالله في شأن من ذكر والمحل
الذي نزل به فادعى أن ذلك المحل خارج عن إيالتنا فلم نقبل منه ذلك ورددناه عليه بما كنا
وجهنا لك نسخة منه ومن جملته الاسترعاء على نزول المذكور بغير إذننا وتصرفه مع قبائل إيالتنا
افتياتاً وجعل الدرك عليه...

وما يؤكد الوحدة الترابية المغربية كذلك، الرسالة التي بعث بها السلطان مولاي عبد العزيز إلى حمادي الشباني من قبيلة الشبانات، يقول فيها :

"خديمنا الأرضي القايد حمادي الشباني وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد،

فقد كلفنا خديمينا القائد إبراهيم بن مبارك الشتوكي التكني والقائد محمد بن البلال البوسعيدي برد الببال لكوشطة رعيتنا السعيدة من طرفاية إلى رأس بوجدور ووصيناها من أن يحدث بها أحد شيئا برا وبحرا وأعلمناك لتكون على بال والسلام. في فاتح محرم عام 1319هـ".



إلى جانب حرص السلطان مولاي عبد الحفيظ على عدم فسح المجال للأجانب كي يؤسسوا مناطق لنفوذهم بالأقاليم الجنوبية، والضرب على أيدي الخونة الذين قد يتعاملون معهم. ولذلك خاطب العديد من قادة الجنوب بهذه الرسالة الصارمة :



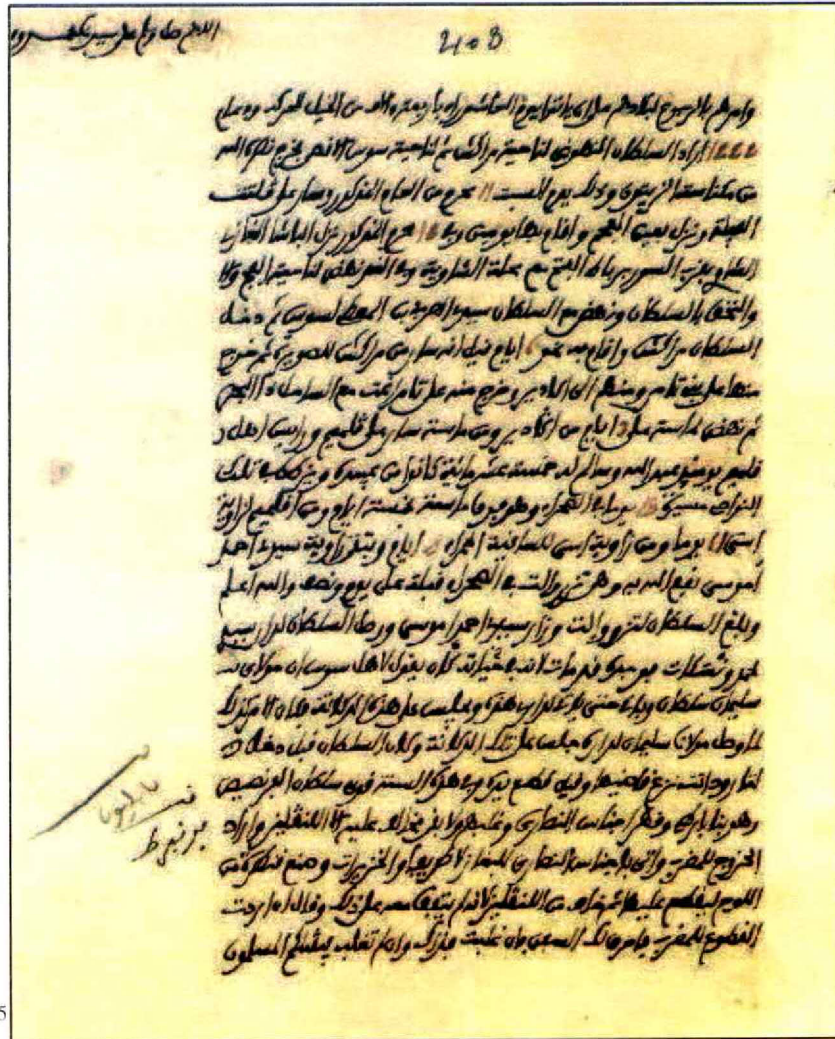
كما توجد العديد من الوثائق الأجنبية التي تؤكد مغربية الأقاليم الجنوبية، من بينها هذه الرسالة التي بعثها الجنرال الحاكم العام لجزر الكناري، إلى الوزير الأول الإسباني، الكونت فلوريدا بلانكا، بتاريخ 16 مارس 1785م، والتي يقول فيها: "إن الخبر الذي تفضلتم معاليكم بإبلاغه إياه بتاريخ 25 يناير الأخير حول العناية الفائقة، والمسامي الحميدة التي اضطلع بها قنصل صاحب الجلالة بمدينة طنجة بغاية العمل على إطلاق سراح 27 رجلاً الذين كان يتألف منهم طاقم مركب نويسترا سينيورا دي لاس أنغوستياس، الذي ارتطم في رأس بوجدور الواقع على الساحل الإفريقي العائد لملك المغرب (كذا)، كما أن الاهتمام البالغ الذي أبداه صاحب الجلالة الذي أصدر تعليماته ليحاط هذا الأمر بالعناية الخاصة، كل ذلك كان له أبلغ الأثر في هذا الإقليم، ونظراً للعطف الذي يشعر به جلالة الملك في قلبه الطيب فقد قمت بإبلاغ المجلس الجزيري، وكذا عائلات هؤلاء المنكوبين بالأمر الملكي، وقد أكد لي ممثلهم في هذه الجزيرة أن الدموع قد انهمرت أمام الملاء فرحاً واستهلالاً بهذا الأمر الملكي، وقد صاحت الحناجر بالدعاء له بطول عمره الغالي وهو ما يرجوه دائماً من العلي القدير جميع الذين يتشرفون بخدمة جلالتهم في هذه الجزر"³.

وقد كان الوجود المغربي في أقاليمه الجنوبية يعزز بتحركات سلطانية نحوها تأكيداً للوحدة الترابية المغربية، وترسيخاً لوجود المغرب في أراضيها الجنوبية، ولعل ذلك ما كان دافعاً لإيركمان إلى القول: "ينتقل السلطان باستمرار داخل الإمبراطورية، على نحو يستحيل معه استقرار الحكومة في مكان معين... وقد اعتاد رجال المخزن على حياة الترحال باستمرار، دون أن يعرف سير العمل أي فتور"⁴.

وهكذا قام السلطان مولاي إسماعيل بعدة تحركات نحو الجنوب وكذلك السلطان مولاي سليمان، ثم السلطان مولاي الحسن، وقد أرخ الضعيف الرباطي لتحركات السلطان مولاي سليمان بقوله: "نهض مع السلطان سيدي العربي بلمعطي لسوس ثم دخل السلطان مراکش وأقام فيه نحو ستة أيام... ثم نهض لماسة على 3 أيام من أكادير،... ويزطط في تلك النواحي مسيرة 18 يوماً في الصحراء وهو فوق مائة بخمسة أيام ومن إقليمهم لزواية أسي 11 يوماً، ومن زاوية أسا للساقية الحمراء 8 أيام".

3 - من رسالة الجنرال الحاكم العام لجزر الكناري، مجيباً الوزير الأول الإسباني، الكونت فلوريدا بلانكا، بتاريخ 16 مارس 1785م. وردت في: "الحوار التاريخي الكناري - الأمريكي، قسم كنارياس، شمال غرب إفريقيا المجلد الثالث (صفحة 54) عن مكتبة بلدية جزيرة "غرنا كاناريا" بأرخبيل الخالدات.

4 - A.G.V; 3h2; Rapp, Erkmann, n 20, 1879.



وأثناء فترة فرض الحماية على المغرب من سنة 1912م وحتى رجوع الملك محمد الخامس طيب الله ثراه من منفاه سنة 1955 ثم إعلان بداية استقلال المغرب رسمياً سنة 1956م، تقوت الروابط بين سلاطين الدولة العلوية وسكان الجنوب والمغرب عامة،

وتجدر الإشارة إلى أن المغرب لم يحصل على استقلاله كاملاً بل ظلت أجزاء مهمة من ترابه بيد الأجانب، وأخذ يسترجعها بشكل تدريجي حيث بقيت طرفاية وسيدي إفني والأقاليم الجنوبية الساقية الحمراء ووادي الذهب، وكذلك مدينتي سبتة ومليلية، ومن ثمة فإنه لا يمكن القول بأن المغرب حصل على الاستقلال كاملاً، ولكن جزئياً، وما يؤكد ذلك ما جاء في خطاب إعلان الاستقلال في 7 مارس 1956م، حيث قال الملك محمد الخامس طيب الله ثراه:

5 - الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف، مخطوط.

"إننا نشعر بعد هذا البيان، أن كل ما قمنا به وحققناه... سيظل عملاً ناقصاً وجهداً فاشلاً ما دام تراب وطننا مفكك الأوصال مبعثر الأجزاء.... وإن هذا ليحدونا أن نجعل في طليعة ما سنقوم به، العمل على توحيد هذا التراب المقدس، ورد الأشياء إلى نصابها والمياه إلى مجراها".

وما جاء في خطاب آخر للملك محمد الخامس طيب الله ثراه بالأُمم المتحدة في 9 دجنبر 1957م، قال فيه: "ولما للمغرب من رغبة في إقرار علاقات سلمية مع سائر الدول أثر عن طواعية واختيار طريق المفاوضات لحل مشاكله.... وتشبته بسيادته ورغبته الملحة في المحافظة على استقلاله الكامل".

وما ورد في الخطاب الذي ألقاه طيب الله ثراه بمحاميد الغزلان في فبراير سنة 1958م، حيث قال: "إننا سنواصل العمل بكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا، وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ ورغبات السكان".

وما ورد في الخطاب الذي ألقاه الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه أمام مؤتمر الدول غير المنحازة ببلغراد: "ففي المغرب مثلاً تستمر إسبانيا في احتلال جهات كاملة في جنوب بلادنا، الساقية الحمراء، إيفني، ريودي أورو، كما تحتل قطاعات في شمال مملكتنا، وإنه لمن واجبنا أقطاراً غير منحازة أن نهتم بهذه القضية، ونهتم في السعي لإيجاد حل لها".⁶

وهكذا فإن الوحدة الترابية المغربية كانت قائمة قبل التدخل الاستعماري، وهو ما تؤكدُه العديد من الوثائق التي تم الاكتفاء بتقديم بعض نماذجها، سواء منها المغربية أو الأجنبية، وهو الأمر الذي يجعل التاريخ عنصراً أساسياً ومهماً فيما يخص تأكيد الوحدة الترابية المغربية لمواجهة خصوم هذه الوحدة.

﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾⁷.

6 - من خطاب الملك المرحوم الحسن الثاني ألقاه أمام مؤتمر الدول غير المنحازة ببلغراد في 8 شتنبر 1961م،

7 - سورة الشعراء، الآية 226.

بيعة القبائل الصحراوية للسلطان العلوي المولى عبد الحفيظ

ذ. عبد المجيد خيالي
الخزانة الحسنية، الرباط

مفهوم البيعة وشروطها

من القوانين الدستورية المغربية المنصوص عليها في بيعة السلطان¹ خلفا عن سلف، هو أن يشرف عليها أهل الحل والعقد من الجند والعلماء والأشراف وسائر الأعيان كتابة وحضورا، وفقا لأحكام منضبطة، يلتزم فيها السلطان العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وضمان العدل في الخصومات، وحماية حوزة الوطن، وأمن البلاد من الفتن، بيعة مقيدة بشروط، توثق الصلة بين المسلمين وإمامهم، وتحقق للأمة أهدافها ومقاصدها، ويجب ألا يتخلف أحد عن بيعة السلطان مباشرة بعد توليته ولاية الحكم، وهذه السنة المحمودة ما رأى فيها المغاربة والله الحمد إلا الأمن والاستقرار، لما لها من تجاوب بين العرش العلوي المجيد والشعب المغربي منذ قيام الدولة العلوية. وعقد البيعة ثابت شرعا لا يقبل النقض بدليل قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»² [النساء/ 58] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات وليس في عنقه بيعة لولي الأمر، مات ميتة جاهلية»³، وقوله صلى الله عليه وسلم: «اسمعوا وأطيعوا، وإن تأمر عليكم عبد حبشي»⁴. فالأدلة هنا ثابتة على لزوم بيعة السلطان ووجوب طاعته بالمعروف، وحرمة سبه وغيبته وغشه والطعن فيه والتشهير به. وفي اللغة، قولهم: تبايعوا على الأمر كقولك: أصفقوا عليه. والمبايعة والتبايع عبارة عن المعاقدة والمعاهدة كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره وقد تكرر ذكرها في الحديث⁵.

- 1 - يقول الغزالي: "القول الوجيز أننا نراعي الصفات والشروط في السلاطين تشوفا إلى مزايا المصالح. ولو قطعنا ببطلان الولايات الآن لبطلت المصالح رأسا"، إحياء علوم الدين، مصر، مطبعة الحلبي، 1346هـ، 124/2.
- 2 - سورة النساء، الآية 58.
- 3 - أخرجه مسلم في صحيحه، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما برقم (1815) في الإمارة.
- 4 - رواه الإمام أحمد، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، مسند الشاميين من مسند الإمام أحمد.
- 5 - تاج العروس مادة: "بوع".

ولا تزال إلى حد الآن عقود هذه البيعات قائمة على أصولها لم تتبدل على مر الدهر، ولم تتحول عما كانت عليه في سالف العصر تحفظ تاريخا موصولا وعزا للأمة أثيلا.

فالتخصيص والاختيار من تدبير العزيز الحكيم، يخلق ما يشاء ويختار. ﴿وَبِكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص / 68] وقوله تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج / 73]. فهو لاء البشر مذ خلق الله آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، اصطفى منهم الباري جل جلاله لقيادة خلقه، ملوكا ورؤساء وسلاطين كما اصطفى الأنبياء والرسل من قبل. وتعليل هذا الاصطفاء، لإقامة نظام محكم يسوده الأمن والإخاء وإقامة العدل، والأخذ على يد الظالم، وهذا لا يقوم إلا على يد رجل واحد، تنعقد له البيعة من أكثر الخلق، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق⁶. لصرفه عن إثارة الفتنة نتيجتها فوضى وفساد في الأرض.

بيعة السلطان المولى عبد الحفيظ في ربوع المملكة

ولقد قبل المولى عبد الحفيظ البيعة والبلاد محتلة شرقا من الحدود الجزائرية إلى وادي ملوية، وغربا دائرة الشاوية إلى تادلة تقريبا بالجيش الفرنسي، وشمالا ناحية مليلية وسبتة من قبل الجيوش الإسبانية، وميزانية الدولة ومدخلها المهمة تحت المراقبة الأجنبية، والديون متراكمة، والوزارة والحاشية على ما هي عليه، والدول الأوروبية لم تعترف بالمولى عبد الحفيظ ملكا إلا بعد أن تعهد باحترام المعاهدات بما فيها من حيف وظلم⁷. ولم يستثن من البيعة أحد، من البوغاز شمالا إلى الصحراء المغربية جنوبا وشرقا وغربا، هذا البلد الذي طمع فيه الطامعون بدون استحياء، وسال لعابهم عليه بدون دليل أو برهان، وتهافتوا على أرضه، كتهافت الاستعمار الفرنسي على الوطن كله، فخرج مدحورا خائبا، بقيادة ملكها الشريف الهمام سيدي محمد الخامس بطل التحرير وراية الشجعان، وتم مشواره البطولي ولده الهمام، طيب الله ثراه، الحسن الثاني، بإنشاء مسيرة وطنية سلمية شارك فيها الصغير والكبير من أرجاء الوطن، ليكمل بها خط الحرية والأمان، ويرمي مفتاح المستعمر الإسباني ومن ولاه، في عرض محيط الكويرة، فيكون بهذا قد قطع سيلان لعاب الطامعين.

ومن المضحكات والعجائب، ضحك فيه فضيحة لا يخشاها إلا عاقل، كيف يجرد المرء مدعيا متاع غيره فينسبه غصبا لنفسه! نعم صحراء من الظلم كانت ترجف وتعوي، ويعلم طالبيها أنها

6 - انظر إحياء علوم الدين للغزالي 1 / 115 دار المعرفة بيروت.

7 - دروس تاريخ المغرب تأليف الهاشمي الفلاحي ص 246.

ليست له، بل لأهلها بقيادة ملكها، وبيعات أهلها قديما وحديثا لا يعرفون إلا من قال فيهم المصطفى "قدموا قريشا" والتاريخ شاهد على ذلك بالرسوم والوثائق من السلطان المولى إسماعيل إلى عهدنا الحالي. وسأكتفي بعرض بيعات صحراوية لسلطان علوي شريف، وهذا غيض من فيض.

هو السلطان المولى عبد الحفيظ بن السلطان الحسن العلوي الشريف الذي بوع له سلطانا وحاكما على المغرب أولا بمراكش بمسجد بريمة يوم الجمعة 6 رجب 1325هـ الموافق 16 غشت 1907م⁸، ثم بفاس مدينة العلم والعمل الغراء، وقاعدة المغرب المؤسسة على السراء⁹، في شهر ذي الحجة الحرام عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف¹⁰، موافق 12/15/سبعة وتسعمائة وألف (1907م)¹¹، بعد استفتاء أهلها للعلماء عن صحة موجبات خلع المولى عبد العزيز وموافقتهم على ذلك¹². وبايعته طنجة يوم الأحد 24 رجب 1326هـ، ثم العرائش والعدوتان سلا والرباط، وكانت بيعتهما في يوم الثلاثاء 26 رجب المذكور، ثم الجديدة وأزمور يوم 28 منه، ثم الصويرة يوم الأربعاء 12 شعبان عامه وهكذا¹³. واعترفت به جميع الدول الممثلة بطنجة سلطانا شرعيا في 5 يناير 1909م¹⁴.

بيعة أهل الصحراء للسلطان عبد الحفيظ ووثائقها

أما البيعة التي تمت للسلطان عبد الحفيظ من أهل الصحراء، وإصدار أوامره لهم باتباعه، وتنفيذ كل ما تصدره الأوامر السلطانية بإجلال وتقدير، فإننا سنستعرض بعضها بوثائق أصلية محفوظة بالخزانة الملكية المختصة بحفظ الوثائق والرسوم، وهي كالتالي:

8 - العز والصولة 1/ 380، دروس تاريخ المغرب تأليف الهاشمي الفلاحي ص 244.

9 - الدرر اللفظية ص 28.

10 - الدرر الفاخرة ص 117، والعز والصولة 1/ 373. وفيه: السلطان عبد الحفيظ بن السلطان مولاي الحسن الأول، كان خليفة لأخيه بمراكش (المولى عبد العزيز) وبها أعلن الثورة عليه صبيحة الجمعة 6 رجب عام 1325هـ، ثم بوع بفاس يوم الجمعة 22 ذي القعدة من السنة نفسها، وهو الذي أمضى معاهدة فاس مع فرنسا في 30 مارس 1912م، ثم بارح فاس إلى الرباط صبيحة الخميس 20 جمادى الثانية عام 1330هـ، 6 يونيو 1912م، وتنازل عن الملك يوم الإثنين 28 شعبان عام 1330هـ، وغادر المغرب في اليوم نفسه على متن سفينة فرنسية متجها إلى باريس. العز والصولة 1/ 380، وفي الدرر اللفظية أواخر ذي القعدة الحرام من سنة خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف، لحقت بها في ذلك صباح الأربعاء، ثالث ذي الحجة بعده على الولاء المدينة ذات الأفنان والفنون وهي مكناسة الزيتون، فأصبحت بيعة مولانا المظفر ديارها آمنة، وأهلها من الأذى سليمة مطمئنة ساكنة. ص 29.

11 - الحركة الحفيظية للدكتور علال الخديمي ص 194. وهناك تعليق للمؤلف عن تاريخ هذه البيعة يخالف ما أثبتته المرحوم المنوني انظر ص 197 هامش 28. بينما في الدرر اللفظية وقعت البيعة في أوائل رجب الحرام من نفس السنة ص 8. مخ 3640 الخزانة الحسينية.

12 - دروس تاريخ المغرب تأليف الهاشمي الفلاحي ص 244.

13 - إتخاف أعلام الناس 1/ 453-454.

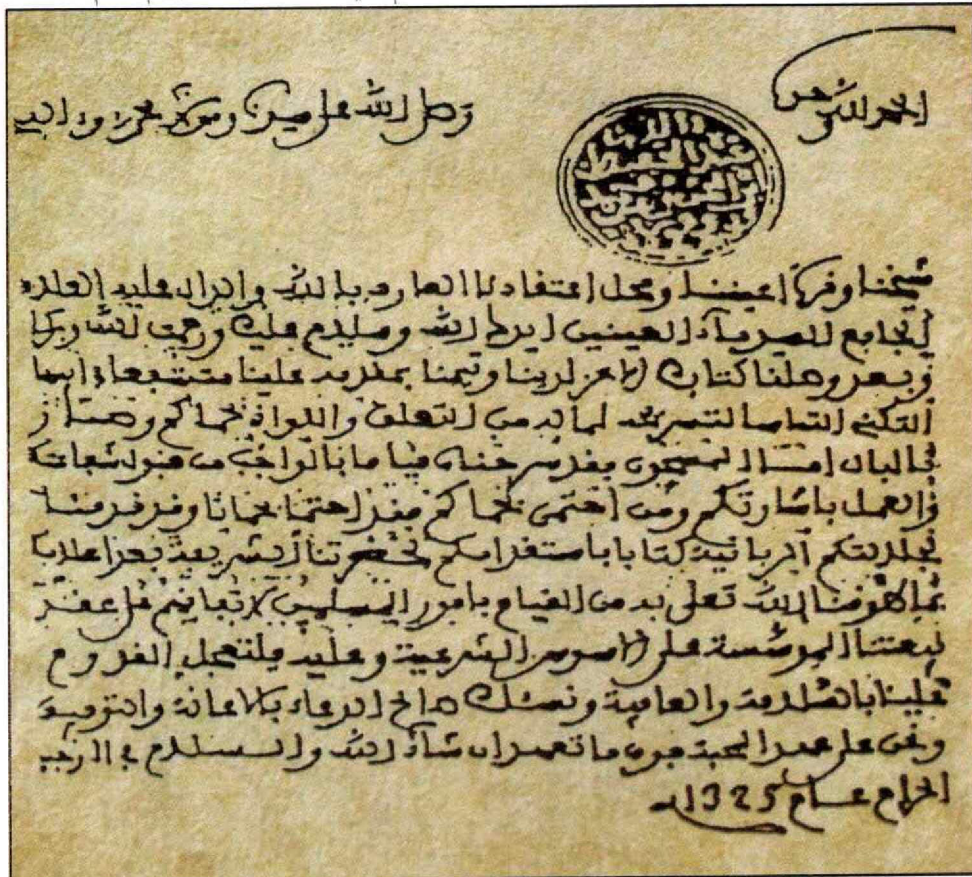
14 - الفكر الإصلاحي في عهد الحماية آسية بنعدادة ص 44.

1- رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين

يدعوه فيها لبيعته

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

شيخنا وقرّة أعيننا ومحل اعتقادنا، العارف بالله والذال عليه، العلامة الجامع السيد ماء العينين. أيدك الله، وسلام عليك ورحمة الله وبركاته. وبعد، وصلنا كتابك الأعزّ لدينا وتيمنا بمقدمه علينا متشفعا في أبيها التكني، التماسا لتسريحه لما له من التعلق واللوازم بحماكم، وصار بالبال. أما المسجون فقد سرحناه قياما بالواجب من قبول شفاعتكم والعمل بإشارتكم ومن احتضى بحماكم فقد احتضى بحمانا. وقد قدمنا لجلالتكم الربانية كتابا باستقدامكم لحضرتنا الشريفة، بعد إعلامكم بها طوقنا الله تعالى به من القيام بأمور المسلمين لاتفاقهم على عقد بيعتنا المؤسسة على الأسوس الشرعية. وعليه فلتعجل بالقدوم علينا بالسلامة والعافية. ونسألك صالح الدعاء بالإعانة والتوفيق، ونحن على عهد المحبة فوق ما تعهد إن شاء الله، والسلام. في 11 رجب الحرام عام 1325هـ.



الرسالة التي أمر فيها السلطان عبد الحفيظ ماء العينين بالبيعة له

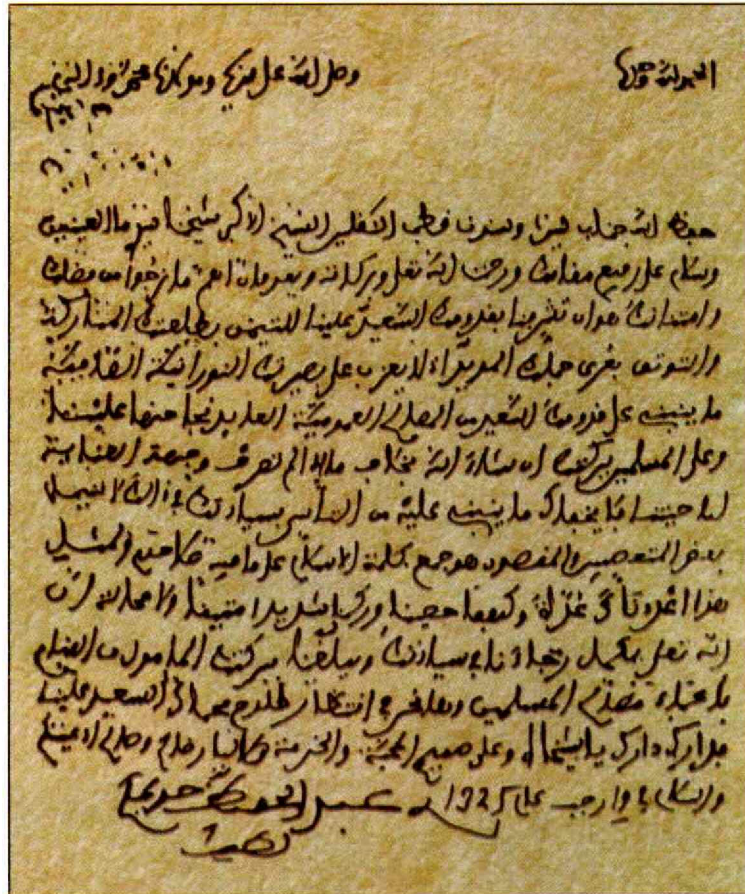
2- رسالة السلطان عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين

يطلب منه بالقدوم عليه لجمع شمل الصحراويين وما فيه صلاحهم والوقوف ضد بعض المتعصين منهم.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله

حفظ الله جناب سيدنا وسندنا، قطب الثقلين، الشيخ الأكبر شيخنا سيدي ماء العينين، وسلام على رفيع مقامك، ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد، فإن أهم ما نرجو من فضلك وامتنانك، هو أن تشرفنا بقدومك السعيد علينا للتيمن بطلعتك المباركة، والتوثق بعري حبلك المديد. إذ لا يعزب على بصيرتك النورانية الصافية ما ينبي على قدومك السعيد من المصالح العمومية العائد نجاحها علينا وعلى المسلمين، ببركتك إن شاء الله. بخلاف ما إذا لم تصرف وجهة العناية لناحيتنا، فلا يخفاك ما ينبي عليه من التأسّي بسيادتك في ذلك، لاسيما بعض المتعصين. والمقصود هو جمع كلمة الإسلام على ما فيه صلاحهم، ولمثل هذا أعددناك عدة وكهفا حصينا وركنا شديدا متينا. ولا محالة أن الله تعالى يكمل رجاءنا في سيادتك، ويبلغنا ببركتك المأمول من القيام بأعباء مظالم المسلمين. وها نحن في انتظار طلوع محياك السعيد علينا. فدارك دارك يا شيخاه. وعلى صميم المحبة والخدمة، طالبا رضاكم وصالح أدعيتكم، والسلام. في 19 رجب عام 1325هـ.

عبد الحفيظ خديمكم لطف الله به.



رسالة السلطان عبد الحفيظ إلى الشيخ ماء العينين يدعو فيه بجمع كلمة الصحراويين

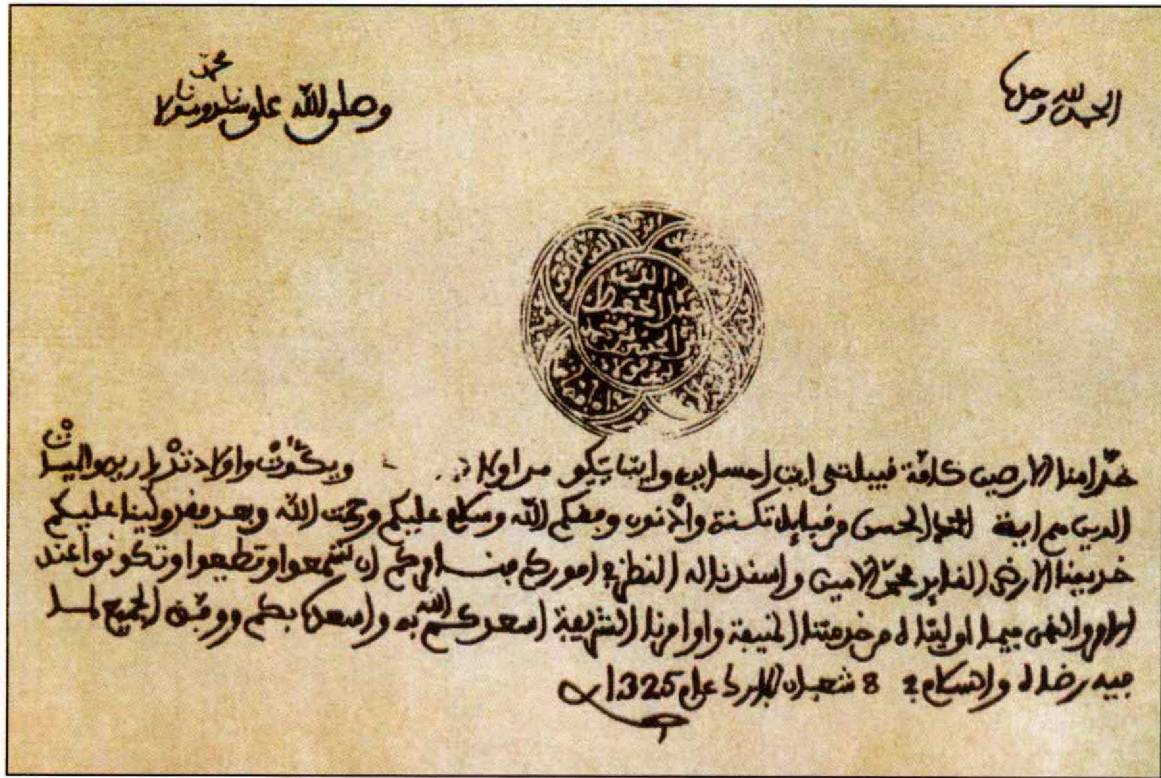
3- ظهر السلطان عبد الحفيظ يولي فيه القائد محمد الأمين على بعض القبائل الصحراوية منها قبيلة آيت احساين وآيت يكو وغيرهما

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

خدامنا الأرضين كافة قبيلتي آيت احساين وآيت يكو من أولاد [...] ¹⁵ ويكوت وأولاد تدرارين والميسات الذين هم آيت اد الحسن من قبائل تكنة واد نون، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله. وبعد فقد ولينا عليكم خديمنا الأرضي القائد محمد الأمين، وأسندنا له النظر في أموركم، فنأمركم أن تسمعوا وتطيعوا وتكونوا عند الأمر والنهي فيما أوليناه من خدمتنا المنيفة، وأوامرنا الشريفة. أسعدكم الله به وأسعده بكم، ووفق الجميع لما فيه رضاه، والسلام.

في 8 شعبان الأبرك عام 1325هـ.

15 - ما بين معقوفين بياض في الأصل قدر كلمة.

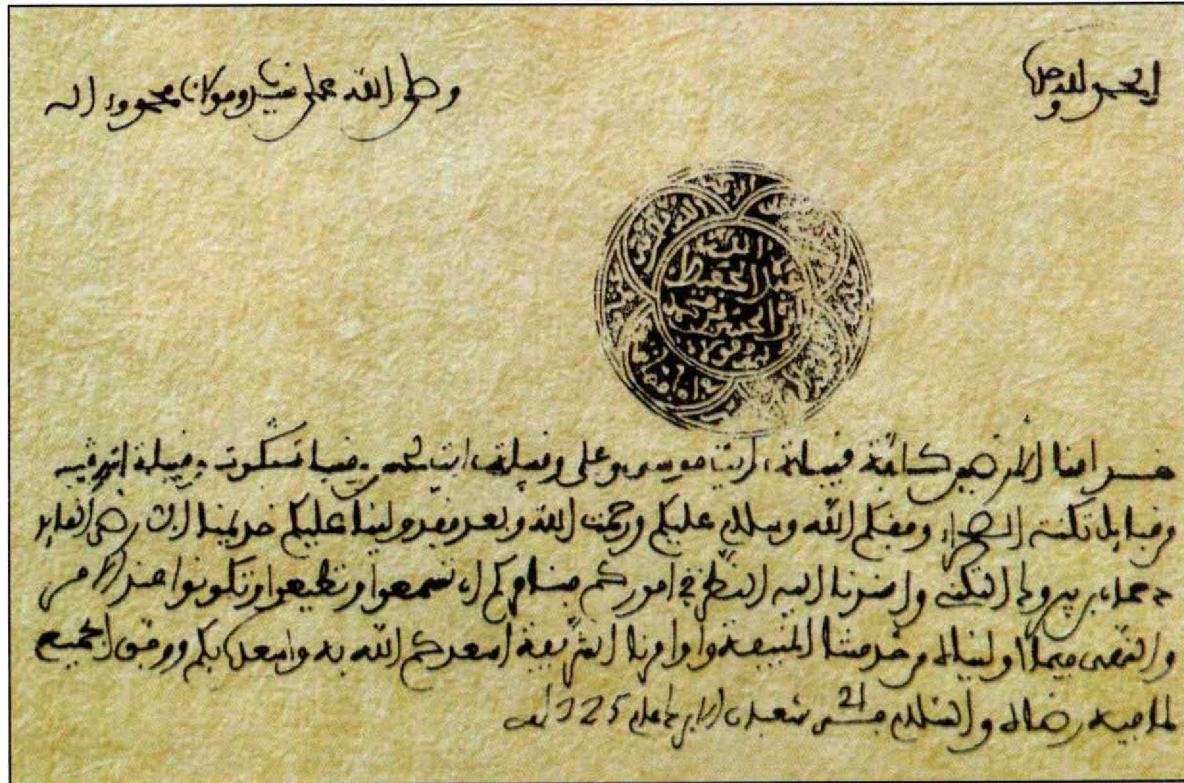


ظهير السلطان عبد الحفيظ يولي فيه القائد محمد الأمين على بعض القبائل الصحراوية
منها قبيلة آيت احساين وآيت يكو وغيرهما

4- ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ في تولية دحمان بن بيروك التكني قائدا على بعض القبائل
الصحراوية بعد البيعة وأمرهم بالسمع والطاعة لقائدهم

خدامنا الأرضين كافة قبيلة آيت موسى وعلي، وقبيلة آيت لحسن، وقبيلة يكو، وقبيلة
إزركيين، من قبائل تكنة الصحراء. وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله. وبعد، فقد ولينا
عليكم خديمنا الأرضي، القائد دحمان بن بيروك التكني، وأسندنا إليه النظر في أموركم، فنأمركم أن
تسمعوا و تطيعوا و تكونوا عند الأمر والنهي فيما أولينا من خدمتنا المنيفة وأوامرنا الشريفة. أسعدكم
الله به وأسعدكم بكم، ووفق الجميع لما فيه رضاه، والسلام.

في 21 شعبان الأبرك عام 1325 هـ.

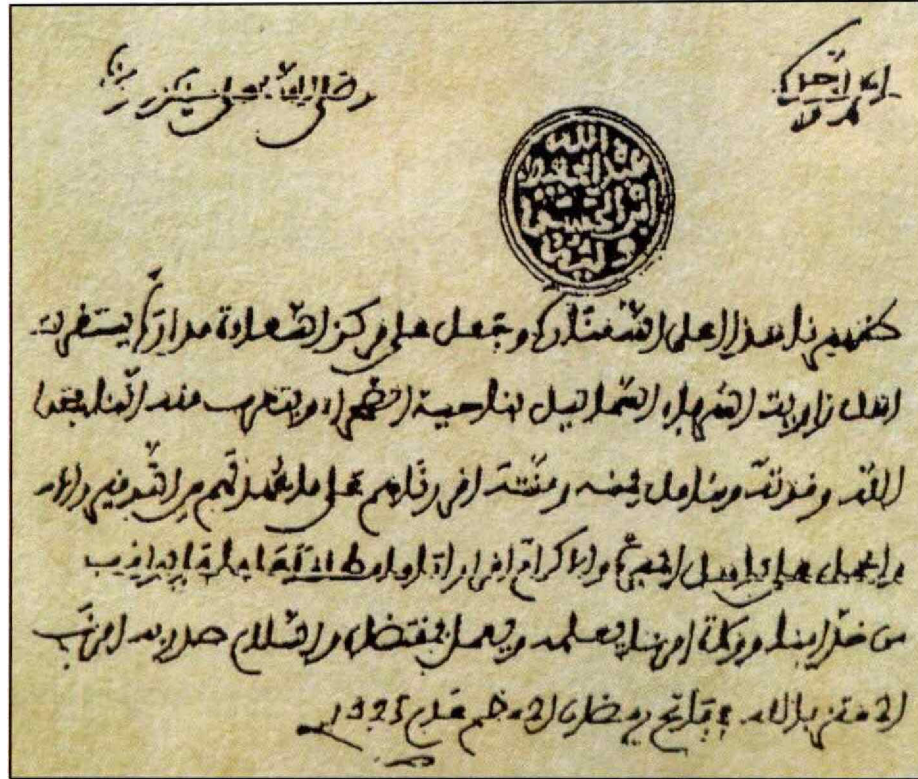


ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ في تولية دحمان بن بيروك التكني قائدا على بعض القبائل
الصحراوية بعد البيعة وأمرهم بالسمع والطاعة لقائدهم

5- ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ يقر فيه على ما عهد من التوقير والاحترام لزواوية
الشرفاء السماليل بناحية الصحراء

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد

ظهيرنا هذا أعلى الله مناره، وجعل على مركز السعادة مداره، يستقر بيد أهل زاوية الشرفاء
السماليل بناحية الصحراء. ويتعرف منه أننا بحول الله وقوته، وشامل يمنه ومنتته، أقررناهم على ما
عهد لهم من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، إقرارا تاما مطلقا عاما. وعلى
الواقف عليه من خدامنا وولاة أمرنا، يعلمه ويعمل بمقتضاه، والسلام. صدر به أمرنا المعتر بالله
في فاتح رمضان المعظم عام 1325 هـ.

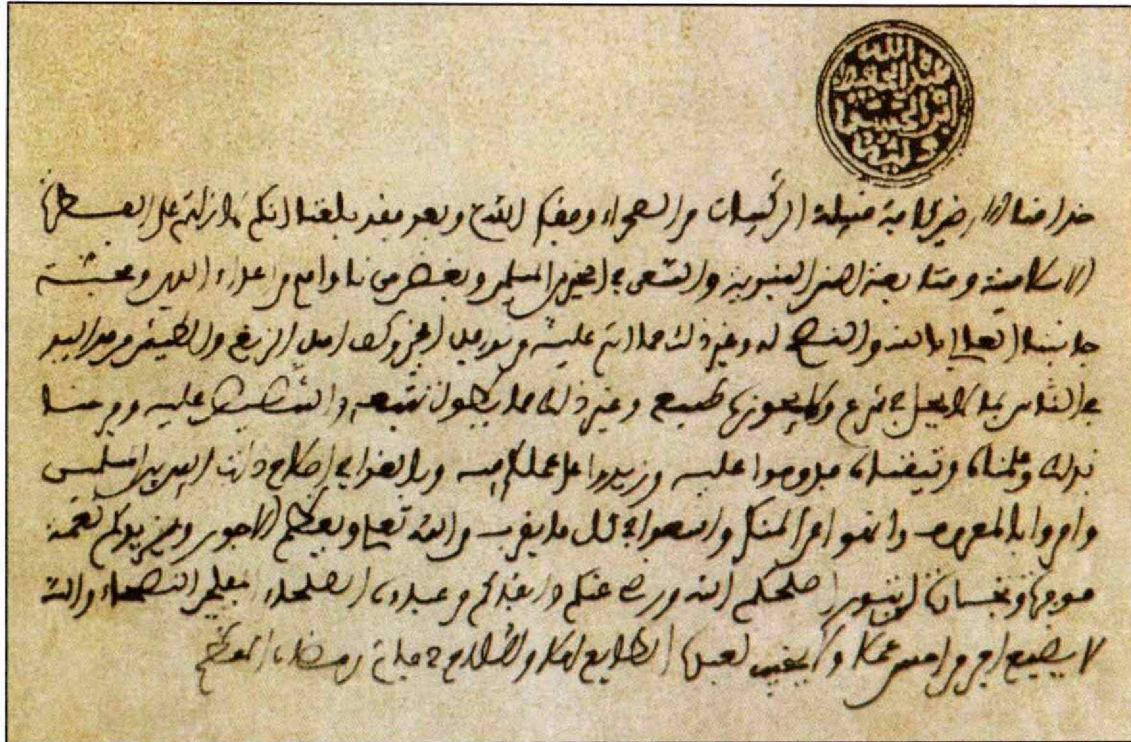


ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ يقر فيه على ما عهد من التوقير والاحترام
لزاوية الشرفاء السماليل بناحية الصحراء

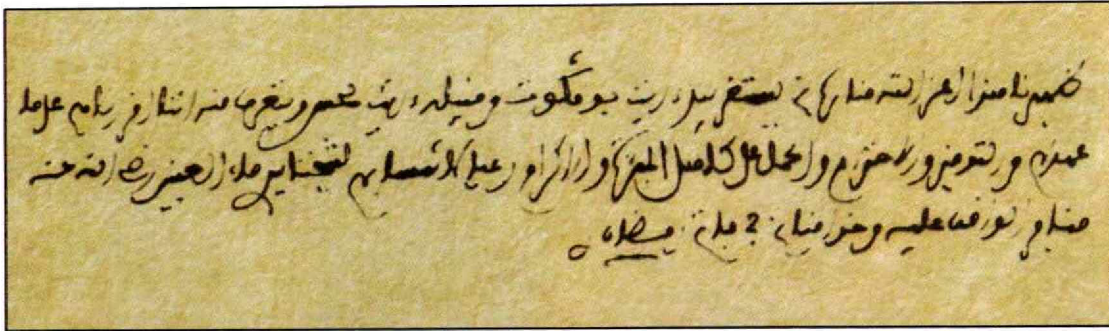
6- رسالة السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى قبيلة الركيات

ينوه فيها بأعمالهم الحميدة الصادرة فيما بينهم في إصلاح ذات البين بين المسلمين ويأمرهم
بالمعروف والنهي عن المنكر

خدامنا الأرضين كافة قبيلة الركيات من الصحراء. وفقكم الله، وبعد. فقد بلغنا أنكم
لازتم على الفطرة الإسلامية، ومتابعة السنن النبوية، والسعي في الخير بين المسلمين، وبغض من
ناوهم من أعداء الدين، ومحبة جانبنا العالي بالله والنصح له، وغير ذلك مما أنتم عليه من نوافل
الخير، وكف أهل الزيغ والطيش ممن مد اليد في الناس بما لا يحل في شرع ولا يجوز طبع، وغير ذلك
مما يطول تتبعه والتنصيص عليه. وفرحنا بذلك وعلمناه وتيقناه. فدوموا عليه وزيدوا على عملكم
فيه. وبالغوا في إصلاح ذات البين بين المسلمين، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، واسعوا في كل
ما يقرب من الله تعالى ويعظم الأجور، ويزيدكم نعمة موفرة وتجارة لن تبور. أصلحكم الله
ورضي عنكم وأبقاكم من عباده الصالحاء المفلحين النصحاء. والله لا يضيع أجر من أحسن عملا،
ولا يخيب لعبده الطائع أملا، والسلام. في فاتح رمضان المعظم. 1325هـ، أي موافق 8 أكتوبر 1907م.



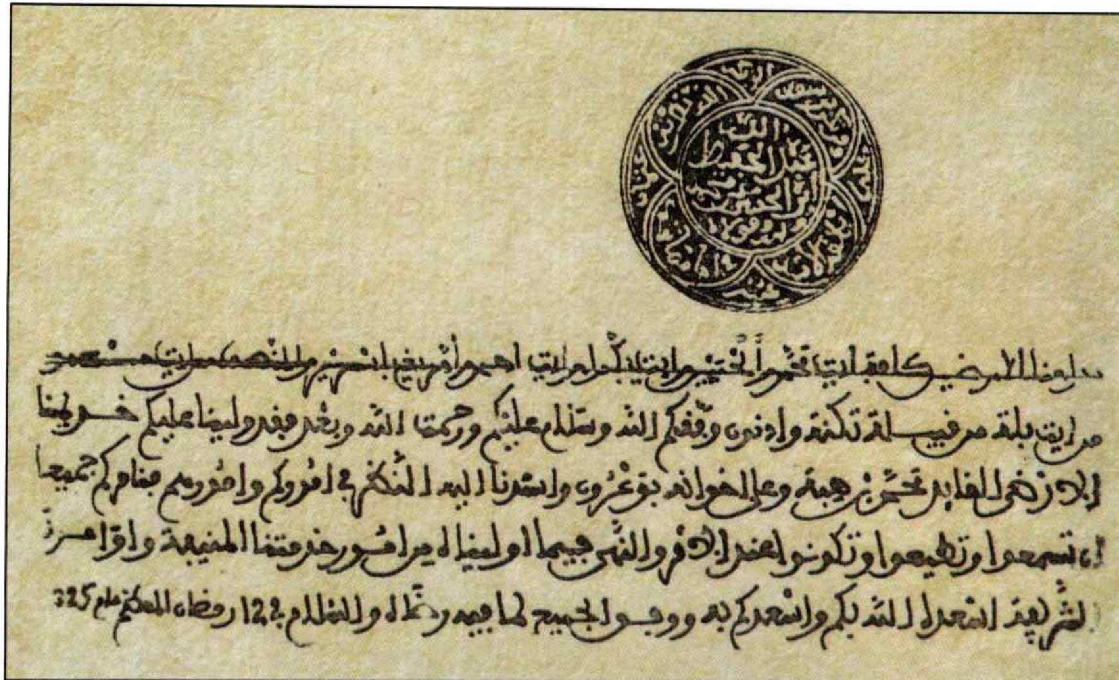
- 7- ظهير السلطان مولاي عبد الحفيظ وإقرار ما فيه من التوقير والاحترام لقبيلة آيت بومكوت
ظهيرنا هذا أعز الله مناره، إلخ. يستقر بيد آيت بومكوت آيت لحسن، ويتعرف منه أننا
أقررناهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام، والحمل على كاهل المبرة والإكرام، رعيًا لانتسابهم
لشيخنا سيدي ماء العينين رضي الله عنه. فنأمر الواقف عليه من خدامنا إلخ في فاتح رمضان. أي
1325هـ / 8 أكتوبر 1907.



ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ وإقرار ما فيه من التوقير والاحترام لقبيلة آيت بومكوت

8- ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ يولي فيه القائد محمد بن هبة على بعض قبائل الصحراء

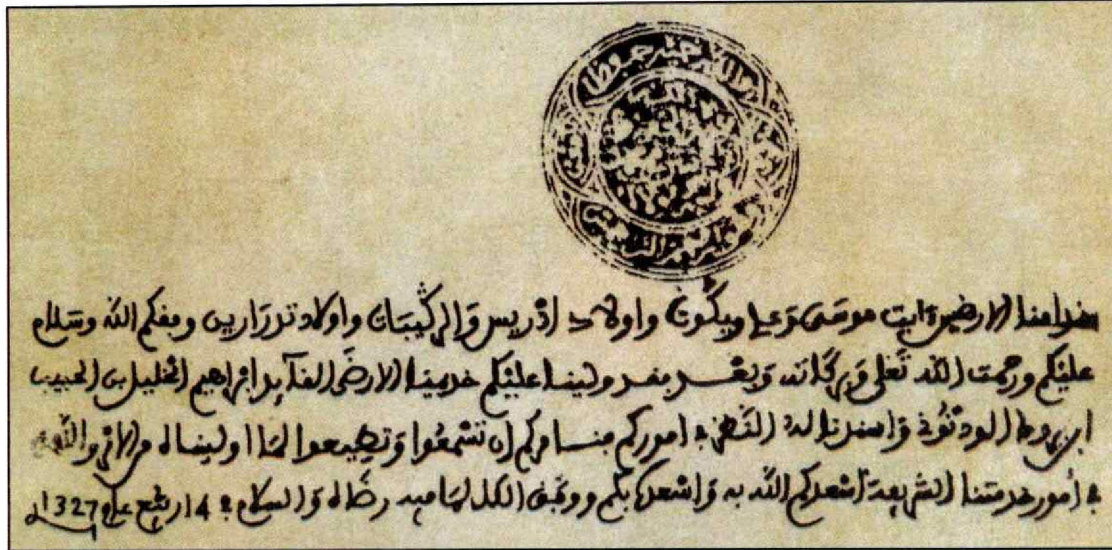
خدامنا الأرضين كافة آيت محمد والحين وآيت بكرا وآيت أحمد وأمريغ بأسرير والنصف من آيت مسعود من آيت بلة من قبيلة تكنة وادنون وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله وبعد، فقد ولينا عليكم خديمنا الأرضي القائد محمد بن هبة وعلى إخوانه بوعرون، وأسندنا إليه النظر في أموركم وأمورهم. فنأمركم جميعاً أن تسمعوا وتطيعوا، وتكونوا عند الأمر والنهي فيما أوليناه من أمور خدمتنا المنيفة وأوامرنا الشريفة. أسعده الله بكم وأسعدكم به، ووفق الجميع لما فيه رضاه، والسلام. في 12 رمضان المعظم عام 1325هـ.



9- ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ يولي فيه القائد إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الودنوني واليا على بعض القبائل الصحراوية

خدامنا الأرضين آيت موسى وعلي ويكوت وأولاد إدريس والركيبات وأولاد تدرارين. وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد، فقد ولينا عليكم خديمتنا الأرضي القائد إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الودنوني، وأسندنا له النظر في أموركم. فنأمركم أن تسمعوا وتطيعوا لما أوليناه من الأمر والنهي في أمور خدمتنا الشريفة. أسعدكم الله به وأسعده بكم، ووفق الكل لما فيه رضاه، والسلام.

في 14 ربيع الثاني عام 1327.



ظهر السلطان مولاي عبد الحفيظ يولي فيه القائد إبراهيم الخليل بن الحبيب بن بيروك الودنوني واليا على بعض القبائل الصحراوية.

10- رسالة الشيخ أحمد الهيبة بن ماء العينين إلى الفقيه السيد محمد بن عبد الله بن القاضي يعلمه فيها بالقدوم عليه بمدينة تنزيت للمفاوضة مع جمع من الفقهاء في شأن الأجانب الطامعين في الصحراء المغربية في عهد الحكومة الحفيظية

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده

ابننا الأبر الأنور الأطهر الأشهر الأسمى الفقيه النبيه النزيه السيد محمد بن عبد الله بن القاضي، أمنك الله، وعليك سلام عام تام ورحمة الله تعالى وبركاته، ما دام الكون وحركاته وسكناته. فموجه إليك إعلامك أننا أردنا منك القدوم علينا بتنزيت في اثنين وعشرين من تاريخه، للمفاوضة مع جمع من الفقهاء المعتبرين مثلك، في شأن الأجانب الملاحين. ونرجو من الله أن يفرج عن هذه النواحي ببركة جمعكم في شأن عدو الدين الذي يريد الاستيلاء عليها، جازاكم الله عنا بأحسن الجزاء وكمل علينا وعليكم جميع النعماء بالتمام، وعلى المحبة والسلام. في 12 من شوال عام 1329هـ.

أحمد الهيبة بن شيخه الشيخ ماء العينين

كان الله لهما ولأحبتهم آمين

الحمد لله وحده
وصلّى الله على محمد وآله

أبنتنا (المراد بالافعال) التي لا تقهر الا بقهر الله تعالى
الشرية السيد محمد عبد الله بن الفاضل اعظمه وعلوه
الله عليه السلام على كل عالم ورحمة الله تعالى وبركاته
ما دام الكون وحركته وسكناته فهو حجب اليك اعلامك
انما اريدنا منكم الغفران مع عليهما تيسير نيتنا في اتيانهم
من كل جهة المبرورة مع جمع من الوجوه والاحياء
مثلكم بمقتضى (المراد بالافعال) الملائكة والجن
ان يخرج عن هذه النواحي ببركة جمعكم في شأن
عدم قرأتهم في التوراة ولا في كتابها جازا الى الله
عنه بل خدموا ابيه وكلوا على يده وعلينا عليكم جميع العباد
بل ينتمون على المعجزة والاعمال في ارضي شرفه على
احسن الوجوه شيخ الشيخ صالح العيني
كان الله له سكر ولا حشمة له ادين

روابط البيعة الشرعية بين أهل الصحراء وسلاطين وملوك الدولة العلوية

ذ. عبد القادر سعود
الرابطة المحمدية للعلماء،
الرباط

كثيرة هي الأقلام التي تناولت موضوع البيعة وروابطها الشرعية بين الحكام والمحكومين، وكثير ما كتب أيضا حول علاقة أهل الصحراء بحكام الدولة المغربية بصفة عامة، وسلاطين وملوك الدولة العلوية، على وجه الخصوص. وعلى الرغم من هذا التراكم المتعلق بالكتابة في هذا الموضوع، الذي يمتح الباحثون فيه من الجذور التاريخية، فإن الجديد فيما كتب وما يكتب، هو التذكير والتأكيد على مصداقية الوثائق التاريخية التي تثبت إجماع العلماء والمؤرخين (مغاربة وغير مغاربة) على اعتماد نظام البيعة في الدولة المغربية، وعلى الروابط التاريخية المتينة التي تربط ملوك المغرب برعاياهم في المناطق الصحراوية، ومن هنا يبقى هذا الموضوع قابلا لأن يتناول، في كل وقت وحين، لصقل هذه الحقيقة التاريخية حتى تبقى دائما ساطعة في أعين من يريدون رميها بغبار الظن والتكذيب.

ولهذا، فإن تعميق البحث عن روابط البيعة الشرعية بين أهالي الصحراء وملوك الدولة العلوية أمر يرقى إلى رتبة الوجوب؛ لأنه يؤكد حقيقة تاريخية ظلت راسخة، وما تزال تعرف امتداد تواصلها وارتباطها إلى يومنا هذا. وقبل الحديث عن هذه البيعة وما يترتب عنها من ترابط متين بين أهل الصحراء وحكام الدولة العلوية الشريفة، لا بد، أولا، من الحديث عن البيعة ومفهومها في المعاجم اللغوية، وفي بعض كتب المذهب المالكي، وذلك للوقوف على مشروعيتها المستمدة من الوحي الإلهي والسنة النبوية الشريفة، ثم لا بد أيضا من التأصيل لهذه العلاقة بالبحث عن الجذور التاريخية التي تثبت الترابط الوثيق بين أهل الصحراء وملوك الدول التي تعاقبت على حكم بلاد

المغرب، لأخلص إلى الحديث عن امتداد نظام البيعة في المغرب مع ظهور الدولة العلوية وعلاقة السلطين والملوك العلويين برعاياهم في الصحراء.

1- البيعة في معاجم اللغة، وبعض كتب المذهب المالكي

أجمع اللغويون على أن البيعة في جذرها الثلاثي (ب ي ع)، هي المبايعة والطاعة¹، وتأتي بمعنى التولية وعقدها²، وهي بمنزلة العهد، يقال: بايعوه بالخلافة، وبويع له بالخلافة، إذا عاهدوه عليها، فهي عهد بين المبايع والمبايع، وفي هذا يقول ابن خلدون: "اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره"³.

وفي مواهب الجليل في شرح مختصر خليل يقول أبو عبد الله الخطاب الرعيني: "البيعة مأخوذة من البيع، وذلك أن المبايع للإمام يلزمه أن يقيه بنفسه وماله، فكأنه بذل نفسه وماله لله تعالى، وقد وعد الله تعالى على ذلك بالجنة، فكأنه حصلت معاوضة، ثم هي واجبة على كل مسلم لقوله - صلى الله عليه وسلم - "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"⁴.

وقال الشيخ عبد الحي الكتاني، نقلا عن ابن الأثير: "البيعة شبيهة بالبيع الحقيقي، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره، والأصل في ذلك أنه كان من عادة العرب، إذا تباع اثنا صفق أحدهما بيده على يد صاحبه"⁵.

وقد اتفق فقهاء المالكية على أنه لا يلزم في البيعة حضور جميع شرائع المجتمع، ويكفي في ذلك حضور أهل الحل والعقد، وفي ذلك يقول المازري: "يكفي في بيعة الإمام أن يقع من أهل الحل والعقد، ولا يجب الاستيعاب، ولا يلزم كل أحد أن يحضر عنده ويضع يده في يده، بل يكفي التزام طاعته، والانقياد له بأن لا يخالفه ولا يشق العصا عليه"⁶، ويؤكد النووي ذلك بقوله: "أما البيعة؛

1 - لسان العرب: بيع.

2 - القاموس المحيط: بيع.

3 - تاريخ ابن خلدون: 1: 262.

4 - الرعيني، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (6/ 278)، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، باب الأمر بلزوم الجماعة، حديث رقم: 1851.

5 - الكتاني، التراتيب الإدارية: 1: 221-223.

6 - المعلم بقوائد مسلم (3/ 21-22)، ونقله عنه ابن حجر في فتح الباري 7: 494.

فقد اتفق العلماء على أنه لا يشترط لصحتها مبايعة كل الناس، ولا كل أهل الحل والعقد، وإنما يشترط مبايعة من تيسر إجماعهم من العلماء والرؤساء ووجوه الناس⁷ . . . ولا يجب على كل واحد أن يأتي إلى الإمام فيضع يده في يده ويبايعه، وإنما يلزمه الانقياد له⁸. وقد كانت البيعة في أول أمرها شفوية، ثم تحربت الذمم، وتنوعت المصالح، وانحطت الأخلاق، فتطورت من الشفوية إلى الكتابة ووضع الأيمان المشددة حتى لا يتراجع المبايع⁹.

من هذا المفهوم اللغوي وهذا الاصطلاح الإسلامي، تبقى البيعة نظاما فريدا في الحضارة الإسلامية على مدى العصور والأزمان، فهي الطريقة الشرعية الوحيدة لاختيار حاكم أو سلطان يتولى أمر الأمة¹⁰. كما تبقى الدولة المغربية، عبر تاريخها العريق، من الدول التي انفردت باعتماد نظام البيعة المكتوبة في علاقة سلاطينها برعاياهم على امتداد حدودها، بما فيهم أهل المناطق الصحراوية في أقصى الجنوب.

2- بيعة أهل الصحراء لسلاطين الدولة المغربية عبر التاريخ

يعتمد قيام الدولة، في التاريخ الإسلامي، على نظام البيعة الشرعية، التي نزل بها القرآن الكريم في آيات كثيرة منها قوله تعالى: «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا»¹¹. وقوله عز وجل: «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما»¹². كما أكدت السنة النبوية الشريفة في مجموعة من الأحاديث منها قوله صلى الله عليه وسلم: من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية¹³. ولذلك نجد كل الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب تعتمد هذا النظام، وتجعله أساسا في اختيار سلاطينها وملوكها، طبقا لشروط البيعة التي تتوطد بها الروابط بين الحكام والمحكومين. لقد شهدت كتب التاريخ على اعتماد

7 - الخاصة التي تؤخذ منها البيعة، وبيعتهم تعقد الخلافة أو الملك ساهم الماوردي في الأحكام السلطانية (ص: 6، 7): أهل الحل والعقد. وساهم أبو يعلى الفراء في كتابه: الأحكام السلطانية (ص: 5، 6): "أهل الاختيار". وساهم عبد القاهر البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق (ص: 211): أهل الاجتهاد والعدالة.

8 - شرح النووي على مسلم، باب حكم الفيء ج 12: 77.

9 - حسن العمراني، المغرب السياسي: 283.

10 - محمود الخالدي، البيعة في الفكر السياسي الإسلامي: 31.

11 - سورة الفتح، الآية: 18.

12 - سورة الفتح، الآية: 10.

13 - أخرجه مسلم في صحيحه، باب الأمر بلزوم الجماعة، حديث رقم: 1851.

نظام البيعة بالمغرب منذ قيام الدولة الإدريسية سنة 172هـ/788م، بمجيء المولى إدريس الأول من المشرق، حيث بايعته قبائل أوربة بيعة إسلامية شرعية اختيارية، على أن يكون هو قائد أمرها الشرعي، للحد من التناحرات التي كانت كثيرا ما تتلظى نارها بين القبائل من أجل السلطة، ولذلك أخذت القبائل تدخل تحت لوائه، مبايعة، الواحدة تلو الأخرى، مما مكن للدولة الإدريسية أسسا متينة، استطاعت أن تحافظ بها على بقائها حتى بعد وفاة إدريس الأول، وامتداد نفوذها مع ابنه إدريس الثاني وأبنائه¹⁴، الذين كان نزوح سلالاتهم من شمال المغرب إلى المناطق الصحراوية، وخاصة منطقة الساقية الحمراء¹⁵، ويستخلص من كلام المختار بن حامدون، في كتابه "حياة مريتانيا الثقافية"، أن ثمانى رحائل من العائلات الإدريسية قد حطت بمنطقة الساقية الحمراء منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري¹⁶، وهذا يدل على الانتماء العريق الذي سجله التاريخ بين أهل الصحراء والدولة المغربية. ثم إن الدول، التي جاءت بعد الدولة الإدريسية، كلها انبثقت من أسر وقبائل كانت تعتمد في نظامها على مبايعة أحد أفرادها ليكون سلطان أمرها، باتفاق أهل الحل والعقد من علمائها وكبراء أعيانها. فالقبائل الصحراوية الصنهاجية (لمتونة، جدالة، مسوفة،...) ¹⁷ بايعت يحيى بن إبراهيم الجدالي ليكون رئيسا لها، وقائدا لحروبها مع أعدائها، ومن هذه القبائل انبثقت النواة الأولى للدولة المرابطية، بعد ما حل فيهم الفقيه عبد الله بن ياسين، الذي بعث إليهم من طرف وجاج بن زلو اللمطي، ليحمل راية الجهاد على رأس جيش من أبناء هذه القبائل، وذلك لطرده الوثنية التي كانت منتشرة آنذاك في أرجاء الصحراء. وبعد يحيى بن إبراهيم بويح يحيى بن عمر، ثم أبو بكر بن عمر، ثم يوسف بن تاشفين، ثم علي بن يوسف، ثم تاشفين بن علي¹⁸، إلى أن ظهرت الدولة الموحدية بمبايعة أهل تينمل للمهدي بن تومرت¹⁹، لتستمر مع من جاء بعده من الخلفاء، يقول المراكشي في حديثه عن بيعة أبي يعقوب يوسف الموحي: "وبويح البيعة الخاصة يوم الخميس، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقراة، وفي يوم السبت أذن للناس عامة . شهدت ذلك اليوم

14 - الكلام عن بيعة إدريس الأول والثاني في روض القرطاس لابن أبي زرع: 15- 21.

15 - حمداتي شبيها ماء العينين، قبائل الصحراء المغربية، أصولها، جهادها، ثقافتها، ص 13.

16 - نفسه.

17 - لا يختلف المؤرخون حول انتماء القبائل الصنهاجية إلى بني معقل، بل يتفقون على تداخل بعض القبائل في بعض وانصهار العادات والتقاليد والأعراف بعضها في بعض، مما أعطى نسيجا اجتماعيا استحدث أنماطا من الاندماجية ذابت فيها السلالات المختلفة. انظر قبائل الصحراء المغربية ص 77.

18 - الأنيس المطرب، م س : 115- 122.

19 - نفسه: 170.

وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم يقول للناس : تباعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول الله من السمع والطاعة في المنشط والمكره واليسر والعسر، والنصح له ولولايته ولعامة المسلمين²⁰.

هكذا ظلت الدول تتعاقب على حكم بلاد المغرب، يأتي اللاحق منها على أنقاض السابق، وكلها كان نظام البيعة فيها ساري المفعول، وسائرا بين أهالي رعيتهما على حد نفوذها، الذي وصل إلى حدود نهر السنغال، إذ كانت الطرق الصحراوية التجارية آمنة، وذات محطات وموارد مائية على طول مسارها، "فكانت الطعينة، على عهد الموحدين، تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى برقة وحدها لا ترى من يعرض لها، ولا من يسومها بسوء"²¹. وهكذا ظل أهل المناطق الصحراوية يعتمد عليهم في صد التسلل الأجنبي، الذي كان يسعى إلى زعزعة الأمن بين السكان، وبث روح التفرقة بين القبائل، خاصة في بداية العهد السعودي، حيث بايعت القبائل الصحراوية الشيخ محمد بن عبد الرحمن، جد السعديين، على أن تبقى صامدة في وجه البرتغاليين الذين كانوا يتحينون فرصة التوغل في السواحل الجنوبية²². كما كان نواب سلاطين المغرب، من أهل المناطق الصحراوية، يعملون على تأمين الطرق، وتوفير الموارد المائية للقوافل التجارية على طول المسار الصحراوي إلى حدود بلاد توات. وتشهد الرحلات الحجية على أن ركب الحاج المغربي في العهد السعودي، كان يمر من الطريق الصحراوي، انطلاقا من مراكش إلى بيت الله الحرام، فكان الحجاج يقطعون مفاوز الصحراء في أمن وأمان، وينزلون في المحطات والنزالات تحت رعاية نواب السلطان السعودي، يقول ابن مليح القيسي في رحلته: "وقد وافينا بهذا الموضع سرية عظيمة جاءت من أرض الصحراء، قصدت الساقية الحمراء، لنهب إبل المرباط سيدي علي نجل المرباط سيدي أحمد بن موسى، نفع الله به، فلم يظفروا بشيء منها وانقلبوا خائبيين، واتقيت الطريق لأجل ذلك، فلم تتم الأيام المذكورة حتى وفد علينا وفد الجراوة كنا بعثنا لهم لملاقاتنا، فالتقينا بهم بخنك وادي الساورة، وكان قد ركب معنا القائد عافة المذكور مع إخوته حتى التقينا بالوفد المذكور بالموضع المذكور فرجع القائد عافة المذكور عنا"²³.

20 - الأنيس المطرب: 170

21 - المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب: 238.

22 - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعودية: 38 بتصرف.

23 - ابن مليح القيسي، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب وسيد الأعاجم والأعارب، وهي رحلة انطلق ركب الحاج فيها من مراكش على طريق الصحراء، قاصدا بيت الله الحرام، وذلك عام 1040هـ. انظر الصفحة 153 منها.

إن انتشار هؤلاء القادة في المناطق الصحراوية، وخضوعهم للسلطة المركزية، يدل على أن أهل الصحراء كانوا، منذ زمن بعيد، مقلدين بالبيعة لسلاطين الدولة المغربية، وخاضعين لحكمهم، مختارين العيش تحت نفوذهم. وقد استمرت هذه الروابط المتينة وهذه العلاقة الوطيدة إلى أن ظهرت الدولة العلوية الشريفة بمبايعة أهل سجلماسة للمولى أحمد بن الشريف سنة 1050هـ/1640م²⁴، والذي اتسع نفوذ دولته شرقا وجنوبا، حيث اتجه إلى بلاد سوس وصحرائه، لأخذ البيعة وربط الاتصال بالقبائل الصحراوية، مما فتح المجال ومهد الطريق لكل من جاء بعده من السلاطين والملوك، للاتجاه نحو الصحراء لتوطيد روابط البيعة الشرعية التاريخية التي ظل الصحراويون معترفين بتقلدهم إياها، ومصدقين بما تفرضه من طاعة وولاء لملوك الدولة العلوية، تشهد بذلك الظواهر السلطانية التي كان السلاطين يوقعونها تزكية منهم لبعض العائلات أو بعض العلماء الصحراويين، كما تشهد بذلك أيضا الرسائل المتبادلة بين السلاطين وأعيان القبائل الصحراوية²⁵. من هنا يمكن أن تنتقل إلى الحديث عن علاقة أهل الصحراء بحكام الدولة العلوية.

3- نفوذ الدولة العلوية وبيعة أهالي الصحراء

انطلاقا من هذا التواصل المستمر، الذي شهد التاريخ على امتداده بين أهل الصحراء وسلاطين الدولة المغربية، يتأكد، لمن يروم البحث في تاريخ العلاقة بين أهل الصحراء وملوك الدولة العلوية، أن هذه العلاقة تنبني على أسس ثابتة وعريقة، وتستند على مرجعية إسلامية راسخة لدى أجيال المجتمع المغربي لاحقا عن سابق، ولا ينكرها جاحد بعلم التاريخ، فضلا عما له اطلاع واسع على ما سطرته أقلام المؤرخين والعلماء في موضوع الحدود الجغرافية التي امتد فيها نفوذ الدولة العلوية على عهد المولى إسماعيل ومن جاء بعده من السلاطين، فباستقراء هذه الكتابات التاريخية، من وثائق وكتب مصدرية، تتضح سيادة الدولة العلوية على الأقاليم الصحراوية، بناء على بيعة علماء وأعيان وقواد هذه الأقاليم للسلاطين العلويين، فمهما فرق الزمن، ومهما حاول من يحاول التفرقة بين أبناء الوطن، فإن الروابط التاريخية تبقى شاهدة على ولاء أبناء أهل الصحراء وأجدادهم لجميع السلاطين والملوك العلويين²⁶.

فلما تولى السلطان المولى إسماعيل أمر البلاد بعد وفاة أخيه المولى الرشيد، عقد العزم سنة 1089هـ/1678م على الرحلة إلى الصحراء في حركة سلطانية دامت شهرين، وذلك لتفقد الرعية هناك،

24 - عبد الرحمن ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال مدينة مكناس، 3: 129 وما بعدها.

25 - بهيجة سيمو، البيعة ميثاق مستمر بين الملك والشعب.

26 - الحسين بوزينب، مجلة مناهل عدد 49 ص 43.

فبايعته القبائل الصحراوية كأولاد دليم وبربوش وأولاد جرار وأولاد مطاع وقبيلة المغافرة التي ربطته بها رابطة المصاهرة، حيث عقد على إحدى بنات أحد أعيانها، وهي السيدة العالمة خنثة بنت بكار المغافرية، مما جعل علاقته بأهل الصحراء تزداد ارتباطاً، لتصل إلى درجة تنصيب الأعيان من أهلها قياداً لمراقبة التحرك الأجنبي، يقول الدكتور حمداتي: "وما زال سكان الصحراء يتناقلون خبر القواد الذين عينهم بالصحراء السلطان الجليل مولاي إسماعيل ليراقبوا أي تحرك أجنبي..."²⁷ كما كان له ولأبنائه اهتمام خاص بعلماء الصحراء؛ لأنهم كانوا دعاة لوحدة الكلمة، وروابط وصل بين جنوب البلاد وشماله، وعمالاً لتوطيد دعائم البيعة في تخوم الصحراء عبر الزوايا، ولذلك كان حضور العالم الصحراوي في البلاط السلطاني مميزاً وواضحاً²⁸. وقد أكد الناصري، في كتابه الاستقصا²⁹، استمرار هذه العلاقة، حتى بعد وفاة المولى إسماعيل، حيث نزل ابنه المولى عبد الله على أخواله المغافرة، وأقام عندهم ثلاث سنين، مما يدل على اطمئنانه لولاء أهل هذه القبائل وخضوعهم لسلطانه. ثم إن السلطان سيدي محمد بن عبد الله لما تولى الحكم زار المناطق الصحراوية سنة 1186هـ/1755م وعين قائداً من أبنائها، وهو القائد "المحجوب بن قايد"³⁰. وتعيين السلطان لمن يمثله، من القواد والعمال في الأقاليم الجنوبية، يدل دلالة واضحة على رسوخ أواصر البيعة والولاء بينه وبين هذه القبائل.

ويحتفظ لنا الضعيف الرباطي، في تاريخه، بأطوار الحركة التفقدية التي نظمها السلطان المولى سليمان إلى المناطق الصحراوية، حيث يقول: وفي عام 1222هـ³¹ أراد السلطان النهوض لناحية مراكش ثم لناحية سوس الأقصى، فخرج نصره الله من مكناسة الزيتون، وذلك يوم السبت 11 محرم من العام المذكور (...) مسيرة 19 يوماً في الصحراء ... من كلميم لزواوية آسة 11 يوماً، ومن زواوية آسة للساقية الحمراء 8 أيام، وتبقى زواوية سيدي أحمد وموسى نفع الله به وهي تزروالت في الصحراء قبلة على يوم ونصف ... وبلغ السلطان لتزروالت وزار سيدي أحمد وموسى، ووصل السلطان لدار سيدي محمد نسكات فوجده قد مات، لأنه في حياته كان يقول لأهل سوس: إن

27 - حمداتي، م س ص: 190، ويشير في الهامش إلى أن بعض السلالات من قبيلة الزرقين لا زالت تحمل ظواهر علوية.

28 - حسن حميتو، الوحدة الترابية من خلال العلائق العلمية، مجلة مرآة التراث، العدد الرابع ص:، بتصرف 16.

29 - الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى 7: 137، بتصرف.

30 - نفسه 3/ 35.

31 - الموافق 1807م.

مولاي سليمان سلطان وباقي حتى يأتي لداري هذه ويجلس على هذه الدكانة؛ فكان الأمر كذلك لما وصل مولانا سليمان لداره جلس على تلك الدكانة...³².

ولا شك أن الضعيف، رحمه الله، من خلال تتبعه للمسار الصحراوي الذي قطعه هذه الحركة السلطانية، وذكره للمزارات التي وصل إليها المولى سليمان في قلب الصحراء، أراد أن يؤرخ للعلاقة التي كانت تربط أهل الصحراء بالسلطان، كما يمكن أن نقراً، من ذلك أيضاً، حرص السلاطين العلويين على تفقد رعاياهم في أقصى جنوب البلاد.

هكذا احتفظت كتب التاريخ المغربي لكل سلطان من السلاطين العلويين بما يميز علاقته بأهل الصحراء، كل حسب الوضعية السياسية التي كانت تعيشها البلاد، ففي بداية القرن التاسع ازدادت الأطماع الأجنبية في التوغل في السواحل الجنوبية، مما زاد أهل الصحراء تشبثاً بالعرش العلوي، معبرين عن ذلك بتقديم بيعتهم بواسطة علمائهم، أمثال ابن طوير الجنة³³ والمختار الكنتي الحفيد، اللذين بايعا السلطان عبد الرحمان بن هشام، نيابة عن أهل الصحراء، وإمام تيندوف وشيخها، أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكنتي، الذي ناب عن أهل جهته في تقديم البيعة للسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان. ويستمر السلطان مولاي الحسن في اتباع نهج أسلافه فيما يتعلق باهتمامه بالأقاليم الصحراوية، بل ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث رحل إلى هناك رحلتين، عين فيهما مجموعة من العمال، وأثناء رحلته الثانية أصدر ظهيرا شريفا بتكليف إبراهيم بن علي بن محمد التكني بحراسة الشواطئ المجاورة لقبيلته، وظل يتابع محاولات التسرب الاستعمارية³⁴.

ويظهر من خلال هذه المعلومات التاريخية أنه على الرغم من تعاقب السلاطين العلويين على الحكم، فإن نفوذ الدولة العلوية ظل ممتدا دائما في المناطق الصحراوية، كما كان أهل هذه المناطق يشاركون في العمل السياسي ويقدمون للسلطة المركزية خدمات جلى تشهد على تعلقهم بالعرش العلوي، وتؤكد مدى تشبثهم بالبيعة التي هي من مشروعات العلاقة التي تربط بين الحكام والمحكومين في الدين الإسلامي، وخير مثال على ذلك بيعات الشيخ محمد الأغظف ماء العينين للسلاطين العلويين، والمهام المخزنية التي تقلدها لخدمة مصالح الدولة، حيث كان، آنذاك، نائبا

32 - الضعيف الرباطي، تاريخ الدولة السعيدة: 44.

33 - له رحلة بعنوان المنى والمئة، ذكر فيها بإسهاب الإكرام الذي حظي به من طرف السلطان عبد الرحمان بن هشام، وأشاد بالمكتبة التي أهدت إليه من طرف السلطان المذكور.

34 - انظر المختار السوسي: المعسول: ج: 19: ص: 278.

للمخزن في المناطق الصحراوية، مما جعله يظل في اتصال مباشر مع السلاطين لتقديم البيعة والولاء نيابة عن جميع القبائل، ويطلع السلطة على الأوضاع التي تعيشها هذه القبائل في مواجهة التدخل الأجنبي. ففي العهد العزيزي ترأس الشيخ ماء العينين وفدا يضم مئات من أبناء الصحراء لملاقاة السلطان ومبايعته بمدينة مراكش، فتدارس معهم الأمر الواقع الذي كانت تعيشه المناطق الصحراوية، فزودهم بما يحتاجونه من تعليمات ووسائل لمقاومة كل تسرب أجنبي³⁵. وفي مديرية الوثائق بالرباط رسائل متبادلة بين السلطان المولى عبد العزيز وبعض رؤساء القبائل، وأيضا ظهائر شريفة تتعلق بالتولية والتوقيع³⁶.

كما أن السلطان المولى عبد الحفيظ لم يذخر جهدا في ربط الاتصال مع أهالي الصحراء، بل إن رسائله، التي كان يحث فيها رعاياه على عدم السماح للمتسللين الأجانب باحتلال شبر من الأراضي الصحراوية، ما زالت محفوظة، ومن ذلك قوله في إحدى هذه الرسائل: "بلغ إلى العلم الشريف أن نصرانيا نزل بالبحر... فعليكما أن تحذرا القبائل من البيع والشراء معه، وترغموه إلى الرجوع إلى حال سبيله، وتحذروهم شؤم ذلك، وتعجلوا بدفعه من هنالك، ونحن من وراء ما نسمعه عنكم في ذلك"³⁷.

ولما فرضت الحماية على المغرب، وحط الاستعمار بكله على البلاد، ظل أهل الصحراء متشبثين بوطنيتهم، جاهرين بمغربييتهم، حيث شاركوا، باستماتة، في النضال والمقاومة ضد الوجود الأجنبي، وخاضوا معه معارك ضارية، مما جعلهم يتعرضون لشر المستعمر، مثلما كان يتعرض له إخوانهم في مختلف جهات المغرب. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظلت جميع القبائل الصحراوية تحتفظ ببيعتها وولائها للعرش العلوي، حيث كان رؤساء هذه القبائل على اتصال مباشر مع السلطان محمد الخامس، ويقدمون له البيعة نيابة عن جميع أهالي الصحراء. وتحتفظ جريدة صحراء المغرب³⁸ بنص البيعة التي قدمها الشيخ ماء العينين للسلطان محمد الخامس، سنة 1377هـ/ 1958م، والتي عبر فيها عن اعتزاز أهل الصحراء بمغربييتهم، وعن آمالهم في استكمال تحرير المناطق الصحراوية من أيادي المستعمرين.

35 - حمداتي شبيهن، مرجع سابق ص: 199.

36 - بهيجة سيمو، مرجع سابق.

37 - حمداتي شبيهن، مرجع سابق ص: 200.

38 - نفسه ص: 224، أشار المؤلف في كتابه إلى الصفحة والعدد والسنة، ينظر.

وإذا كانت نصوص بيعات أهل الصحراء تتضمن معاني تأكيد الولاء والاعتزاز بالانتماء إلى الوطن الأم، فإن نصوص الخطب السلطانية كانت هي الأخرى تحمل معاني الافتخار والتأييد لما يأمله أهل الصحراء، وتتضمن، أيضا، دلالات توحى بأن المغرب سيظل مطالبا بما انتزع منه من أجزاء أرضه³⁹، وفي ذلك انسجام وترابط متين بين السلاطين العلويين ورعاياهم من أهل الصحراء.

إن هذا الولاء التاريخي، وهذه البيعة الشرعية المتجددة في أوساط سكان الصحراء لسلاطين وملوك الدولة العلوية هو ما جعل قضية استرجاع الأجزاء المغتصبة من الأراضي الصحراوية تؤرق السلطان الحسن الثاني، وتوقظ مضجعه، حيث ظل يطالب المجتمع الدولي، في المؤتمرات الدولية واللقاءات القيادية، وفي المراسلات الرسمية، والخطب العرشية، بحقوق المغرب الشرعية في استكمال وحدته الترابية باسترجاع أجزائه المسلوقة، معتمدا في ذلك على الوثائق التاريخية التي تثبت سيادة الدولة المغربية على المناطق الصحراوية منذ زمن بعيد. وإلى جانب الحقائق التاريخية التي احتفظت بها الوثائق، فإن الدعوة الصريحة التي جهر بها أهل الصحراء، من علماء وشيوخ وأعيان ومقاومين، بالولاء والبيعة للملك الدولة العلوية، كانت تزكية صادقة أثبتت تشبث القبائل الصحراوية بمغربيتهن، مما جعل المحتل الإسباني يقتنع بأن حق المغرب في صحرائه حق شرعي، وأن استعمار هذه المناطق يتنافى مع الشرعية الدولية.

إن بيعة أهل الصحراء للملوك العلويين، وإجماعهم على الولاء للعرش العلوي، وجهرهم بمغربيتهن، ودفاعهم عن وطنيتهن، كل ذلك كان له دور كبير في الاعتراف الدولي بمغربية الصحراء، ويؤكد هذا الدور خطاب الملك الحسن الثاني، طيب الله ثراه، الذي ألقاه بعد إعلانه عن تنظيم المسيرة الخضراء، حيث استهله بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنْ أَتَاكُمْ فَمَا لَهُمْ بَشِيرٌ أَمْ تَكُنُّمْ آلَ فَتْرَةٍ مِمَّا فَتَرَ اللَّهُ لِلَّذِينَ نَكَثُوا أَعْيُنُكُمْ وَأَنْفُسُكُمْ فَانْهَافُكُمْ فِي الْأَرْضِ بِمَا عَاهَدْتُمْ بِهِ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وهي آية تتضمن معان ودلالات شرعية تفيد التشبث بالبيعة والالتزام بها، كما تتضمن رموزا تاريخية تؤصل لمشروعية البيعة ومكانتها في الدولة العلوية.

39 - انظر خطاب السلطان محمد الخامس في المرجع نفسه ص: 226.

جوانب من المقاومة الوطنية بالصحراء المغربية وامتدادها الأفريقي

ذ. رشيد بنعمر
باحث بكلية الآداب -
مكناس

مباشرة بعد سقوط الأندلس، توجهت أنظار دول شبه الجزيرة الأيبيرية منذ مطلع القرن الخامس عشر إلى المغرب حين اشتدت منافسة كل من البرتغال وإسبانيا ودشتتا بذلك حركة التوسع الاستعماري صوب الثغور المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وعلى المحيط الأطلسي، ومنذ ذلك الحين أضحت معظم المدن الشاطئية المغربية، شمالا وغربا عرضة لتحركات أوربية نجح المغاربة في مقاومتها ورد الغزاة على أعقابهم في مرات كثيرة.

إن الموقع الاستراتيجي للمغرب كحلقة وصل بين إفريقيا وأوروبا جعل المنافسة تشتد بين القوى الإمبريالية (بريطانيا، وألمانيا، وإسبانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وهولندا...) عند السنوات الأولى من القرن التاسع عشر في سباق محموم حول المستعمرات، وفي سياق التوافقات والتراضي ترك المجال لفرنسا وإسبانيا المتنافستين بقوة على من يحسم المسألة المغربية لصالحه، فكانت معاهدتا 1900م و1904م بين كل من فرنسا وإسبانيا حول تقسيم المغرب بمثابة حلول لتركيز كل دولة على حدة على الأهداف الجغرافية التي تم اختيارها وبلورة الخطط والاستراتيجيات لإحكام السيطرة، فكان المشروع الفرنسي الذي انطلق منذ احتلال الجزائر يستهدف المناطق الشرقية للمغرب على طول الساحل الصحراوي الممتد من وجدة إلى نهر السنغال عبر توات في المقابل كان المشروع الإسباني يستهدف المناطق الغربية من الصحراء المغربية الساقية الحمراء وواد الذهب وصولا إلى موريطانيا وكل هذه المناطق كانت تشكل الإمبراطورية المغربية المترامية الأطراف حيث كان الممثلون المخزنون يعينون بظواهر سلطانية.

إن الظهير السلطاني لا يعني فقط ذلك البعد السياسي لتمثيلية السلطان في هذه الربوع بقدر ما يحمل دلالات رمزية ودينية عميقة تستمد من مفهوم البيعة التي قدمها سكان هاته المناطق لسلطين المغرب منذ عهد مولاي إسماعيل إلى العهد الحفيظي الذي دخلت فيه الدول المستعمرة على الخط. فالإسلام في هذه المناطق انتشر عن طريق الزوايا خاصة التجانية والقادرية وظلت ساكنة هاته الربوع وفية للدلالات الرمزية والدينية التي تربطها بالمغرب، منها بيعة أمير المؤمنين حامي الملة والدين، على اعتبار المكانة الشريفة التي يحظى بها حفيد الدوحة الشريفة ومقتدين بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية". ولعل الزيارة المتكررة اليوم لأمر المؤمنين لهذه الأقطار تدخل في هذا الإطار.

إن الروابط الدينية التي تجمع المغرب بإفريقيا عامة وبموريطانيا والسنغال خاصة انطبعت على روح المقاومة للسكان لكل من الاستعمار الفرنسي والإسباني معا، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر إلى غاية منتصف القرن العشرين واجهت الدولتان الاستعماريتان مقاومة شرسة وعنيفة من ساكنة المنطقة في تعاون وانسجام تامين بين كل الحركات التحررية يوحدتها الإسلام ومواجهة العدو الأجنبي.

فاشتدت المواجهات للوقوف أمام مطامح الغزاة في كل من غرب الصحراء المغربية من طرف الشيخ ماء العينين وابنه أحمد الهيبة ماء العينين، وفي جهة الشرق مولاي أحمد بن الحسن السبعي السغروشنى على سبيل المثال لا الحصر في البداية ومن طرف المقاومة وجيش التحرير بعد منتصف القرن العشرين .

1- الواجهة الشرقية من الصحراء المغربية : المشروع الاستعماري الفرنسي ومقاومة القبائل

دخلت فرنسا الجزائر سنة 1830م بكل ثقلها العسكري، وأخذت بعين الاعتبار أهمية المنطقة كنقطة انطلاق لتنفيذ المشروع الاستعماري الفرنسي في كل من المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء، فلما كانت أول مواجهة بين الجيش المغربي والآلة العسكرية الفرنسية المتطورة سنة 1844م بمعركة إيسلي كان بإمكان فرنسا اجتياح المغرب حينها لولا الاعتبارات الدولية التي فرضت عليها واقع الوقوف عند الحدود الشرقية، وهي اعتبارات تعتمد بالأساس على اعتراف الدول المتنافسة على المغرب بأن الدولة الشريفة لها سيادة ويترأسها سلطان بخلاف الوضع بالجزائر التي هي إيالة تابعة للسلطان العثماني.

استغلت فرنسا بعد معاهدة للامغنية التي أبرمت بين السلطان وممثل الدولة الفرنسية عدم التطرق إلى مسألة الحدود الشرقية، مما ترك الباب مفتوحا أمام فرنسا لبناء مشروعها الاستعماري المتمثل في الاستئثار بالتجارة مع غرب الصحراء وربط المستعمرة الجزائرية بنظيرتها بالسنگال¹، مما يفسر كثافة البعثات العلمية والتجسسية إلى الهوامش الصحراوية والواحات في هذه الفترة بالذات لسبر أغوارها والوقوف على أحوالها تمهيدا للزحف عليها². وانطلاقا من سنة 1881 بدأت فرنسا في إرساء قواعدها العسكرية على طول الشريط الممتد من واحات فكيك إلى تيكورارين بتوات، من جانب آخر وجهت قواتها للسيطرة على واد نول ووادي درعة، فخرجت القبائل المغربية في هذه المناطق الصحراوية للدفاع عن نفسها وحماية أراضيها من الزحف العسكري الفرنسي، وفي عملية تنسيق بين المخزن على عهد السلطان مولاي الحسن وتلك القبائل لدعم المقاومة في تلك المناطق وتثبيت تمثيلية المخزن بها جرت اتصالات بين السي محمد العربي بن الهاشمي الدرقاوي شيخ الزاوية الدرقاوية بمدغرة وبين بوعمامة الجزائري الذي انتقل من تيكورارين إلى كاوز بمدغرة سنة 1880م حيث وجد المبعوث السلطاني في ضيافة الشيخ، الذي كان في هذه الفترة من أكثر الدعاة تحمسا للجهاد ضد الفرنسيين في منطقة وهران والواحات الجنوبية الشرقية، مما يفسر استعداد القبائل المهتدة في المنطقة للانضمام لهذه الحركة، غير أن ذلك لم يتم³.

إضافة إلى المقاومة الشرسة التي شنتها قبائل المنطقة والتي كبدت فرنسا خسائر في الأرواح والعتاد من جهة ومن جانب آخر كانت فرنسا بعد خروجها من الحرب الفرنسية البروسية 1870م تواجه المقاومة الجزائرية بمنطقة القبائل سنة 1871م بزعامة المقراني وحركة بوعمامة التي التفت حولها قبائل واحات الزوزفانة وفكيك. أمام هذا الوضع الذي ألزم فرنسا توزيع قواتها وهو في حد ذاته إضعاف للجهود وتهديد للبقاء الفرنسي بالمنطقة، وللخروج من المأزق سلكت فرنسا هذه المرة الوسائل الديبلوماسية في محاولة استمالة شيوخ القبائل معتمدة على خدمات العربي الوزاني المحمي الفرنسي وزعيم الزاوية الطيبية الوزانية، بحيث أرسله الحاكم العام للجزائر سنة 1892م إلى تيكورارين مخفورا من طرف أولاد سيدي الشيخ للقاء الزعماء المحليين، مراهنات في ذلك على وجود

1 - Augustin Bernard et N. Lacroix, La pénétration saharienne, 1830-1906 Alger, 1911, p222 In Ross E.dunn. Resistance in the desert, London, 1977.

2 - محمد بوكبوط، مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (1880-1938) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول مطبعة أبي رقراق للطباعة والنشر 2005 ص : 48.

3 - نفس المرجع ص 49 .

أتباع الزاوية الطيبية بتوات غير أن هذه المساعي قوبلت باستقبال عدائي في تيكورارين وتكررت المحاولات غير أن جميعها كان لها نفس المصير.

بالرغم من إبرام اتفاق المهادنة مع فرنسا سنتي 1901م و1902م تشير تقارير الضباط الفرنسيين مدى حدة وكثافة عمليات المقاومة التي نفذتها آيت خباش (وضمنهم بني أحمد) وذوي منيع وأولاد بوعنان وأولاد جرير والشعابنة ضد ثكنات وقوافل الجيوش الغازية في منطقة الساورة منذ احتلال واحات تيكورارين وتوات وتأسيس مركز الشؤون الأهلية لبني عباس في مارس 1901م واستقرار الجيوش الاستعمارية به⁴.

ظلت المقاومة سيدة الموقف ولم تستطع فرنسا بسط سيطرتها على الأقاليم الجنوبية الشرقية بشكل مطلق رغم إعلانها نهاية المقاومة المسلحة سنة 1934م، إلا أن القبائل لم تستسلم وبدأت تتحين الفرص للقيام بعمليات المقاومة حتى بعد 1956م وحصول المغرب على الاستقلال، حيث دخلت المقاومة وجيش التحرير على الخط لاستكمال الوحدة الترابية للمغرب وتحرير المناطق الجنوبية الشرقية من الاستعمار الفرنسي.

2- الواجهة الغربية من الصحراء المغربية: المشروع الإسباني والمقاومة الوطنية واسترجاع الأقاليم الصحراوية إلى المغرب

انطلاقاً من 22 أكتوبر 1443م⁵ حصل الأمير هانري من ملك البرتغال على امتياز احتكار الملاحة فيما بين كانتي وبوجدور وبتاريخ 25 فبراير 1449م حصل نفس الأمير من الملك البرتغالي على امتياز تقاضي الرسوم الجمركية عن جميع البضائع الواردة على البرتغال من المنطقة الواقعة فيما بين رأسي كانتي ورأس بوجدور، وقد كان هذا بداية لإقامة مؤسسات برتغالية فيما بعد في كل من أسفي والصويرة، وسانت كروز كاب دوكي وماسة.

لكن خوان الثاني ملك قشتالة رد الفعل بالعنف ضد البرتغال، فبعد خمسة أشهر من نفس السنة أقطع دوف ميدينا صيدونيا، خوان دي قزمان جميع الشواطئ المغربية الواقعة بين رأسي أغير وبوجدور. ولم يبق في وسع الملك البرتغالي إلا أن يرفع القضية إلى البابا في رومة نيكولا الخامس⁶

4 - محمد بوكبوط، مقاومة الهوامش الصحراوية... نفس المرجع ص: 54.

5 - صفحات من ملحمة التحرير بالجنوب المغربي، محمد بنسعيد آيت إيدر، منشورات المواطنة مطبعة التيسير الدار البيضاء 2001 مقدمة الكتاب عبد الله إبراهيم ص 5.

6 - نفس المرجع ص 6.

ليأمر هذا الأخير بأن المغرب ممتلكات وشواطئ كله ملك للبرتغال إلى غينيا فما فوق. أخذ صك البابا لتمليك البرتغال للمغرب من تلك النظرة السائدة في القرون الوسطى التي تقول: إن البلدان التي لا يحكمها ملك مسيحي في العالم هي في حوزة البابا باعتبار أن الملك لله وأن البابا هو ممثل الله في الأرض ويدخل في اختصاصه أن يمنح أي ملك لأي مسيحي شاء.

أصرت إسبانيا بدورها على أن جزر الكناريا تابعة لها باعتبارها من المغرب وأن المغرب نفسه جزء من مملكة القوط الإسبانية القديمة. غير أن المغاربة كانوا بالمرصاد لكل من سولت له نفسه أن يطأ أراضيهم التي تدخل في دار الإسلام وأن أي هجوم من الصليبيين وجبت مجابهته.

ففي مواجهة غير متكافئة بين الجيوش المغربية والفرنسية في معركة إيسلي والإسبانية في معركة تيطوان اتضح لكل من فرنسا وإسبانيا ضعف السلطة المركزية فبدأت المناورات والخطط تحاك لبسط السيطرة على المغرب وفي هذا السياق تحركت إسبانيا للاستحواذ على المناطق الجنوبية للمغرب بدعوى الحقوق التاريخية التي تملكها في المنطقة، وحول الأهداف الإسبانية يقول المؤرخ الإسباني غارثيا فيغيراس: "إن موقع ممتلكاتنا 7 على الساحل الإفريقي يوقظ دائما رغبات مختلف القوى الاستعمارية، لإقامة علاقات تجارية مع الداخل، فهناك نهر السنغال الذي له موارده الهامة، وفكرة إفريقيا الوسطى الغنية بالإمكانات، وقيمة وأهمية تارودانت وتمبكتو كمركزين للعلاقات التجارية مع الداخل كلها مجتمعة تجعل من المنطقي التفكير في أن إقامة ميناء في نقطة مناسبة على الساحل الممتد ما بين أكادير والرأس الأبيض، أو بين أكادير ورأس بوجدور، سيكون مفيدا للتجارة. تضاف إلى ذلك الأهمية الإستراتيجية لهذا الميناء وقيمه في الملاحة الأطلسية كقاعدة في الممرات البحرية"⁸ ولتنفيذ مشروعها، بدأت إسبانيا مساعيها الجادة إلى احتلال الصحراء تحت غطاء "الشركة التجارية الإسبانية الإفريقية" ففي 3 نوفمبر من سنة 1884م أرسلت إسبانيا بعثة يرأسها إيميلو بونيلي بوادي الذهب، وأقامت الأكواخ الخشبية الثلاثة، باعتبارها وكالة تجارية، وأطلقت اسم "فيلا سيسنيروس" Villa Cisneros على الكوخ الذي أقامته في شبه جزيرة الداخلة، واسم "بويرتوباديا" Puerto Badia على الكوخ الذي أقامته بخليج سنتر (يقع جنوب بلدة العركوب) بينما أطلقت اسم "مدينة كاتيل" Medina Gatel على الكوخ الذي أقامته في الرأس الأبيض (الكويرة)، وأرست باخرتين: الأولى "إينس" لنقل المؤن، والثانية سيريس، وكانت حربية قبالة الداخلة، أو فيلا

7 - إشارة هنا للأقاليم المغربية الجنوبية التي احتلتها إسبانيا.

8 - Tomas Garcia Figueras ; "Sta cruz de Mar pequena" ; Ifni y Sahara ; p 18- 59.

سيسنيروس كما بدأ الإسبان يسمونها⁹. وأصدر الملك ألفونسو الثاني عشر ظهيرا عممه على جميع القوى الأوروبية المتنافسة على المنطقة يخبرهم أن إسبانيا أسست في الأقاليم الجنوبية المغربية الشركة التجارية الإسبانية الإفريقية.

لم ينتظر رد فعل الساكنة كثيرا حتى هجموا على الأكواخ الثلاثة فقتلوا ما قتلوا وأسروا ما أسروا، ونظرا لضراوة المعركة تم عرض أحداثها على البرلمان الإسباني، حيث سأل النواب حكومتهم حول ظروف وملابسات المعارك في المنطقة وخاصة معركة الداخلة، هذه المعركة التي كتبت فيها المصادر الإسبانية ما يلي: "... ما إن غادرت الباخرة الحربية سيريس الموقع (شبه جزيرة الداخلة) حتى قامت مجموعة من أولاد دليم بالتجمع أمام الوكالة، ولما أصبح عددهم كافيا، هاجموا الإسبان الوديعين، ودمروا البنيات ونهبوا المخازن والباخرة "إينس" وقضوا على طاقمها، وقع هذا يوم 9 مارس 1885م، ولقي حتفهما كل من الموظفين "سيرافين فيرلين" وبيدروسانتشيت" وأصيب عدد آخر بجراح، وتم الإجهاز على كل الناجين ضربا وتنكيلا، ثم قيدوهم من أعناقهم... وأرغم الناجون على الرحيل إلى جزر الكناري في زورق صيد¹⁰.

حول معركة الداخلة هذه التي لم تحظ بأهمية بالنسبة للمصادر التاريخية المغربية إذا ما استثنينا كتاب "هداية من حار في أمر النصارى" للشيخ ماء العينين¹¹ وكذلك ابنه محمد الغيث النعمة في ديوانه: "الأبحر المعينية" وذكرها استطرادا مربيه ربه بن الشيخ ماء العينين بن العتيق في كتابه "سحر البيان" كما خصها العلامة العتيق بن محمد فاضل ابن محمد الليل بقصيدة¹² ويذكر الشيخ محمد الغيث النعمة حول المعركة ما يلي: "... وحيث جرى ذكر وقعة الداخلة، فلا بأس بذكرها على وجه الاختصار... وهي أن النصارى إسبنيول، خرجوا وبنوا بموضع معروف في الصحارى بإزاء البحر يقال له الداخلة... فأرادوا أن يخرجوا على البر غيرها عنوة، بغير إذن السلطان مولاي الحسن. فبلغ الخبر شيخنا- أطل الله عمره- (يعني الشيخ ماء العينين) فأخذ اثنين من أبناء أخواته... وأرسلهم

9 - Tomas Garcia Figueras p 127.

10 - ماء العينين مربيه ربه، الشيخ ماء العينين ومعركة الداخلة 1885م مع تحقيق كتاب هداية من حار في أمر النصارى، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي ص 40.

11 - هداية من حار في أمر النصارى، منشورات مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي من تحقيق ماء العينين مربيه ربه مطبعة المعارف الجديدة - الرباط 1999.

12 - ماء العينين مربيه ربه، الشيخ ماء العينين ومعركة الداخلة 1885م نفس المرجع ص 44.

لقبائل الساحل من أبناء دليم والعروسيين وغيرهم، أنهم لا يتركونهم يخرجون على البلاد إلا بإذن وعهد من السلطان"¹³.

من خلال المصدرين يتضح رفض القبائل الصحراوية التعامل مع الأجنبي، بالأحرى أن تطأ أقدامه أرضهم فكانت ردود الفعل قوية بزعامة الشيخ ماء العينين الذي نصبه السلطان مولاي الحسن قائدا على المنطقة الممتدة من أكادير إلى نهر السنيغال وبعد وفاته خلفه ابنه أحمد الهيبة ماء العينين الذي سار على سير أبيه ممثلا للسلطانين مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ، هذا الأخير فيما تشير إليه بعض المراجع الفرنسية أنه بعد عقد الحماية 30 مارس 1912م طلب السلطان مولاي حفيظ من الشيخ أحمد الهيبة نصرته وتحرير المغرب من التواجد الفرنسي ولبى أحمد الهيبة النداء وزحف بجيوشه على مراكش ودخلها دخول المنتصر ومنها قصد منطقة سيدي بوعثمان غير أنه تواجه مع الآلة العسكرية الفرنسية المتطورة وانهزمت جيوشه بالمعركة.

مباشرة بعد عقد الحماية الفرنسية على المغرب بادرت فرنسا لتطبيق بنود الاتفاقية الثنائية الفرنسية الإسبانية لسنة 1904م، والتي بموجبها يسمح لإسبانيا احتلال المناطق الشمالية للمغرب، وكذلك المناطق الجنوبية الغربية منها الساقية الحمراء ووادي الذهب، ومنذئذ والمقاومة مستمرة على أشدها في كل من طرفاية وسيدي إفني والساقية الحمراء ووادي الذهب وكانت تقابل بالعنف في مجمل الأوقات وبسياسة الاحتواء والاستمالة في بعضها إلى حين عودة السلطان محمد الخامس إلى عرشه وحصول المغرب على الاستقلال، ولأن معاهدة إيكس ليان ألغت معاهدة 30 مارس 1912م فهذا يعني من ناحية القانون الدولي العام أن كل المعاهدات المترتبة عنها أو عن أحد بنودها تصبح لاغية، فالمعاهدة الثنائية الفرنسية الإسبانية ل1904م، والتي بموجبها حصل اتفاق الأطراف على تقسيم المغرب أصبحت لاغية الأمر الذي يترتب عليه وجوب خروج الاستعمار الإسباني من شمال المغرب ومن جنوبه، غير أن هذا ما لم يحصل فإن كانت إسبانيا خرجت من شمال المغرب فقد ظلت محتفظة بجنوبه، كما أن فرنسا ظلت محتفظة بجميع مناطق الصحراء الشرقية تحت إمرتها، مما جعل مهمة استمرار المقاومة لتحرير البلاد تظل كذلك قائمة وهذه المرة مع رجالات المقاومة وجيش التحرير.

13 - نفس المرجع ص 46.

3- جيش التحرير المغربي ومهمة استرجاع الأقاليم المغربية بالصحراء

لم تكن مفاوضات إيكس ليبان مريحة لكثير من الأطراف الوطنية المغربية لأنها لم تحقق للشعب المغربي كل الآمال التي كان يطمح إليها في الاستقلال الكامل، وفي الوحدة الترابية. وقد بقيت أجزاء كبيرة من التراب الوطني خارج الاتفاقيات المبرمة بين الدولة المغربية وبين فرنسا وإسبانيا. كما ربطت هذه الاتفاقيات بلادنا بقيود صعبة جعلتها غير قادرة على مواجهة التحديات الكبيرة لاستكمال التحرر والاستقلال التام ولاسترجاع جميع الأجزاء التي بقيت خاضعة للاحتلال الأجنبي. فالحماس الشعبي والشعور بالانتصار بعد عودة محمد الخامس لم ينس المغاربة حقيقة المناطق المغربية المحتلة، فمنطقة تيندوف كانت جزءا من إقليم أكادير إلا أن فرنسا وبعد اكتشاف منجم كارجييلات بها بادرت إلى إلحاقها للجزائر بحكم أن هذه الأخيرة أصبحت ملحقة بالقانون لفرنسا، وبالتالي مسألة الخروج منها أو التنازل عنها أمر غير وارد على الأقل في تلك الفترة، في حين أن وضعية المغرب وضعية حماية يمكن استغلاله في أية لحظة، ورغم ذلك احتفظت تيندوف بعلاقتها التجارية مع دائرة كوليم والصحراء المغربية حتى الاستقلال، واحتفظ قائد الركيبات بتيندوف لحبيب ولد البلال بالظهير الملكي حتى عودته إلى مدينة كوليم وكانت القبائل المجاورة تتعامل مع الوضع على أساس أن تيندوف مغربية.

إلى جانب تيندوف الخاضعة للجيش الفرنسي كانت كل من طرفاية وطانطان وعيون الساقية الحمراء والسمارة ووادي الذهب تحت النفوذ الإسباني، وكان عليها حاكم عسكري عام مقره بسيدي إفني وكان إلى جانبه الشيخ محمد الإمام ممثل الخليفة السلطاني بتطوان، وفي عيون الساقية الحمراء يوجد محمد الأغظف بن الشيخ ماء العينين الذي يقوم بنفس المهمة كممثل للسكان ونائب عن الخليفة السلطاني بتطوان وكان سكان هذه المناطق يرتبطون بعلاقات عائلية وأخوية متينة مع شمال المغرب بحكم أنهم مواطنون مغاربة¹⁴.

خرج مؤتمر مدريد للمقاومة وجيش التحرير المنعقد سنة 1956م بزعامة كل من علال الفاسي والمهدي بن بركة بتوصية استكمال تحرير المناطق المغربية الممتدة من "سان لوي" جنوبا إلى طنجة شمالا، وعند لقاء قادة جيش التحرير بالمغفور له محمد الخامس أيد مجهودات جيش التحرير، خاصة بعد التحاق عدة وفود من موريطانيا والصحراء الجنوبية والشرقية وفي مقدمتها الزعيم الموريطاني حرمة ولد بابانا في 9 أبريل 1956م. ثم التحقت به مجموعة من شباب موريطانيا الوطنيين كان من

14 - صفحات من ملحمة التحرير بالجنوب المغربي، محمد بنسعيد آيت إيدر... ص 28.

بينهم محمد ولد جدو وأحمد بابامسكي وباهي حرمة، جاؤوا يطالبون بالدعم السياسي والمادي لمساندتهم على تحرير موريطانيا من الاستعمار وتوحيدها مع وطنهم المغرب. وقد التحقت بالمغرب كذلك وفود قبائل الصحراء الشرقية والجنوبية من بينهم قائد الركييات بتندوف ولد البلال ومجموعة من شيوخ القبائل الصحراوية وقبائل آيت باعمران¹⁵.

توزعت تشكيلات جيوش المقاومة على واجهتين الواجهة الشرقية تيندوف وفم لحصن، وشمال موريطانيا حيث سمحت لهم إسبانيا باختراق المجال الموضوع تحت سيطرتها خاصة أن إسبانيا كان لها موقف إيجابي أي رافض لنفي محمد الخامس سنة 1953م بل ساعدت الحركة الوطنية على تأسيس جيش التحرير بمدينة تطوان بالشمال ومده بالمساعدة، هذا الاعتبار جعل قادة جيش التحرير يثقون في مساعدة إسبانيا لهم حتى في الجنوب، بالإضافة إلى معطى آخر يتجلى في حماس المغاربة ونشوة الانتصار بالاستقلال جعلهم يدخلون في مناوشات مع الحكام الإسبانيين في الجنوب، حيث طالب هؤلاء من قادة جيش التحرير التدخل لتهدئة الوضع.

أمام هذه المعطيات واصل جيش التحرير عمليات المقاومة مركزا على المناطق ذات النفوذ الفرنسي وقد جرت معاركة طاحنة في الجبهة لم يسعف الفرنسيين معها سوى التدخل الجوي من القواعد الجوية الجزائرية والسنغالية وكذلك المغربية لأنه في تلك الفترة ورغم حصول المغرب على الاستقلال ظلت الجيوش الفرنسية في قواعدها داخل الثكنات العسكرية وكانت الأوامر تصدر من طرف الجنرالات الفرنسيين¹⁶.

تخوف إسبانيا تجاه الحشد الجماهيري الذي لقيه جيش التحرير بالمناطق الجنوبية وضراوة تدخلات هذا الأخير، جعلها انطلاقا من سنة 1957م تغير من سياسة غض الطرف تجاه التحركات الميدانية لجيش التحرير وشرعت في التكنيل بالمواطنين المغاربة في سيدي إفني والعيون وطرفاية حيث تم تفكيك الشركة الأهلية الوحيدة في الصحراء والمعروفة بإسم "كوبانية بوعيده" والتي كانت معروفة بمساندتها لجيش التحرير¹⁷، ولم تتوقف الإجراءات الإسبانية عند هذا الحد بل قامت باعتراض سبيل فرقة جيش التحرير العائدة من "معارك تكل" ضد فرنسا بشمال موريطانيا في

15 - صفحات من ملحمة التحرير بالجنوب المغربي، محمد بنسعيد آيت إيدر... ص 31-32.

16 - نفس المرجع ص 35-38.

17 - العمري علي، المقاومة الصحراوية والعمل الوطني (مقابلات ووثائق) منشورات المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، الرباط 2008 ص 137.

12 يناير 1957م، وجردت جيش التحرير من الأسلحة بدعوى الامتثال للقانون الدولي العام¹⁸، وتأكد من خلال هذه الإجراءات الإسبانية تجاه جيش التحرير أن التحالف الإسباني- الفرنسي كان قائما وهو تحالف لم يقف فقط عند إعطاء معلومات للأجهزة الاستخباراتية الفرنسية، بل عقدت الدولتان اجتماعين تنسيقيين: الأول بلاس بالماس، والثاني بدار، حيث كانت نقطة جدول الأعمال في الاجتماعين: الهجوم المشترك على قوات جيش التحرير المغربية والقضاء عليها بصفة نهائية. وهكذا بدأ الهجوم المشترك الفرنسي الإسباني انطلاقا من 10 فبراير 1958م عبر مرحلتين: بالطيران وقصف ساكنة الصحراء بهدف إبادتهم وسحق كل ما يملكون من ماشية، كما نظم هجوم مشترك برا وجوا وبحرا تدخلت فيه حتى طائرات الحلف الأطلسي للقضاء على جيش التحرير بمعركة إيكوفيون¹⁹.

أمام هذا الوضع تدخلت الدولة المغربية الحديثة العهد بالاستقلال مطالبة جيش التحرير الانضمام إلى الجيش النظامي، لتدخل قضية الصحراء منعطف الدبلوماسية حيث حاولت إسبانيا حشد تأييد دولي لتنظيم استفتاء في المنطقة سنة 1974م غير أن المغرب وبعد عرضه القضية على محكمة لاهاي الدولية اكتسب مشروعية دولية فتحت له الطريق لتنظيم المسيرة الخضراء التي شارك فيها أزيد من 350 ألف مغربي بالإضافة إلى مجموعة من وفود الدول الصديقة، الأمر الذي أغضب الجارة الجزائر وبالتالي افتعلت بمعية إسبانيا الفرانكوية في أوج الحرب الباردة مشكلة الدويلة الوهمية البوليساريو.

إن الإجماع الوطني الحاصل على مغربية الصحراء يؤكد حقيقة تاريخية مفادها، أن القضية ليس قضية دولة بمعزل عن شعب بل هي قضية الملك والشعب، في ذلك السياق التاريخي الذي دشنته ثورة الملك والشعب والذي استمر في الأوراش التنموية وما زال قائما إلى حدود حل المشكلة المفتعلة وذلك بتفعيل مقترح المغرب: الحكم الذاتي الذي يحظى بمشروعية وبتأييد دوليين.

18 - محمد سبي، "التدخلات العسكرية الإسبانية في عملية أوكوفيون ضد جيش التحرير في فبراير 1958"، مغرب الصحراء منشورات مختبر التراث صيانة وإنقاذ كلية الآداب فاس سايس 2015 ص 131.

19 - صفحات من ملحمة التحرير بالجنوب المغربي، محمد بنسعيد آيت إيدر... ص 38.

المغرب ومشروعية وحدته الترابية من الوجهة التاريخية

ذ. لحسن تاوشىخت
أستاذ التعليم العالي،
المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث،
الرباط

إن المغرب دولة عريقة ذات ثقل حضاري تضرب جذوره في عمق إفريقيا جنوب الصحراء وتنتفتح أغصانه الوارفة على حوض البحر الأبيض المتوسط. فجاحد من ينكر أن المغرب الأقصى هو مركز الغرب الإسلامي ومنطلق دوله التي لم تدخر جهدا في توحيد المنطقة في أغلب الفترات التاريخية وفي الذود عن مجال الترابي المتنوع في التضاريس من صحارى في الجنوب وفي الشرق ومن السهول في الغرب والوسط ومن الواحات في الجنوب الشرقي ومن الهضاب وجبال الأطلس والريف. هذا المجال الجغرافي الذي يمتد من نهر السنغال أو على الأقل من مدينة شنقيط في أقصى الجنوب إلى مدينة وهران في الشمال بل وإلى بلاد الأندلس في كثير من الأحيان. كما يضم هذا المجال فسيفساء بشرية عاشت طوال الدهور في انسجام وتناغم مما ساعد على غنى الحضارة المغربية ذات الروافد المتنوعة والقائمة على الاعتدال والتسامح وعلى الأخذ والعطاء وعلى التأثير والتأثر.

وباستقراء المصادر التاريخية من نصوص مكتوبة وخرائط ووثائق نستشف أن كل الحكام الذين تعاقبوا على عرش المغرب، منذ عهد مؤسس الدولة المغربية الإمام إدريس الأول إلى العهد الجديد -عهد تعزيز الوحدة الترابية وتركيز التنمية الشاملة المستدامة- مع جلالة الملك محمد السادس، دافعوا بقوة عن وحدة البلاد في نطاق حدوده المعروفة، بل وحاولوا أخذ المبادرة في توحيد كل بلاد المغارب.

1- الأدارسة وجهودهم في توحيد المغرب الأقصى:

كان للفتح الإسلامي لبلاد المغارب عامة وللمغرب الأقصى بالخصوص آثار عميقة شملت جميع المجالات. فمن جهة مثل هذا الفتح عامل وحدة اندمجت فيها القبائل الأمازيغية التي تهاقت

على القيام بنشر الدين الجديد في كل الربوع ودعم الحضارة الإسلامية بمعالم وشخصيات علمية ما يزال أثرها قائماً إلى اليوم. فبدأ انتشار الإسلام بمذاهبه المختلفة، غير أن الأثر الديني كان في الشمال أعمق منه في باقي الجهات وفي المدن أكثر من البوادي. فظهرت مراكز حضارية مثل سجلماسة وفاس التي عرف جامعها القرويين حلقات علمية تخرج منها العديد من العلماء والمفكرين. أما من الوجهة السياسية فقد كانت بلاد الغرب الإسلامي تابعة للخلافة المشرقية إلى غاية نهاية الدولة الأموية سنة 132هـ/749م حيث انفصلت هذه البلاد ونشأت بها عدة إمارات مثل إمارة الأغالبة بإفريقية وإمارة الرستميين بتاهرت وإمارة بني مدرار بسجلماسة وإمارة بورغواطة بتامسنا وإمارة بني عاصم بسبته وإمارة بني صالح بنكور، ثم إمارة بني أمية بالأندلس وإمارة الأدارسة بوليلي. هذه الإمارة الأخيرة التي يرجع نسب مؤسسها إلى آل البيت كانت لها طموحات استراتيجية وسياسية ودينية تهدف إلى توحيد بلاد المغرب وربما إلى استرجاع الخلافة الإسلامية التي انتزعت منهم من طرف الأمويين. وهكذا قام المولى إدريس الأول بعد أن بايعته القبائل الأمازيغية في "البلاد التي فتحها وهي حصون فندلاوة وميونة وهلولة وقلاع غياثة وبلاد فزاز"¹، قام بالزحف نحو تلمسان التي افتتحها سلماً بعد مبايعته من طرف حاكمها محمد بن خزر المغراوي. وإثر ذلك بنى المولى إدريس مسجد تلمسان فأثقفه وأمر بوضع منبر فيه كتب عليه: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه وذلك في شهر صفر سنة 174هـ"² (790م). إلا أن المولى إدريس الأول لم يستطع استكمال مشروعه الوحدوي حيث اغتالته يد الغدر بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد وواليه إبراهيم بن الأغلب بإفريقية. واستطاع ابنه المولى إدريس الثاني بعد بناء مدينة فاس واتخاذها عاصمة لإمارته من معاودة طموحات توحيد بلاد المغرب تحت إمرته. وهكذا استولى على نفيس وأغمات وفتح مناطق المصامدة حتى السوس الأقصى وسيطر على تارودانت - منفذ تجارة السودان - كما أخضع نفزة بتلمسان وقاتل بورغواطة في تامسنا ف"انضمت لإدريس بن إدريس كلمة البربر وزناتة ومحا دعوة الخوارج منهم واقتطع المغرب عن دعوة العباسيين من السوس الأقصى إلى وادي شلف ودانت له البلاد كلها"³.

1 - الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر ومحمد الناصري. الجزء 1 الدار البيضاء 1954 (ص 156).

2 - نفسه (ص 157).

3 - ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القسم الأول، المجلد الرابع 1981 (ص 27).

إن التجربة الوحدوية الأولى من نوعها التي قام بها الأدارسة خاصة في عهدي المولى إدريس الأول والثاني، كانت لها نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية، حيث استقل المغرب عن المشرق، كما وقع انصهار للقبائل الأمازيغية داخل هذه الإمارة الإدريسية في إطار انسجام ديني غير مسبوق. كما أصبحت هذه الإمارة تلعب دورا اقتصاديا كبيرا من خلال تحكمها في المسالك التجارية التي تربط إفريقيا جنوب الصحراء وحوض البحر الأبيض المتوسط. كما استطاع الأدارسة عكس باقي الإمارات المستقلة بالغرب الإسلامي، من خلق وحدة ثقافية اعتمدت أساسا على نشر المذهب السني واللغة العربية. هذه الوحدة التي تمزقت أوصالها في عصر الإمارات الزناتية، حيث لم يستطع أمراؤها تأسيس دولة متماسكة "وصار المسلمون شيعا متفرقين يقتل بعضهم بعضا وينهب، وفعل أهل المغرب مثل ذلك فكثرت فيه الشتات وشن الغارات بعضهم على بعض"⁴.

2- المرابطون وتوحيد الغرب الإسلامي لأول مرة:

في خضم الأحداث السياسية المضطربة التي عرفها المغرب لمدة طويلة بعد أفول شمس الدولة الإدريسية وعجز الزناتيين عن توحيد المغرب تحت رايتهم، قامت الدولة المرابطية بزعامة عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الكدالي وذلك من أجل القضاء على التفرقة والانقسام اللذين عرفهما المجتمع المغربي على جميع الأصعدة. ويسجل ظهور المرابطين في القرن 5 الهجري / 11 الميلادي مرحلة مهمة في تاريخ الغرب الإسلامي، حيث ستشهد هذه الفترة توحيد هذه المنطقة انطلاقا من المغرب الأقصى وبالضبط من صحرائه التي تشكلت فيها الدعوة المرابطية الإصلاحية واستطاعت في أقل من نصف قرن من توحيد الصحراء وبلاد المغرب والأندلس. وبطبيعة الحال لا يمكن للباحث في تاريخ المرابطين أن يمر دون طرح تساؤلات عديدة لعل أهمها ما يتعلق بظروف قيام هذه الدولة الموحدة وحول استراتيجيتها المتبعة في تحقيق وحدة الغرب الإسلامي. لقد استفادت الدعوة المرابطية من الفراغ السياسي الذي ساد المغرب خلال الفترة الزناتية، هذا الفراغ الذي نتجت عنه مشاكل أخرى على جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والدينية. وهكذا استطاع المرابطون اعتمادا على العصبية الصنهاجية وعلى المذهب المالكي وعلى مبدأي الجهاد والإصلاح، من بسط سيطرتهم على أهم المراكز الحضارية والاقتصادية بدءا من أودغشت وسجلماسة وفاس وغيرها، قبل أن يؤسسوا مدينة مراكش ويتخذوها عاصمة لهم. وقد خاطب عبد الله بن ياسين أتباعه بعد سيطرتهم على بلاد السودان والصحراء قائلا: "إنكم صبرتم ونصرتم دين رسول الله صلى الله

4 - ابن عذاري، أبو العباس محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. بيروت، دار الثقافة 1985 الجزء 1 (ص 254).

عليه وسلم وقد فتحت ما كان أمامكم وستفتحون إن شاء الله ما وراءكم، فأمرهم بالخروج من الصحراء إلى سجلماسة ودرعة"⁵. وكانت الحركة المرابطية الهادفة إلى توحيد المغرب تتبع خطة دقيقة تعتمد على نشر الدعوة بين القبائل وتكوين جيش قوي من هذه القبائل استطاعت بفضلها من السيطرة على فاس مقر السلطة الزناتية والتحكم في كل بلاد المغرب الأقصى من جنوبه إلى شماله واعتبرت سنة 467هـ/1074م السنة الحاسمة التي توحدت فيها أقاليم المغرب "بعد طول الفرقة وقطع دابر الخلاف المذهبي والسياسي الذي كان سببا في الكثير من الحروب الداخلية العنيفة"⁶. ومع القائد يوسف بن تاشفين ومع ابنه علي من بعده، بلغت الدولة المرابطية أوج قوتها وتمتد من نهر السنغال جنوبا إلى أقصى أبعد نقطة في الأندلس شمالا ومن بحر الظلمات غربا إلى إفريقية شرقا. وبذلك نجحت محاولة المرابطين التوحيدية في إنشاء دولة مركزية منظمة عملت على ضمان استقرار سياسي لم تعهده بلاد المغرب من قبل. "كان يحدث أن تبسط الدول التي قامت بإفريقيا سلطانها حتى ساحل المحيط الأطلسي ولكنها كانت تتوغل في المنطقة الساحلية، أما المناطق الداخلية فقد بقيت في معزل عما كان يجري من الحوادث حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس. وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى، فقد كانت الأقاليم السودانية تعيش بمعزل عن حوادث المغرب حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة"⁷. وبهذا تحققت أعظم إمبراطورية مغربية موحدة سياسيا ودينيا أصبح عليها الزعماء المرابطون طابع الملك والسلطنة حيث لقبوا بألقاب جديدة تعبر عن أعمالهم وجهودهم في التوحيد ومن ضمنها: "ناصر الدين" و"أمير المسلمين". ويدل اتخاذ يوسف بن تاشفين لهذه الألقاب وكذا من جاء من بعده، على تركيز وحدة سياسية كما جاء عند صاحب الحلل الموشية: "وإنه لما من الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لנمتاز به عن سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين. فمن خاطب الحضرة العلية السامية فليخاطبها بهذا الاسم إن شاء الله"⁸. وقد كانت لهذه الوحدة السياسية صدى في المشرق، مقر الخلافة العباسية التي أضفت على الدولة المرابطية الصفة الشرعية في مزاوله

5 - مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. الدار البيضاء، دار الرشد الحديثة 1979 (ص 22).

6 - كنون، عبد الله: النبوغ المغربي في الأدب العربي. بيروت، دار الكتاب، 1962 الجزء 1 (ص 65).

7 - محمود، حسن أحمد: قيام دولة المرابطين. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية 1957 (ص 327).

8 - مؤلف مجهول: الحلل الموشية. مصدر سابق (ص 29-30).

حكمها، إذ قلد الخليفة المستظهر بالله يوسف بن تاشفين "بحكم البلاد والعباد وما يفتحه من بلاد الأعداء"⁹. كما عرف الغرب الإسلامي مع الدولة المرابطية وحدة دينية اعتمدت المذهب المالكي الذي أصبح الدرع الواقي لسكان المنطقة من تلك التيارات السياسية والطوائف المذهبية المختلفة، فصانت بذلك المجتمع المغربي من التفرقة وأضحت المالكية منذ هذه الفترة مكونا أساسيا من مكونات الشخصية المغربية. هكذا عرف المغرب وحدته المذهبية التي عاشها منذ عصر المرابطين ولا زال يعيش عليها إلى اليوم، هذه الوحدة التي لم تفرض نفسها بالقوة أو المصادفة وإنما كانت اختيارا شعبيا الهدف منها توحيد البلاد تحت إطار شرعي يضمن خدمة مصالح الأمة.

خلاصة القول: لقد استطاع المرابطون توحيد المغرب الأقصى بصحرائه الممتدة إلى نهر السنغال مع المغرب الأوسط ومع الأندلس في إطار سياسة موحدة انبثقت عنها أول إمبراطورية مغربية في تاريخ الغرب الإسلامي منذ استقلاله عن الخلافة المشرقية. غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلا، حيث ما أن مات الأمير علي بن يوسف بن تاشفين حتى انهارت هذه الوحدة قبل أن يتم إحياء أركانها في العهد الموحد.

3- الموحدون وتعزيز وحدة الغرب الإسلامي:

إذا كان الزعيم الروحي للموحدين المهدي بن تومرت قد نجح في الدعاية للدعوة التوحيدية "المهدوية" وكسب ولاء العصبية المصمودية، فإن خلفه عبد المؤمن بن علي أظهر حنكة ومقدرة كبيرتين من الناحية السياسية والعسكرية مكنتاه من ضم المغرب الأوسط وطرده النورمان من تونس والمهدية والاستيلاء على طرابلس وما وراءها، وبذلك استطاع توحيد بلاد المغارب فضلا عن الأندلس فأصبحت "كلمة التوحيد والهداية متصلة من طرابلس إلى مدينة غانة"¹⁰. وبدأ عبد المؤمن ولمدة سبع سنوات كاملة بإخضاع المناطق المغربية الجنوبية ثم المناطق الشمالية ولم تشرف سنة 546هـ/1151م على النهاية حتى "أصبح المغرب الأقصى بأكمله تحت نفوذ الدولة الجديدة، دولة عبد المؤمن وهي تنعم بالهدوء والاستقرار"¹¹. الأمر الذي شجع الدولة على الاتساع تدريجيا لتضم إلى مجالها الجغرافي كلا من المغرب الأوسط وإفريقية وجزء من أرض ليبيا ثم الأندلس. "ولما دان لعبد

9 - العبادي، أحمد مختار: تاريخ المغرب والأندلس. القاهرة، دار النهضة العربية للطباعة 2000 (ص 305).

10 - مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار. الإسكندرية، مطبوعات كلية الآداب 1958 (ص 11).

11 - جوليان، شارل-أندري: تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب محمد المزالي والبشير سلامة، تونس، الدار التونسية للنشر 1983 الجزء 2 (ص 136).

المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون وأطاعه أهلها، جمع جموعا عظيمة وخرج من مراكش يقصد يحيى بن عبد العزيز بن المنصور ابن المنتصر الصنهاجي، وكان يملك بجاية... ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها، وملك قلعة بني حماد، وهي معقل صنهاجة الأعظم...¹². وبهذا تكون دولة الموحدين على عهد عبد المؤمن قد شملت المغربين الأقصى والأوسط، ولم تأت سنة 554هـ/1159م حتى جهز عبد المؤمن حملة عسكرية لضم إفريقية وما ولاها وباستسلام المهديّة سنة 555هـ/1160م تكون هذه المنطقة قد دخلت تحت طاعة الموحدين، ثم سارع سكان طرابلس وبرقة إلى مبايعة الموحدين. "صفت إفريقية كلها لعبد المؤمن، ودخل أهلها في طاعته من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له بها منازع، ففرق فيها عماله وقضاته، وضبط ثغورها وأصلح شؤونها"¹³. وقام عبد المؤمن بعد هذا بحشد جيوش قوية ضمت عناصر مختلفة من كل أقطار المغرب واتخذ من جبل الفتح قاعدة عسكرية لفتح الأندلس، فاستولى على جزئها الأوسط والغربي قبل أن ينضم إليه طوابعية الجزء الشرقي. وبذلك شهد المغرب وحدة سياسية الأكبر من نوعها، فإذا كان المرابطون قد وصلوا بحدوده إلى بجاية وقلعة بني حماد، فإن الموحدين قد استطاعوا توسيع رقعة هذه الوحدة لتشمل كل المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس حتى برقة فضلا عن الأندلس، حتى أضحت الدولة الموحدية أقوى قوة عسكرية وسياسية بحوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت هذه الدولة المغربية الموحدة مهابة الجانب اتجهت إليها أنظار كل العالم الإسلامي لتدراً عنها ما كان يهدد دار الإسلام من مخاطر والمتمثلة خاصة في التهديد الصليبي في شمال الأندلس وفي الشام وبيت المقدس. لكن هذه الدولة لم تستطع الاستمرارية في وحدتها وقوتها كثيرا، ذلك أنها اعتمدت على القوة في بناء إمبراطورية مترامية الأطراف، لكن ضعف تنظيمها الإداري وتسلبت شيوخ القبائل المصمودية على شؤونها وكذا انهماكها في معركة العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م، جعلها تنهار بسرعة بعد موت الخليفة الناصر ابن يعقوب المنصور. ففي دولة المنتصر بن الناصر "فشل أمر الموحدين وذهبت ريحهم وأشرفت دولتهم على الهرم... والتأمت الأمور بالأندلس والمغرب أجمع. أما الأندلس فتكالب العدو عليها وفناء حماتها، وأما المغرب فبخللاء كثير من قراه وأمصاره من وقعة العقاب"¹⁴. في هذه الظروف ظهرت

12 - المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء، دار الكتاب، الطبعة السابعة 1978 (ص 362).

13 - الناصري، خالد: مصدر سابق، الجزء 2 (ص 134).

14 - الناصري، خالد: المصدر السابق، الجزء 2 (ص 219).

قوة جديدة ستأخذ بزمام الأمور وتؤسس لدولة جديدة تحت زعامة العصبية الزناتية هذه المرة، إنها دولة بني مرين.

4- المرينيون وضمّان توحيد بلاد المغرب:

عرفت الدولة الموحدية في عهدها الأخيرة تصدعا كبيرا نتج عنه ظهور ثلاث دول هي دولة بني حفص المصمودية في المغرب الأدنى وعاصمتها تونس، ودولة بني زيان أو بني عبد الواد الزناتية بالمغرب الأوسط وعاصمتها تلمسان، ودولة بني مرين الزناتية بالمغرب الأقصى وعاصمتها فاس. ورغم التعدد السياسي الذي عرفته المنطقة بعد سقوط الدولة الموحدية، فإن المنطقة ظلت في اعتبار أهلها -حاكمين ومحكومين- دولة واحدة لا تقبل التجزئة. فعلماء المغرب كانوا يرتقبون من سيحيي هذه الوحدة من جديد، وقد توسموا في الدولة المرينية القدرة على ذلك. أما الأسر الحاكمة نفسها فإنها لم تقبل بالواقع السياسي الحاصل وكان هدفها جميعا السيطرة على كافة البلاد. وإذا كان حلم تحقيق هذه الوحدة وإخضاع البلاد لسلطة واحدة، هو هدف كل دولة من الدول الثلاث التي تقاسمت المنطقة، وخاصة المرينية والحفصية لتوفرهما على الشروط اللازمة لذلك، فإن الترجمة العملية والفعلية للتوحيد لم تتحقق إلا على يد بني مرين وخاصة مع السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنان. فقد استطاع المرينيون ذلك آخر مسمار في نعش الإمبراطورية الموحدية بعد سيطرتهم على عاصمتها مراكش سنة 668هـ/1269م ولم تحل سنة 672هـ/1274م حتى استطاعوا التحكم في كل المغرب الأقصى. وقد ظل حلم إحياء وحدة الغرب الإسلامي يراود سلاطين بني مرين وعملوا على تحقيق هذا الهدف منذ انطلاقتهم الأولى، وخاصة ابتداء من عهد أبي يعقوب يوسف (685-706هـ/1286-1307م) الذي حول وجهة السياسة المرينية اتجاه الشرق بعد أن أصبح من الصعب مقارعة النصارى في الأندلس. "ولما أخذ السلطان يوسف بن يعقوب بمخنق تلمسان وأوسع قواعد ملكه بساحتها وسرح عساكره لالتهام الأمصار والجهات، توجس الموحدون -يقصد بني حفص بإفريقية- الخيفة منه على أوطانهم..."¹⁵. ولكن الأمر بالنسبة للمرينيين لم يكن إلا تأجيلا للهدف وتطبيقا لسياسة المراحل التي تنتظر الفرصة المواتية لإخضاع إفريقية نفسها. وبالفعل سنحت هذه الفرصة بعد عملية المصاهرة التي تمت بين المرينيين والحفصيين على عهدي السلطان أبي سعيد عثمان (706-731هـ/1310-1331م) وابنه أبي الحسن (731-752هـ/1331-1351م)، حيث عمل المرينيون على إشراك أنفسهم في البيت الحفصي وحمايته من كل الأخطار الخارجية المحدقة به. ولما

15 - ابن خلدون، عبد الرحمن: مصدر سابق، الجزء 7 (ص 363).

كان بنو مرين يهدفون إلى توحيد بلاد المغرب، ولما كانت مشروعية ذلك تتطلب الحصول على تزكية آل البيت -الأشراف- فقد "حرصوا على ربط علاقات وثيقة مع هؤلاء سواء بالمغرب الأقصى أو في المشرق الإسلامي وحاولوا بوسائل متعددة استمالتهم وإقناعهم بأحقيتهم في حكم الغرب الإسلامي"¹⁶. ومعلوم أن النسب الشريف إلى جانب الجهاد أصبح في هذه الفترة يشكل شرطا أساسيا في تولي منصب الخلافة الإسلامية. وهكذا ربط بنو حفص أنفسهم بالبيت القرشي وبالأصل الشريف، كما اعتبر بنو عبد الواد أنفسهم شرفاء ينتمون إلى الأدارسة، بينما عمل المرينيون على التقرب وإرضاء الشرفاء المغاربة والمشاركة وكسب بيعتهم لتحقيق هذا الهدف، وهذا ما تحقق لهم بالفعل. ويميز الدارسون بين ثلاث محاولات مرينية لتوحيد الغرب الإسلامي، اضطلع بها كل من أبي يوسف يعقوب وأبي الحسن وأبي عنان (749-759هـ/1349-1358م). وهكذا دخلت بلاد المغرب كافة تحت سلطة بني مرين، فتحققت بذلك الوحدة التي طالما ظلت حلما لدى المغاربة وحكامهم في هذا العهد، فصارت الدولة المغربية تمتد ما بين مسراتة والسوس الأقصى وما وراءه. غير أن هذه الوحدة المغربية لم تعمر كثيرا، فابتداء من منتصف القرن 8 الهجري/14 الميلادي، ستعرف المنطقة أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية أدت بالدولة المرينية إلى الانهيار التام سنة 869هـ/1465م، بل وستعرف المنطقة ظهور قوى أجنبية تمثلت في الأتراك والإيرانيين الذين سيطروا على حوض البحر الأبيض المتوسط وزحفوا نحو شمال إفريقيا، فتحكم الأتراك في المغربين الأدنى والأوسط بينما احتلت إسبانيا مدينة سبتة سنة 1415م. فهل ستستطيع الدولة السعدية وقف الزحف الأجنبي والمحافظة على الوحدة الترابية للمغرب الأقصى على الأقل؟

5- السعديون وتوجيه وحدة المغرب نحو بلاد السودان:

كان المغرب في بداية القرن 10 الهجري/16 الميلادي يجتاز ظروفًا تاريخية جد صعبة غيرت وجهه السياسي والاقتصادي والاجتماعي والفكري، ونتج عن ذلك كيانات سياسية وزعامات دينية زادت من تعميق روح العصبية بين الفئات الاجتماعية وبزوغ الفكر القبلي مما كان له الأثر المباشر في تدهور الحياة العامة، هذا فضلا عن توالي الكوارث الطبيعية والتدخل الأجنبي. أمام الخطر الخارجي المحقق بالسيادة المغربية، كان من أهم أهداف الحركة السعدية بزعامة محمد الشيخ ترسيخ الوعي القومي والشعور الإسلامي بقوة الرابطة الإسلامية وبالتالي إحياء الدور التاريخي للغرب الإسلامي

16 - القبلي، محمد: "مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. العدد المزدوج 3-4 السنة 1978.

في الحد من المد الصليبي على دار الإسلام. بل واعتبر السعديون أنفسهم أحق بالخلافة الإسلامية من الأتراك بالنظر إلى نسبهم الشريف، حيث "لا يمكن للخلافة أن تكون بأيدي الأتراك لأنهم جملة من الممالك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين وجعلهم حصنا وسورا للإسلام وقلدوا الأمر في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق وهم موالينا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة"¹⁷.

وبالفعل يظهر من خلال تتبع المراحل التاريخية للدولة السعدية منذ تأسيسها إلى حين احتضارها مع الأخذ بعين الاعتبار تصريحات بعض سلاطينها أمثال محمد الشيخ، أن طموحات هذه الدولة كانت ترمي إلى مشروع وحدوي يتمثل في إحياء المجد التاريخي والدور البطولي للمغرب كما هو الحال أيام الموحدين. غير أن السعديين لم يكن هدفهم يتوقف عند توحيد بلاد المغرب وإنما يتجاوز ذلك إلى وحدة العالم الإسلامي والوصول إلى سدة الخلافة على اعتبار أنهم أحق بها لأنهم من آل البيت، في حين أن الأتراك ليسوا إلا مغتصبين لها من جهة، ومن جهة أخرى فكون مراكز عاصمة الموحدين هي عاصمتهم أيضا هذا يعني أن المغرب الأقصى هو مركز وقائد الغرب الإسلامي. فهذه القيادة مسؤولية تاريخية ملقاة على عاتق الشرفاء السعديين الذين أصبحوا أمام منطقة مجزأة إلى ثلاث دول بعد أن كانت مندمجة ضمن إمبراطورية موحدة. كما أن فشل الدولة المرينية في آخر عهودها في ضمان وحدة الغرب الإسلامي، فتح الباب على مصراعيه أمام الدولة السعدية لإحياء تلك الوحدة.

لقد بقيت فكرة توحيد الغرب الإسلامي إلى عهد السعديين تعتبر مسؤولية تاريخية حاضرة في ذهن كل الزعماء الذين تعاقبوا على حكم المغرب الأقصى. وبالفعل عمل السعديون منذ البداية على توفير شروط الاستقرار الداخلي حتى يتفرغوا لإنجاز المشروع الوحدوي وطرده الغزاة الأجانب. وقصد تحقيق هذه الطموحات، قام السعديون بتنظيم جيش قوي وبتوفير موارد مالية مهمة عن طريق إحياء تجارة القوافل وتطوير فلاحية قصب السكر واستخراج المعادن. كما أن السعديين فضلا عن نسبهم الشريف وتزعمهم حركات الجهاد ضد البرتغاليين بالسواحل المغربية، كانوا يتمتعون بشعبية كبرى خاصة بالمغرب الأوسط الذي دخله الأتراك مما دفع العديد من القبائل والأسر

17 - اكريم، عبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف المظاهر الحضارية. الدار البيضاء، شركة الطبع والنشر، الطبعة الثانية 1978 (ص 182).

والعلماء إلى اللجوء نحو المغرب الأقصى. كما سادت فكرة أن الدولة السعدية تستعد لطرد الأتراك من المغرب الأوسط، مما ساهم في "إذكاء روح القومية بين العناصر السكانية للمغرب العربي وبالتالي محاولة إحيائها اعتبارا للروابط التاريخية المشتركة والتي دعت إليها أكثر من مرة الحركة الفكرية المغربية وناشدت إلى بعث الدور التاريخي للدولة المغربية"¹⁸. كل هذه التحركات على صعيد العالم الإسلامي سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي تؤكد رغبتهم في إعادة وحدة بلاد المغرب كما تؤكد أيضا الروابط التاريخية المتينة بين الفئات الاجتماعية وفي المقابل رفضها التام للعنصر التركي الدخيل، بل وتواجد دعاة للسعديين ضد الأتراك العثمانيين في المغرب الأوسط وخاصة في تلمسان. وهنا يتدخل الباب العالي في شخص السلطان العثماني الذي كان يتطلع إلى استرجاع الأندلس ومجابهة الزحف المسيحي، حيث طالب بتوحيد جهود المسلمين لتحقيق ذلك وبوضع حد للتدخل السعدي في منطقة النفوذ التركي عبر ترسيم الحدود بين المغربيين الأقصى والأوسط. وكان لانتصار المغرب في معركة واد المخازن صدى واسعا في العالمين الإسلامي والمسيحي على السواء وعرفت بالتالي العلاقات السعدية العثمانية تحسنا واتسمت بالمودة وتبادل المراسلات وإعطاء الأولوية للدفاع عن حوزة دار الإسلام. أمام هذه الوضعية لم يجد السلطان أحمد المنصور السعدي سوى التوجه نحو الجنوب لتجسيد الدولة المغربية التاريخية والممتدة من نهر السنغال جنوبا إلى حوض البحر المتوسط وبلاد الأندلس شمالا. كما أدرك السلطان العثماني بدوره حقيقة المواقف والأحداث المستجدة، فطلب من المنصور السلم والأمان وخاطبه بقوله: "لك علي العهد ألا أمد يدي إلا للمصافحة وأن خاطري لا ينوي لك إلا الخير والمسامحة"¹⁹. وبقيت الأوضاع تراوح مكانها حتى إذا توفي أحمد المنصور سنة 1603م عرف المغرب اضطرابات كثيرة ناتجة عن تنافس أبناء المنصور على الحكم وعن التدخل الأجنبي في المغرب، مما أدى إلى ظهور كيانات سياسية مستقلة تزعمها أبو سالم العياشي في سلا وأبو محلي في تافيلالت وآل غيلان في منطقة الهبط وآل النقسيس في تطوان وأبو حسون السملالي في السوس، قبل أن تظهر قوة جديدة بتافيلالت تحت زعامة الشرفاء العلويين والتي استطاعت القضاء على هذه الكيانات وطرد المحتل الإيبيري من السواحل وبالتالي ضمان وحدة المغرب الأقصى بل ومحاولة إعادة توحيد بلاد المغرب.

18 - شحاتة، إبراهيم حسن: أطوار العلاقات المغربية العثمانية، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1949). الإسكندرية، منشأة المعارف 1981 (ص 137).

19 - الناصري، أحمد بن خالد: الاستقصا. مصدر سابق، الجزء الخامس 1955 (ص 97).

6- الشرفاء العلويون والدفاع عن وحدة المغرب:

كانت وضعية المغرب إبان ظهور الدولة العلوية وضعية جد متأزمة، حيث كانت الإمارات والدويلات التي أنشئت بعد انهيار السلطة السعدية تتصارع وتتحارب فيما بينها من أجل بسط النفوذ على كل الربوع، مما أدى إلى إضعافها جميعا وإنهاك قواها. وقد نالت الدولة العلوية كسب وتأييد الشعب المغربي باعتبار نسبها الشريف من جهة، ومن جهة ثانية بالنظر إلى الشعار الذي رفعته والمتمثل في ضرورة توحيد المغرب وإعادة مكانته المرموقة بين الدول المعاصرة وذلك بالقضاء على كل عوامل التفرقة والتمزق السياسيين فضلا عن ضرورة تحرير السواحل المغربية من الاحتلال الأجنبي. هذا وكانت الدولة العلوية كسابقتها الدولة السعدية، تطمح إلى قيادة بلاد المغرب وطرده الأتراك من المنطقة وإحياء وحدتها التاريخية خاصة بعد الشعبية التي تمتعت بها بعد توحيد المغرب الأقصى. هذه الشعبية التي تم التصريح بها باللفظ والسلاح عدة مرات من طرف سكان المغرب الأوسط بعد معاناتهم من ضعف السلطة العثمانية وكثرة الاضطرابات. فتجدد بذلك الصراع بين قوتين إسلاميتين تطمح كل منهما إلى فرض نفوذها على العالم الإسلامي، حيث تكرر في هذه الفترة نفس الخطاب السياسي الذي سبق أن حدث بين السعديين والأتراك حول من له الأحقية والشرعية في الخلافة. وبذلك كانت المناوشات سجالا بين الدولة العلوية وأتراك الجزائر خاصة والعثمانيين عموما، بحكم أن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتقدون بأنهم يمتلكون سلطة مكتسبة كما ادعوا أنهم هم ورثة الخلافة الإسلامية، بينما رأى العلويون أن من حقهم إحياء الخلافة الشريفة التي وجدت في الشرق الإسلامي، كما أكدوا أحقيتهم في حكم منطقة بلاد المغرب على الأقل باعتبارهم خلفاء الدول السابقة لهم. وقد أثارت هذه المطالب من طرف العلويين مخاوف الأتراك، ولذلك كان سوء التفاهم يتجدد دائما بين الطرفين لتمسك سلاطين المغرب "بلقب أمير المؤمنين وكانت أمنية سلاطين العثمانيين في أن يعترف لهم حكام المغرب بالسيادة الاسمية فقط، إلا أن هؤلاء كانوا على العكس يرون أنهم أحق من العثمانيين بتلك الزعامة الروحية لانتمائهم إلى النسب الشريف"²⁰. أمام هذا النفوذ الروحي والشعبي الذي كان يتمتع به السلاطين العلويون والذي كان يهدد النفوذ التركي بشمال إفريقيا خاصة وفي العالم الإسلامي ككل، حاول الأتراك بكل قواهم التصدي لأي تدخل مغربي في المغرب الأوسط إما عن طريق تشجيع التمرد ضد الدولة المغربية أو بواسطة الضغط على السلاطين أنفسهم إما عسكريا أو تقديرا لهم، لتوقيع معاهدة رسم الحدود التي تجعل من وادي تافنا

20 - العقاد، صلاح: المغرب العربي، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1980 (ص 131).

حدا فاصلا بين نفوذ القوتين، وهذا ما حصل على الأقل في عهد السلاطين العلويين الثلاثة الأوائل. ففي عصر المولى احمد بن الشريف (1050-1075هـ/1641-1664م) وبعد أن وطد نفوذه في شرق المغرب إلى حدود تلمسان ووهران، حيث بايعته القبائل المستقرة هناك "ثار الشعب الجزائري كله من شرق البلاد إلى غربها ضد الأتراك داعيا إلى السلطة السياسية بالمغرب... ولم يستطع الأتراك إخماد هذه الثورات إلا بالوسائل الدبلوماسية عن طريق إقناعهم لمحمد بن الشريف بضرورة التخلي عن هذه الثورة فتخلي عنها بسبب الظروف التي كان يوجد عليها"²¹. أمام هذه الوضعية لم يجد أترك الجزائري بدا من مراسلة السلطان العلوي وطلب وده. والرسالة²² في عمقها تعبر عن طبيعة الصراع بين العلويين والأتراك حول الزعامة الروحية لمنطقة المغرب، كما تعبر عن شعور سكان المنطقة قاطبة بالرابطة المغربية ورفضهم للوجود التركي، وتمثل الرسالة أيضا مخططا دبلوماسيا يستهدف الحد من شعبية العلويين وحصر نفوذهم بالمغرب الأقصى باعتبار ميول القبائل والسكان بالمغرب الأوسط إلى السلطة العلوية والتفافهم حول زعيمها المولى احمد. وقد رجعت السفارة التركية من سجلها في أواخر شعبان من سنة 1064هـ/1641م حاملة رسالة جوابية من السلطان العلوي إلى داي الجزائر عثمان باشا تتضمن تعابير الافتخار بالنسب الشريف وتصف الأتراك بالاحتقار وفيها يؤكد المولى احمد بن الشريف حقوق المغرب الأقصى التاريخية والقومية في زعامة بلاد المغرب وأن الوجود التركي بشمال إفريقيا اصطناعي وزائل وأن وحدة المغرب السياسية ظلت قائمة رغم الانقسام الأسروي الحاصل منذ العهد المريني²³. لقد كان لهذه الرسالة الجوابية أثر عميق في نفوس الأتراك نظرا للظروف العصية التي كانوا يجتازونها، لذلك أسرعوا بإرسال سفارة ثانية إلى المولى احمد في محاولة لإقناعه بالعدول عن موقفه الوحدوي وعلى قبول الصلح على أساس تعيين الحدود

21 - العماري، احمد: المؤثرات الحقيقية وراء موقف المؤرخين الأجانب من التدخل المغربي في تلمسان إثر احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، مجلة كلية الآداب. العدد 2-3 فاس 1979-1980 (ص 96-97)

22 - الرسالة أوردها الضعيف الرباطي في كتابه تاريخ الضعيف. مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية تحت رقم 758/د (الورقة 8-9) أولها: "الحمد لله... ولا زائد بعد حمد الله إلا مقصد خطاب الشريف الجليل القدر الصادق اللهجة والصدر، من رفق الله به فتوق وطنه وحمى به من أحزاب الأباطيل أنجاد أرضه وأغوار عطنه، حفيد مولانا علي وسيدتنا انتول وولد مولانا الشريف بن مولانا علي..."، آخرها: "ليبقى بيننا وبينكم الستر المديد على الدوام ونلغي كلام الوشاة من الأقوام... والله تعالى يوفقنا لأحمد طريق ويحشرنا مع جدك في خير فريق، آمين والسلام. وكتب في منتصف رجب الفرد الحرام عام 1064هـ".

23 - الرسالة أوردها الضعيف الرباطي في نفس المصدر (الورقات 9/ب، 10، 11، 12/أ) أولها: "الحمد لله الذي رفع حضوة العرب على العجم في الذوات والأقوال والأفعال..."، آخرها: "وأنتم بالإنذار احرسوا منا الأطراف والأواسط قبل أن تصيروا أنتم تنظروا على أبراجكم شواطيط وإن استبعدتموه من المغرب إنما غلبة وغصبا، إذ ورثتم دوله حيلة ودرعا ومكرا. والله سبحانه يؤيدنا وولاة الإسلام بمعونته ونصره ولا يكلفنا فوق الطاقة من أعباء نصبه وأمره والسلام... في أواخر شعبان من عام 1064هـ".

بين الطرفين. وقد قبل السلطان العلوي بالفعل هذا الصلح رغم أنه كان في موقف قوة وذلك حقنا لدماء المسلمين ومن أجل مواجهة الأخطار الداخلية في مملكته. ومما جاء في خطابه للأتراك: "...وإني أعاهد الله تعالى لا أعرض بعد هذا اليوم لبلادكم ولا لرعيحكم بسوء، وإني أعطيكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله"²⁴.

أما في عهد السلطان المولى الرشيد (1075-1082هـ/1664-1672م) فقد كان الاهتمام منصبا في تهديد عمائر المغرب الأقصى من أجل تكوين سلطة قوية قادرة على الوقوف أمام كل الأطماع الأجنبية. لذلك لا تذكر المصادر إلا أحداثا عابرة وقعت بين هذا السلطان وأتراك الجزائر ومن ذلك نفيه للدلائين إلى تلمسان ودفعه بقبائل بني يزناسن وبني زروال للدخول إلى إيالة الجزائر، مما جعل الأتراك يرسلونه مذكرين إياه باتفاقية الحدود التي وقعوها مع أخيه المولى أحمد. وبالرغم من الدعم الذي لقيه المولى الرشيد من سكان المغرب الأوسط، فإنه قبل بتجديد معاهدة الحدود مع الأتراك حقنا للدماء ومن أجل تقوية سلطته الداخلية في مواجهة الأخطار المحدقة.

أما السلطان المولى إسماعيل (1672-1727م) فقد حاول من جهته أن يحقق طموح السعديين وأخيه المولى أحمد بن الشريف في توحيد بلاد المغرب تحت زعامة المغرب الأقصى، "وكانت رؤيته في ذلك تقوم على ضرورة استرجاع الحقوق التاريخية والقومية التي اغتصبها الأتراك، وربما أن الأتراك كانوا يدركون بدقة هذا الموقف. فقد حاولوا بكل الوسائل القضاء على نظام الأسر الشريفة الحاكمة بالمغرب التي كانت تهددهم وتقلقهم باستمرار لما لها من تأثير على الجماهير في المغرب العربي وخارجه. وهذا ما يفسر المشاكل التي أحدثوها في وجه السلطان المولى إسماعيل داخل المغرب منذ وصوله إلى الحكم. حيث أطلقوا أو ساعدوا ضده عددا من الثوار كغيلان بمنطقة الهبط وآل النقسيس بتطوان وأحمد بن محرز في جنوب المغرب وأحمد بن عبد الله الدلائي بالأطلس المتوسط وتشجيع قبائل بني يزناسن في المغرب الشرقي على الثورة. وكل ذلك من أجل شغله عنهم ومحاولة الوصول إلى خلق انقسام دائم في المغرب الأقصى يساعد على تفتيت قوته العسكرية وإضعافها"²⁵. وقد أعطى المولى إسماعيل المغرب الأوسط الاهتمام الأكبر في سياسته سيما وأن الوجود التركي بهذا البلد خاصة وبكل شمال إفريقيا عموما في نظر السلطان العلوي كان يمثل وجودا غير شرعي، مما

24 - الناصري، خالد: المصدر السابق، الجزء السابع 1956 (ص 26).

25 - العماري، أحمد: مشكلة الحدود الشرقية بين المغرب والجزائر واستغلالها في المخطط الفرنسي للسيطرة على المغرب من حوالي 1830 إلى حوالي 1902. الرباط، جامعة محمد الخامس، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ الحديث والمعاصر 1981. الجزء الأول (ص 302-303).

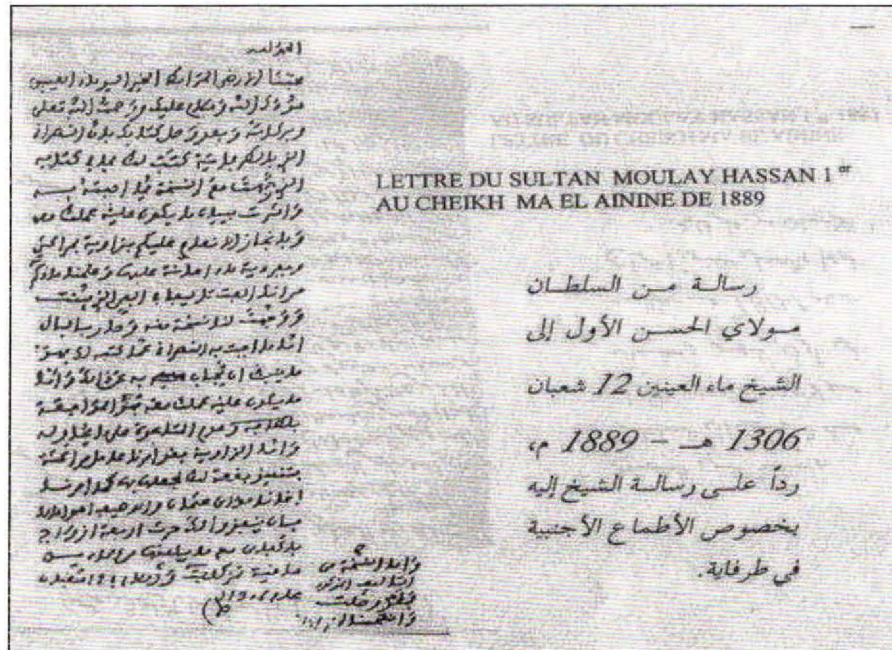
يوجب طردهم، بل وحتى لقب الخلافة يجب انتزاعه عن سلاطينهم لكونهم سوى مغتصبين له. ذلك أن هذا اللقب في نظر السلطان المولى إسماعيل يجب أن يبقى حكرا على الأسرة الشريفة. هذا في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يطمحون بدورهم إلى كسب اعتراف حكام المغرب لهم بالسيادة الاسمية على الأقل، وينزعجون لأي مطلب بالخلافة الإسلامية من طرف السلطة المغربية. ومن أجل تحقيق وحدة بلاد المغرب وطرده الأتراك منها، قام السلطان المولى إسماعيل بثلاث محاولات سنوات 1678 و 1691 و 1694م قبل أن يقبل بالصلح والهدنة مع الأتراك حقنا لدماء المسلمين ولمواجهة مشاكله الداخلية. "ولم يزل رحمه الله في مقاتلة المعادين من الثوار والعاصين من القبائل إلى أن دوخ بلاد المغرب كلها وطوعها وعرها وسهلها واستولى على تخوم السودان وبلغ فيها ما وراء النيل "نهر النيجر"... وامتدت مملكته من جهة الشرق إلى قرب بلاد بسكرة من الجريد ونواحي تلمسان"²⁶.

ومع موت السلطان المولى إسماعيل سنة 1727م دخل المغرب في فترة حرجة دامت ثلاثين سنة قبل أن يعيد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790م) الاستقرار والهيبة للدولة المغربية. هذا السلطان استطاع بذكائه وحنكته أن يجعل من المغرب دولة مهابة الجانب عبر سياسة الانفتاح والصدقة التي سنّها، مما خلق توازنا في السياسة الدولية اتجه سلطنته وكان محل تقدير واحترام من لدن جميع الملوك والسلاطين المعاصرين له وخاصة سلاطين آل عثمان الذين لم يبخل في إمدادهم بما يحتاجونه من العون المادي والمعنوي في سبيل حماية دار الإسلام من خطر الاحتلال الأجنبي. وبهذا حصل تغير جذري في العلاقات المغربية العثمانية من العداء والاصطدام العسكري إلى التعاون والمودة، ولم تسجل بالتالي أية محاولة للسلطان سيدي محمد لاستعادة وحدة المغرب الكبير. نفس الشيء وقع في عهد السلطان المولى سليمان (1792-1818م) حيث انكب كل طرف في شؤونه الداخلية، بالرغم من الفرصة السانحة للسلطان العلوي لضم المغرب الأوسط وعلى الأقل منطقتي تلمسان ووهران التي بايعته وخطبت له على المنابر. كما لم يستجب السلطان المولى سليمان لبאי تونس الذي حاصر أتراك قسنطينة سنة 1803م "قصد التحالف معه ضد أتراك الجزائر ومحاصرتهم من الجهة الغربية، إلا أن السلطان انتظر ولم يشأ التدخل في الجزائر في انتظار الفرصة المناسبة بالرغم من سطوة وتأثير الدرقاويين والتيجانيين بالجنوب الوهراني"²⁷.

26 - اليفراني، محمد الصغير المراكشي: نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. الرباط، مكتبة الطالب (د.ت) الطبعة الثانية (ص 305).
27 - Groupe d'auteurs : **Histoire du Maroc**. Casablanca, édition Hatier, Librairie Nationale 1982 (p 281).

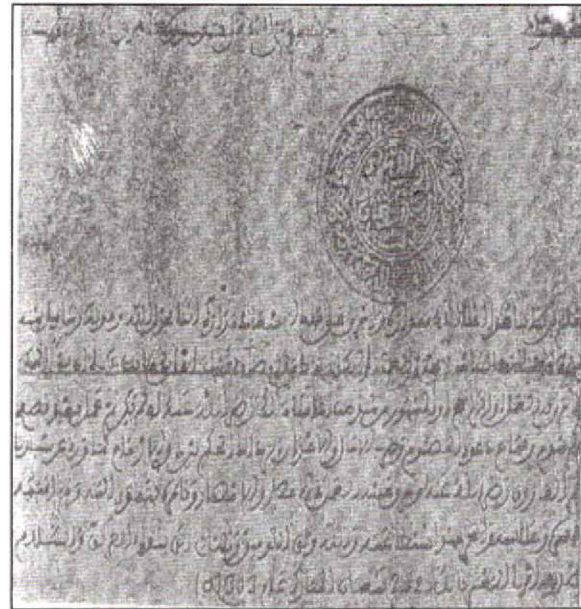
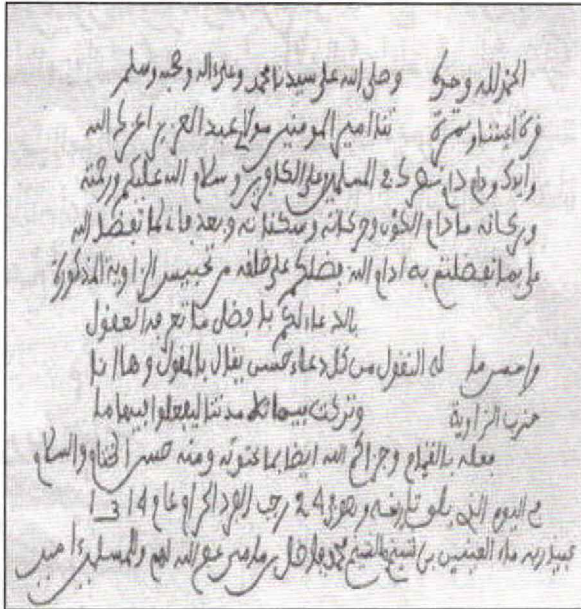
وجاءت سنة 1830م السنة التي احتلت فيها فرنسا الجزائر، صادمة لمنطقة المغرب وخاصة المغرب الأقصى الذي رأى في هذا الاحتلال مسا بمشاعره الدينية والقومية وتهديدا لوحدة الترابية. وقد اتجهت أنظار أهالي الجزائر إلى السلطان المولى عبد الرحمن رغبة منهم في الاحتباء به والدفاع عنهم ضد الغزو الفرنسي. "جاء أهل تلمسان ووهران وأعيان تلك المملكة إلى السلطان المؤيد ورغبوا في الدخول تحت طاعته والاكتناف في كنف ولايته"²⁸. وبالفعل قبل السلطان هذه البيعة وساند انتفاضة هؤلاء السكان بزعامة الأمير عبد القادر بن محي الدين ضد الاحتلال الفرنسي، إلا أن هذا الدعم اصطدم بهزيمة الجيش المغربي في موقعة إيسلي سنة 1844م وما تبع ذلك من توقيع اتفاقية لالة مغنية سنة 1845م على أساس ترك الحدود كما كانت عليه أيام الأتراك. وكان من تبعات هزيمة إيسلي ثم هزيمة تطوان سنة 1859م أن تطاولت أيادي الاستعمار الأجنبي على المغرب حيث تعرضت أراضيه فريسة لاحتلال ثلاثي: الحماية الإسبانية في الريف والصحراء والحماية الدولية في طنجة والحماية الفرنسية في باقي المناطق. ومع ذلك لم يتوان المغرب في الدفاع عن حوزة الوطن ووحدته الترابية، والأمثلة على ذلك كثيرة. فالمولى الحسن الأول الذي كان عرشه على صهوة جواده، كان يجوب كل مناطق المغرب ومنها الصحراء التي جدد شيوخ قبائلها البيعة له كما تدل على ذلك

الوثائق التالية:



رسالة من السلطان المولى الحسن الأول إلى الشيخ ماء العنينين في شأن الأخطار الأجنبية على طرفاية
(12 شعبان 1306هـ / 13 أبريل 1889م)

28 - أكنسوس، محمد بن أحمد المراكشي: الجيش العرمم. طبعة حجرية، فاس، خزانة القرويين رقم ط 408 الجزء 2 (ص 16).



رسالة من الشيخ ماء العينين إلى السلطان المولى
 عبد العزيز (24 رجب 1314هـ / 29 دجنبر 1896م)

ظهير السلطان المولى الحسن الأول يعين بمقتضاه
 الفقيه سيدي أحمد بن محمد ابن الأعمش قاضيا بقبيلة
 تاجكانت (24 شعبان 1303هـ / 28 ماي 1886م)

كما دعم المغرب كل الجهود الرامية إلى توحيد المغرب الكبير ومقاومة الاستعمار الأجنبي، ومن ذلك رابطة نجم شمال إفريقيا التي تأسست بباريس سنة 1923م بزعامة مصالي الحاج، ثم جمعية شمال إفريقيا للطلبة المسلمين التي تكونت في باريس سنة 1927م، ومؤتمر المغرب العربي بالقاهرة سنة 1947م، ولجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة سنة 1948م، هذا فضلا عن المقاومة المغربية وانتفاضة الشعب المغربي بعد نفي الملك محمد الخامس. فكان لكل هذه الحركات النضالية أن استرجع المغرب وتونس استقلالهما سنة 1956م. وبالرغم من أن الاستعمار لم يمنح المغرب كل حقوقه الترابية داخل حدوده التاريخية المعترف بها من نهر السنغال جنوبا إلى البحر الأبيض المتوسط شمالا ومن المحيط الأطلسي غربا إلى تلمسان شرقا ثم توات وكورارة وتكدلت وتندوف في الجنوب الشرقي، فإن ذلك لم يمنع المغرب سلطة وشعبا من مساندة الجزائر لاسترجاع حريتها إلى غاية الإعلان عن استقلالها سنة 1962م. كما لم يدخر المغرب جهدا في سبيل توحيد المنطقة حيث تزعم كل المبادرات الرامية إلى تحقيق هذا الهدف ومن ذلك: مؤتمر طنجة سنة 1958م، استكمال وحدته الترابية باسترجاع الصحراء عبر تنظيم المسيرة الخضراء سنة 1975م، تنظيم الاتحاد العربي الإفريقي بين المغرب وليبيا سنة 1984م وأخيرا توقيع اتفاقية مراكش سنة 1988م لإنشاء اتحاد دول المغرب العربي بين المغرب والجزائر وتونس وموريتانيا وليبيا. إلا أن هذه المحاولات المغربية لم تجد مع الأسف الأذان الصاغية عند

والصلاة والسلام على رسول الله
 محمد صاحب القبالة الملك المعظم سيدنا العبد الفقير
 ادع الله بمجرى ما يريد من عند وانما في مصاحفنا المشرقة
 وروحنا وعزت وازدهار
 لغرض من يا مولاي بكتابتك السلام واذا تم تحفي الطعيف
 المشلول يسير من حلالك من اكثر عاصمة الجوى بتدبير الرحمة وتاكيد
 العمود الذي كانت تتركه من اجلك في التعبير ومع ذراهم من آياتنا وآياتنا
 زبد لشرع حكيم تحمي في اياك وان كد هو الله سبحانه وتعالى ان يجعل
 احلامنا الشريفة وما عمل كل ما في وسعي المحض وما الى الغرض اعلم يا الله
 اني ا. تطل عاصمة الدنيا باذ اعلم الله واشهد ان لا اله الا الله
 في كما عظم واستراخع بين الطعيف في يدك التي هي كجودها بعبادتي وان
 ولا في وكلامك كما ميا يعنى في ميا بعد الله وكلامك كعامة الله
 قال تعالى ١. ان الومع بها يعونك انما بها يعون الله ير الله بنون
 ابراهيم. وقال تعالى ٢. يا ايها الذين آمنوا استراخعوا الله واكيعوا
 الرسول واو. فهو منكم. وقال تعالى ٣. ومن يتول الله ورسوله فلا
 حرب له مما تقاليدون. وقال تعالى ٤. ومن اوى الى الله من على الله
 يسوقه اجر عظيم
 مولاي. انما اياك واعا حرك كما ابيع وعادوا اجرا في اجرا
 التعبير وانما هو الله سبحانه وتعالى ان يجعل عمدا مستراخع في وسعي
 الومع عظم الله جلالة ما عظم به الزك الفهم وايدك بالعباد المشايخ
 والعزاء العظمى وبعث في محمدك (و) من لا يحقر من غير (و) انما
 التعبير الجوى مولاي خير وعظم الله في الشريعة كسلط. وحذ
 على يدك للعالم ما تصدرا اليه من عظم وعزله وازدهار جمع بين
 وعلى يدك كمد السليم في مشارع الله ورحمته وفضل
 والله على ما اشول وتواوكمي بالله شهيدي وكبري مع ويسا ونعمي
 والسلام على ما عظم الله في العلى ورحمت الله
 وعمر بن كاسر بن صالح يوم الاحد 27 شوال 1395 هـ
 12 ربيع 1297 هـ
 (و) ص
 الحاج محمد بن كاسر

165



الحدود التاريخية للمغرب في عهد السلطان المولى الحسن الأول

لم تنل قضية التجارب الحدودية في بلاد المغرب وتطورها التاريخي العام المكانة التي تستحقها بين الكتابات التي اهتمت بتاريخ هذه البلاد. فرغم الأهمية القصوى التي تكتسيها هذه القضية، فإنها لحد الآن لم تطرح من طرف الدارسين كإشكالية علمية تاريخية مستقلة، وإنما ظلت كإشارات عرضية ومواضيع جزئية تناولت تجربة ما ضمن سياق تاريخي عام. فقد عرف المغرب عدة محاولات لتوحيد الغرب الإسلامي بدءا من دولة الأدارسة وخاصة على عهدي الدولة المرابطية والموحدية، حيث كان المجال الترابي للدولة المغربية يمتد من نهر السنغال إلى تخوم بلاد الغال شمالا ومن محيط الظلمات إلى إفريقيا وما والاها شرقا. هذه الوحدة التي حاول المرينيون ومن بعدهم السعديون والعلويون المحافظة عليها بالرغم من صعوبة المهمة نظرا لظهور قوى خارجية في الساحة - الأتراك في المغربين الأدنى والأوسط ومملكة قشتالة وأراغون في الأندلس - ونظرا لتغير ميزان القوة لصالح الدول الأوروبية منذ بداية العصر الحديث وقيامها باحتلال منطقة شمال إفريقيا.

وتبقى محاولات الوحدة مستمرة إلى يومنا هذا، ذلك أن فكرة الوحدة كانت بالفعل ولا زالت قابلة للتنفيذ وتشغل على الدوام بال ساكنة المنطقة التي تتقاسم ملامح مشتركة من حيث التماثل الطبيعي والتكامل الاقتصادي والتفاعل التاريخي، ومن حيث الثقل الحضاري والتشابه العرقي والديني واللغوي والفكري. كما أن هذه الوحدة هي طموح ومصير المنطقة للخروج من براثن السياسة الاستعمارية التي عملت على بث روح التشتت والانقسام عبر خلق مشاكل مصطنعة تمثلت أساسا في رسم حدود وهمية وملغومة بين دول المنطقة حتى يدوم النزاع والتمزق فيما بينها في الوقت الذي أصبحت الوحدة هي مطلب كل شعوب العالم.

قراءة في الجزأين 26 و 27 من موسوعة «معلمة المغرب» الخاصين بالصحراء المغربية المسترجعة

ذ. مصطفى الشابي
رئيس الجمعية المغربية للتأليف
والترجمة والنشر - الرباط

تمثل موسوعة «معلمة المغرب» النقطة الثالثة في البرنامج العلمي والثقافي الذي تبنت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر إنجازاه، بعد مجلة «الكتاب المغربي» والمنشورات الجامعية الأخرى، وذلك منذ أن تأسست سنة 1980م، بمبادرة من صاحب فكرة تأسيس المشروع، ومهندساه، وراعيه علميا وماديا المرحوم بكرم الله الدكتور محمد حجي، وقد آزره، وساعده، ودل الصعاب إلى جانبه ثلة من صفوة الأساتذة الجامعيين والباحثين، كانوا كلهم يشاطرونه هم إصدار موسوعة علمية، تعرض فيها مواد وموضوعات حول تراث المغرب المادي واللامادي، منذ أقدم العصور وحتى يوم الناس هذا، ولكن بطريقة مبسطة ومختصرة، سعيا إلى نشر المعرفة وتعميمها في أوساط واسعة من جمهور القراء المغاربة وغيرهم.

وهكذا، وبعد أن تكونت لجنة علمية تولت الإشراف على إصدار موسوعة «معلمة المغرب»، وتم جرد المداخل والمواد حول تاريخ المغرب، وجغرافيته، ومؤسساته السياسية، والإدارية، والاجتماعية، والثقافية والاقتصادية...، وإسنادها إلى عدد من الكتاب والباحثين من ذوي الاختصاص في هذا المجال أو ذاك، صدر العدد الأول منها سنة 1989م، فصدر، منذ هذا التاريخ وحتى الآن 27 مجلدا، وانفرد الجزء 23 بالفهارس، في حين صدرت المجلدات: 24، و25 و26 و27 في شكل ملاحق، استدرك فيها عدد من الموضوعات والمواد لم ينتبه إلى إدراجها في المجلدات السابقة.

وإسهاما من الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر في تعميق المعرفة وتعميمها حول الصحراء المغربية المسترجعة، تقرر إفرادها بالجزأين 26 و 27 اللذين صدرا فعلا سنة 2014 طبعاً، هذا

لا يعني أن الأعداد السابقة من «معلمة المغرب» خالية من مواد حولها، بل سبق وأن نشرت فيها بحوث ومقالات، تعرض محرروها من خلالها إلى جوانب من تاريخها، ومجالها الطبيعي والبيئي ومؤسسات وتنظيمات سكانها السياسية، والاجتماعية والثقافية، وأسباب وأنماط وطرق استزاقهم وعيشهم إلى غير هذا مما تركز عليه مقومات العيش ماديا وفكريا في المجال الصحراوي المعروف بقساوة مناخه وبشح موارده الطبيعية، ولاسيما المائية والنباتية والحيوانية . ينضاف إلى هذا، الحرص على استبيان واستجلاء أنواع الروابط السياسية والثقافية التي ظلت تربط هذه الربوع الصحراوية بملوك وسلطين المغرب، منذ أن تأسست فوق أرضه أول دولة مركزية على يد المرابطين وحتى وقتنا الحاضر، هذه الروابط والعلاقات التي تعرضت إلى التصدع والتلاشي مع مطلع القرن العشرين، حيث دشن مسلسل اغتصاب الأراضي المغربية من طرف الاستعمارين الفرنسي والإسباني . وأيا كان الأمر، فقد قمنا بقراءة متأنية للكتابين المذكورين . والحق أننا استمتعنا بما ورد فيهما من بحوث وموضوعات شملت الإنسان الصحراوي، ومحيطه الطبيعي والبيئي، ووسطه الاجتماعي، وخصوصيات ثقافته، وطبيعة مؤسساته السياسية والتقليدية والحديثة، والتحويلات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفت بها الربوع الصحراوية منذ أن عادت إلى حظيرة الوطن الأم سنة 1975م، ثم عملنا على عد وتصنيف كل المواد المعالجة في المجلدين المذكورين، فكانت الحصيلة كالآتي:

- التراجع 268 : ترجمة

- القبائل، والجماعات والأسر وأولاد - أهل - بني 65 : (مادة).

- المواد الطبيعية تضاريس - وديان - غطاء - نباتي - وحيش 86: (... مادة).

- المعارك والمناوشات الحربية، والأحداث الكبرى والمعاهدات 113 : ... مادة

- الثقافة، والتقاليد والعادات 65 : مادة

المجموع 597 : مادة.

هذا، وقد توزعت تراجم الأشخاص على فئة العلماء والفقهاء، والأعيان، وشيوخ القبائل، وأرباب الزوايا، ومجموعة من الكتاب، والعسكريين، والحكام، والمغامرين الأجانب. فنجد، مثلا، من بين المترجمين الزعيم السياسي والعسكري لحركة المرابطين، أبو بكر بن عمر اللمتوني، ابن عم

يوسف ابن تاشفين (453-500هـ/1061-1107م)، والزوج الأول للسيدة زينب النفزاوية¹، أو الباحثة والكاتبة الفرنسية أوديت دي بويكودو (1894-1990, Odette Du Puigaudeau) الشهيرة بكتابات حول الصحراء وسكانها².

ووردت في الصفحة 512 من الجزء 27 كذلك ترجمة واحد من كبار أساتذة القانون العام في فرنسا وخارجها، ويتعلق الأمر بالأستاذ جورج فيدال (1910-2002 Georges Vedel) الذي أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن قضية المغرب العادلة، وقت استرجاعه أقاليمه الصحراوية.

ونقرأ كذلك في الصفحة 435 وما بعدها من الجزء 27 بعض أخبار وآثار الفقيه والأديب الطالب أحمد المصطفى التشتي الوادني المشهور بابن طوير الجنة ذي الأصل الأغماتي والذي كان قد رحل، صغيراً، في رفقة أسرته إلى بلاد شنقيط للاستقرار بها، وصار، فيما بعد، من أعلامها في مجال العلم والأدب. وأثناء توقفه بمدينة مراكش سنة 1245هـ/1830م، التقى بالسلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام الذي أكرم وفادته، وتولى الإنفاق على إركابه بحراً لأداء مناسك الحج لتعذر السفر برا بسبب شروع الفرنسيين في احتلال الجزائر. ونجد في الصفحة 105 من الجزء 26 مثلاً آخر ودليلاً قاطعاً على ارتباط سكان الصحراء المغربية المسترجعة بسلاطين وملوك الدولة العلوية الشريفة، منذ عهد السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف (1672م-1727م) الذي لم يتردد في اتخاذ إحدى بنات قبيلة المغافرة زوجاً له، وهي السيدة خنثة بنت بكار التي أنجبت له الأمير مولاي عبد الله وسلطان المغرب بعد وفاة والده.

ويتجلى لنا هذا الارتباط كذلك مما كان ينظمه من شعر أدباء الساقية الحمراء ووادي الذهب، تنوياً وتعظيماً لهذا السلطان أو ذاك. فهذا الشيخ أحمد بن محمد بن المختار البلعمشي المتوفى سنة 1898م، ينظم قصيدة في مدح السلطان مولاي الحسن، حيث جاء في مطلعها: (كامل)

إلى الأمير الكامل بن الكامل

نجل الأمير العادل بن العادل

مني سلام حافل وتحية

موصولة بمزيد خير نائل

1 - معلمة المغرب، ج 27، ص 562-563.

2 - ج 27، ص 492.

مولاي قد حسنت بكم أيامنا
وزهت بفعل للبرية شامل
لا غرو إن كنت الإمام وظله
في أرضه والسيف للمتطاول³

وهذا الشيخ أحمد بن محمد أنفال بن عبد الله بن المختار الحاجي الملقب بـ«الشمس» يكتب
إلى السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن (1894م-1908م) ما يلي:

"أمير المومنين أعزه الله ونصره، وأدام في العالمين تأييده وظفره، سيدنا ومولانا عبد العزيز
أيده العزيز، ونحى عن ملكه كل هزيز، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد، فليكن في
علم سيدنا أن النصارى أسبانيول اشتغلوا في البناء في الداخلة، موضع يكون بينه مع الطرفاية مسيرة
سبعة أيام أو ثمانية، ينبغي أن تكونوا من ذلك على بال. وهذا ما يجب به الإعلام وعلى المحبة
والسلام، في 7 شوال الأبرك عام 1319هـ، عبيد ربه أحمد بن الشمس، عن إذن من شيخه الشيخ ماء
العينين كان الله له في الدارين"⁴.

على أن هذا الفقيه وهو يثير انتباه السلطان إلى محاولات التسرب إلى الأراضي الصحراوية
المغربية والاستقرار في نقط من سواحلها الممتدة على طول حوالي 1700 كلم، إنما يقوم بذلك بعد أن
استأذن الشيخ ماء العينين (المتوفى سنة 1910م بتيڤزيت) في الاتصال بعاهل البلاد، وهو الأمر الذي
يعني أن الشيخ كان يعتبر المؤتمن الأول من قبل المخزن على سلامة وحماية هذه الربوع الصحراوية
المغربية ضد مختلف الأخطار والأطماع التي كانت تهددها، سواء كانت من تدبير الأوساط
الاستعمارية في كل من مدريد، وباريز والجزائر، أو من تخطيط مغامرين ومستكشفين إسبانيين
وفرنسيين على الخصوص.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من القول أننا نقرأ في مادة "عام الضرب" سنة 1325هـ/1907م⁵،
والضرب كما شرح ذلك محرر هذه المادة جمع ضربة التي تعنى في اللهجة الحسانية الوفد، أنه لما
تأكدت المخططات التوسعية، والأطماع الاستعمارية الأجنبية في الصحراء المغربية الأطلسية،

3 - معلمة المغرب، ج 26، ص 104-105.

4 - ج 26، ص 239-240.

5 - ج 27، ص 447 وما بعدها.

سارعت جماعة من العلماء، والفقهاء، ورؤساء وأعيان القبائل، وأرباب الزوايا وعددهم 58 فردا دون احتساب مرافقيهم من الأقارب والأعوان، الذين يمثلون جميع القبائل والجماعات بالساقية الحمراء وادي الذهب، بل حتى من البلاد الشنقيطية، قرروا التوجه إلى مدينة السمارة، مقر استقرار الشيخ محمد المصطفى بن محمد فاضل بن ميامين ماء العينين ملتجئين منه أن يسافر معهم إلى فاس للقاء السلطان مولاي عبد العزيز، وإبلاغه ما نزل بساحتهم من اعتداء وتطاول على أرضهم من طرف الأجانب، والعمل على حمايتهم والدفاع عنهم، وتمكينهم من السلاح والذخيرة للدفاع عن النفس وعن الأرض. وبالفعل، أكرم الشيخ ماء العينين، على عادته وعادة أرباب الزوايا، وفادتهم، ولبي دعوتهم وتوجه رفقتهم نحو الشمال في 4 يوليو 1907م، وعند وصول ركب الشيخ ماء العينين إلى مدينة مراكش، كان الأمر قد تم للأمير مولاي عبد الحفيظ بن الحسن، بعد أن تزعم حركة عصيان ضد أخيه السلطان مولاي عبد العزيز، ونجح في الظفر ببيعة أهل مراكش واعتلاء عرش البلاد. وكان شيئا لم يحدث، إذ أذن للوفد الصحراوي بملاقاة السلطان الجديد.

وبعد السلام على جلالته، وتقديم ما أتوا به من هدايا، جريا على تقاليد وأعراف أسلافهم مع أسلافه، شرحوا له الأوضاع السائدة في بلادهم التي أضحت عرضة لاعتداء وهجوم الأجانب في كل وقت وحين، طالين منه شد أزهرهم ومدهم بالسلاح والذخيرة والميرة للدفاع عن حوزة الوطن، وإفشال مخططات الاستعماريين والمغامرين. وبعد أن استمع المولى عبد الحفيظ (1908-1912م) إليهم، وأدرك مقصدهم وتبناه طلب منهم الالتحاق بأماكن نزولهم واستقرارهم، حيث، صدرت التعليمات بالاعتناء بهم والمبالغة في الاحتفاء بهم وإكرامهم، سيما وأن الشيخ ماء العينين هو الذي تولى رئاسة ركبهم وتحمل مشاق وعناء السفر بالرغم من سنه المتقدم. ومعلوم أن هذا الشيخ، منذ أن استقبله السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1822-1859م) في مدينة مكناس سنة 1858م، حيث كان في طريقه لأداء مناسك الحج، وهو محاط برعاية كبيرة من طرف جميع السلاطين الذين تعاقبوا على الحكم بعد هذا التاريخ، إلى درجة أن السلطان مولاي الحسن بن سيدي محمد (1873-1894م) قد عينه خليفه له في الأقاليم الصحراوية المغربية. ويكفي أن نستدل على ذلك بما نسبته مؤرخ مكناس الشريف عبد الرحمن ابن زيدان (1878-1946م) من قول إلى كل من مولاي عبد الرحمن بن هشام، وابنه وخلفه سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859-1873م)، وإلى مولاي الحسن، وثلاثتهم يستقبلون ويكرمون الشيخ ماء العينين وهو في الطريق إلى حج بيت الله الحرام، حيث خاطبه الأول قائلا: «أنت بمثابة ولدي»، وخاطبه الثاني: «أنت بمثابة أخي»، وقال «له الثالث»: «أنت بمثابة

والذي. «ورد هذا في كتاب ابن زيدان الموسوم ب: "النهضة العلمية على عهد الدولة العلوية"⁶
والذي أنهينا مؤخرًا تحقيقه وإعداده للطبع.
هذا، وقد خاطب الشاعر الأمين بن محمد المختار بن البدالي الديباني السلطان مولاي عبد
الحفيظ بقصيدة جاء فيها: (طويل)

فدى لأمر المومنين نفوسنا
وأموالنا أولادنا والأسباط
أعالي الذرى أتوك من كل أمة
قبائل عزمالهن أخالط
وماليط بالسبطين من علوية
ومن آل بوحبين ركبا أراهط
وكالوفد من آل الأشج وناقص
وأبناء شمس الدين حيث المراسط

وأرسل جماعات الجيوش وراءهم
مرابط خيل بعدهن مرابط
وحقق منك الظن أن ستمدهم
بوفق المنى أو وفق ما أنت شارط⁷
وأنت الذي تأتيك من كل وجهة
وفود الورى من حيث تنأى المساقط

ومهما يكن الأمر، فالكتابان المذكوران أعلاه حافلان بمواد وموضوعات أخرى حول المجال
الطبيعي والبيئي، وحول الغطاء النباتي والوحيش، والموارد المائية، والقبائل والجماعات، والمدن

6 - مخ.خ.س رقم 12652، ص 76.

7 - t.27 p. 448.

والقرى والتجمعات البشرية الأخرى، والعادات والتقاليد الاجتماعية والثقافية للسكان، والمؤسسات السياسية والاقتصادية التي أنشأتها الدولة المغربية بعد سنة 1975م في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للأقاليم الصحراوية المسترجعة. فمن ذلك مثلاً وعلى سبيل الاستئناس لا الحصر، مادة بعنوان: «وحيش الصحراء»، والتي قدمها محررها معززة بأرقام ومعطيات علمية حول الثروة الحيوانية المتنوعة التي تزخر بها أرض الصحراء المغربية المسترجعة وسواحلها، حيث نقرأ ما يلي: «... فهو (أي المحيط البيئي) يضم أكثر من 2400 نوع يتوزع على 92 نوعاً من الثدييات القارية، و334 نوعاً من الطيور، وحوالي 1530 نوعاً من اللافقاريات القارية، وأكثر من 7100 نوع من الوحش البحري، والصحراء التي أكثر من 55% من التراب المغربي، لها نصيبها الوافر من هذه الثروة الحيوانية»⁸.

وهناك مواد أخرى في هذا الموضوع ومحررة على نفس النهج ومن شأنها أن تستأثر باهتمام القارئ، هي كالاتي:

- الماء وتدبير الندرة عند المجتمع الصحراوي، (ج 27، ص 571 ص 576)
- الفرشة المائية بالصحراء، (ج 27، ص 495 وما بعدها)
- الغطاء النباتي بالصحراء، (ج 27، ص 475 وما بعدها)
- المحميات الطبيعية بالصحراء، (ج 27، ص 622-627)
- وفي مجال التنمية الاقتصادية والاجتماعية، يمكن الرجوع إلى المواد الآتية:
- وكالة الإنعاش والتنمية الاقتصادية للأقاليم الجنوبية بالمملكة⁹،
- التنمية الشاملة للأقاليم الصحراوية المسترجعة، مؤشرات حول التطور السريع والاندماج العضوي في الوطن¹⁰.
- الفلاحة وتربية الماشية بالصحراء¹¹.
- الصيد البحري بالأقاليم الصحراوية¹².

8 - معلمة المغرب، ج 27، ص 667 وما بعدها.

9 - ج 27، ص 672-676.

10 - ج 26، ص 180-193.

11 - ج 27، ص 495-507.

12 - ج 27، ص 410-418.

وقد أسهب صاحب هذه المقالة في القول، وأثبت بيانات ومعلومات رقمية ثمينة حول هذا القطاع، مبرزاً التطور المهم الذي عرفه منذ سنة 1975 وحتى بداية العشرية الثانية من القرن XXI، بفضل التجهيزات التحتية التي أنجزتها الدولة وساهم في إنجازها القطاع الخاص.

وأما المواد والموضوعات التي تطرق من خلالها أصحابها إلى الجوانب السياسية، والإدارية، والثقافية في مفهومها الأنطروبولوجي، وأريد منها استدراك أو إغناء ما ذكر عنها في المجلدات السابقة من موسوعة «معلمة المغرب»، فيمكن الاقتصار على ذكر البعض منها على النحو الآتي:

- جيش التحرير وإسبانيا في الصحراء¹³

- الحركة الثورية للرجال الزرق¹⁴ Morehob

- الحركة الطليعية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب¹⁵

- البوليساريو، Polisario¹⁶

- قرار محكمة العدل الدولية حول الصحراء¹⁷

- المسيرة الخضراء¹⁸

- المجلس الملكي الاستشاري للشؤون الصحراوية¹⁹

- الحكم الذاتي²⁰

- الحكم الذاتي لتقرير المصير²¹

وأخيراً، نورد هنا نماذج من المواد ذات الصلة بالمجال الثقافي، والعادات والتقاليد الاجتماعية والتي ينفرد بها سكان الصحراء المغربية المسترجعة، وهي كالآتي:

13 - معلمة المغرب، ج 26، ص 229-234.

14 - ج 26، ص 240-241.

15 - ج 26، ص 241-242.

16 - ج 26، ص 124-128.

17 - ج 27، ص 519-520.

18 - ج 27، ص 625-627.

19 - ج 27، ص 617-619.

20 - ص 252-256.

21 - ص 256-258.

- التاريخ الشفهي بالصحراء²²
 - التصوف بالصحراء²³
 - الصحراء في تاريخ المغرب²⁴
 - البيضان²⁵
 - الحكاية الشعبية في الثقافة الحسانية²⁶
 - الأمثال الحسانية²⁷
 - «التبلاج»
 - «التنكية»
 - «تارزيفت»
 - «الحرمة»
 - «الحفول» الاحتفال في اللهجة الحسانية²⁸
- تلكم كانت قراءتنا في العديدين الآخرين من موسوعة "معلمة المغرب"، أردنا من خلالها إعطاء نظرة عما جاء فيهما من مواد وموضوعات حول صحرائنا المغربية، آمليين أن نكون قد وفقنا في مسعانا، والله من وراء القصد والسلام.

22 - معلمة المغرب، ج. 26، ص 142.

23 - ج 26، ص 170-173.

24 - ج 27، ص 403-407.

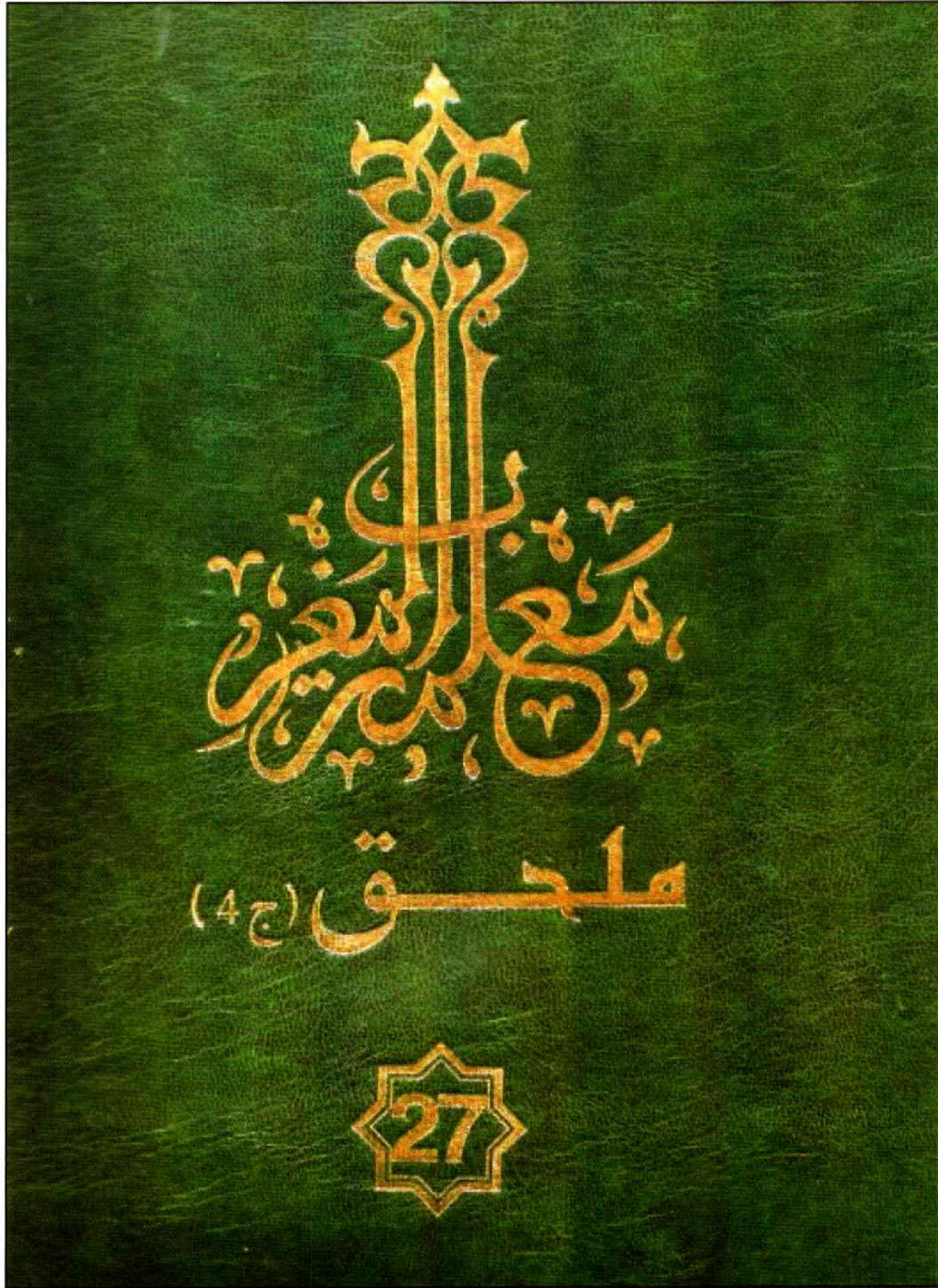
25 - أدب، ج 1، ص 131-132.

26 - ج 26، ص 248-252.

27 - ج 26، ص 57-58.

28 - مج 26، ص 248.

واجهة معلمة المغرب الجزء 27 الخاص بالصحراء المغربية المسترجعة



من مظاهر الولاء والبيعة التي جمعت بين قبائل الصحراء المغربية وملوكهم العلويين الأماجد

ذ. نور الدين بلحداد
معهد الدراسات الإفريقية
الرباط

أود أن أشير إلى أن هذه المساهمة ستكون جد مختصرة لكنها معبرة عن عمق وأصالة تلك الروابط التاريخية والقانونية التي ظلت تجمع بين كل مكونات المجتمع القبلي بالصحراء المغربية وبين الملوك العلويين الذين بادلوهم نفس المحبة والعناية اللازمة، هذه المحبة وهذا الوفاء ظل صامدا رغم التدخل الأجنبي الذي جرب كل الوسائل سواء العسكرية أو الدبلوماسية بل لجأ حتى إلى الإغراءات المالية لاستمالة القبائل الصحراوية إلى صفه ووعداها بحمايتها وتحسين ظروف معيشتها في هذا الوسط الصحراوي بشرط أن تعلن عن انفصالها عن وطنها المغرب الأم وتخلع رداء البيعة والولاء وترتدي معطف الحماية والتجنيس، بل ينبغي أن نؤكد على أن هذه الروابط ظلت قائمة رغم البعد الجغرافي عن مركز السلطة المركزية، ورغم شظف الحياة في هذه المناطق الشحيحة من حيث مصادر العيش، لكن الإنسان الصحراوي ظل وفيا لمبادئ آبائه وأجداده و متمسكا بهويته الإسلامية ومعتزا بانتمائه لبلده وفخورا بأعجاد تاريخه الحافل بالعديد من البطولات والمواقف النضالية التي دونها التاريخ وسجلها بمداد الفخر والاعتزاز. وحتى نقرب الصورة لكل من يهتم بتاريخ الصحراء المغربية سواء كان مؤمنا بعدالة قضية وحدتنا الترابية أو متنطعا بمحاول القفز عن طبيعة هذه الروابط التي تجمع بين قبائل الصحراء وملوكهم وبإخوانهم المغاربة لتحقيق أغراض دنيئة ورخيصة لمعاكسة مشروعية المطالب المغربية بخصوص السيادة المخزنية على هذه الأقاليم الصحراوية.

فمن المعلوم أن هذه العلاقات تضرب في عمق جذور تاريخ الدولة المغربية، لكننا سوف نكتفي بذكر البعض منها، ونشير في أول الأمر إلى ذلك الحدث التاريخي الهام الذي عبر من خلاله

سكان هذه الأقاليم على ارتباطهم بوطنهم المغرب والمتمثل في حلول وفد من أعيان وشرفاء ووجهاء وفقهاء وشيوخ القبائل الصحراوية من بلاد شنقيط والساقية الحمراء ووادي الذهب وبلاد وادي نون بمدينة فاس لتجديد البيعة والولاء لمولاي إدريس الثاني والوقوف بين يديه للتعبير عن حبهم لآل البيت الشريف والامثال لأوامرهم والسمع لكلمتهم أينما بانت لهم سواء لمؤازرة بعضهم البعض أو للجهاد لنصرة دين الله والدفاع عن أرض الإسلام.

وتتوالى الأحداث وتستمر اللقاءات بين مغاربة الشمال وإخوانهم بالجنوب، ولم تكن الصحراء عائقا في هذا الوصال والالتحام بل كانت القوافل التجارية في الشمال كفاس ومراكش وسجلماسة وأودغشت ووادي نون إلى الساقية الحمراء ووادي الذهب وبلاد شنقيط وصولا لأسواق السودان الغربي الذي ظل محتفظا ببعض مظاهر هذا التواجد المغربي في مراكز: تنبكتو - كاو - جيني - وفي حوض نهر السنغال والنيجر حيث منتهى العمارة للإيالة المغربية.

ولنهمس في أذن من له وقر فيها بخصوص تواصل هذه الروابط التاريخية ليقف معنا أمام حدث تاريخي آخر دونه التاريخ بحياد وبدون أية مجاملة أو منفعة شخصية ويتمثل هو الآخر في وفود العديد من شيوخ القبائل الصحراوية على الحضرة السلطانية الممثلة في شخص السلطان مولاي إسماعيل أثناء حلوله ببلاد شنقيط في العقد الثاني من القرن الثامن عشر. حيث تشرفوا بلقائه في بلدهم فجددوا له البيعة والولاء وانخرطوا في سلك الأتباع وخدام السلطان بل زادهم هذا السلطان مكانة وحظوة بمصاهرتهم ومنحهم من سلالة النسل العلوي الشريف أبناء وأحفاد منهم ملوك وعلماء وفقهاء حيث أنجبت زوجته خنثة بنت بكار المغافري سلطانا من صلبه حكم البلاد المغربية وأنجب لنا هو الآخر سلطانا علويا سارت بذكره الركبان حتى اجتازت الآفاق والبحار ووصل صيته إلى بلاد الدانمارك والسويد وروسيا القيصرية بل وصلت شهرته إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي كان من السابقين إلى تهنة رئيسها باستقلال بلده، إنه السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي أعطى صورة في الوفاء والإخاء وحماية دار الجار بمواقفه الداعية لتحرير واقتداء بعض زعماء الجهاد البحري من الجزائر الذين سقطوا في أيدي القراصنة الأجانب. كما أنه كان سباقا في حماية حقوق الإنسان قبل أن يظهر ذلك النداء العالمي في النصف الثاني من القرن العشرين، حيث نراه يعطي أوامره لقواده وأمناء المراسي المغربية الواقعة وراء وادي نون بالتدخل لإنقاذ الغرقى ومد يد العون لهم لنجدتهم ونقلهم إلى البر سالمين وحماية تجارتهم وأمواهم والحفاظ على عرض نسائهم ومساعدتهم على إقامة قداسهم الديني إذا رغبوا في ذلك. كما وجدناه حازما وصارما في كل ما يتعلق

بوحدة بلاده وخاصة أقاليمها الجنوبية، إذ رفض التنازل عن أية بقعة أرضية في سواحل الصحراء المغربية لبناء مركز إسباني للصيد البحري وأرغم السفير الإسباني خورخي خوان الذي استقبله سنة 1767م، بوضع يديه على فمه والاكتفاء بالتوقيع معه على معاهدة للسلم والتجارة.

وتتوالى الأحداث وتسقط معظم الدول العربية في قبضة الاستعمار ومنها بلاد الجزائر العثمانية التي عجزت عن التصدي للهجمة الفرنسية سنة 1830م، فما كان من سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن إلا الإعلان عن النفير لمساعدة إخوانه في الدين والجوار. فأمدتهم بالمال والرجال والأسلحة واستجار به العديد منهم لحماية أرواحهم المهددة بالقتل من طرف الفرنسيين. وبسبب هذه المواقف الشجاعة انهزم المغاربة في معركة إيسلي أمام الفرنسيين سنة 1844م وفرضت عليهم معاهدة للا مغنية سنة 1845م، والتي سيستغل بنودها العديد من الدول الأوروبية الطامعة في احتلال المغرب من سواحلها الجنوبية، وبسبب هذا التكالب الاستعماري تلقى المغرب هزيمة أخرى كانت قاسية وتركت وشما حارقا وواضحا على خد المغاربة في حرب تطوان أمام الإسبان سنة 1860م، ومنذ هذه السنة ستوضع علاقات قبائل الصحراء المغربية سواء بملوكهم أو بباقي إخوانهم المغاربة في الشمال على المحك وذلك بسبب تهافت العديد من الأجانب على ربط علاقات تجارية مباشرة مع القبائل ضاربين بعرض الحائط كل التحذيرات والاسترعاءات المخزنية الداعية إلى ضرورة الحصول على إذن أو ترخيص رسمي من السلطان لتمكينهم من النزول إلى سواحل الصحراء للمتاجرة مع سكانها، ومما زاد من خيبة أمل الأجانب امتناع العديد من القبائل الصحراوية عن المتاجرة معهم إلا بعد اطلاعهم على موافقة السلطان المغربي.

وتزداد هذه الروابط متانة وقوة، بعد حلول أحد أبناء القبائل الصحراوية بعاصمة البلاد مكناس، إنه الشاب آنذاك ماء العينين بن محمد فاضل بن مامين القلقمي الذي كان في طريقه للمشرق لأداء فريضة الحج سنة 1857م. فحظي باستقبال السلطان وجدد له البيعة بمكناس بعد أن جددها لنجله وولي عهده الأمير سيدي محمد بن عبد الرحمن خليفة والده السلطان على مراكش، وكانت هذه السنة بمثابة مفتاح الخير والبركات على أهل الصحراء، إذ ستتضاعف الزيارات وتحل العديد من وفود القبائل من كل أنحاء الصحراء، من فقهاءها وعلمائها وشرفائها وقضاتها، وسيخصص لهم استقبال يليق بمكانتهم ويدعوهم السلطان إلى المزيد من الحذر واليقظة لحماية سواحل الصحراء المغربية من أي تسرب أجنبي يطمع في احتلالها.

وسوف تزداد هذه العلاقات وهذه الروابط أكثر متانة مع اعتلاء السلطان مولاي الحسن الأول عرش أسلافه الأماجد سنة 1873م، وسيتولى هو بنفسه عملية الدفاع عن مغربية السواحل الصحراوية

أمام أطماع الأجانب وأعطى أوامره بضرورة تكثيف الاتصالات مع رعاياه هناك وحث قواده وأمناءه على المراسي الجنوبية لجعل العسس وفرض مراقبة دائمة حولها لمنع أي تسرب أجنبي، بل ذهب إلى حد المطالبة بإنزال أشد العقوبات في حق كل من يخالف هذه القوانين ويسعى إلى عقد صفقات تجارية مشبوهة مع الأجانب دون الحصول على ترخيص أو موافقة من السلطان، ونظرا للتطاول الذي قامت به بريطانيا بخصوص سيادة السلطان على الأقاليم الصحراوية وإقدامها على احتلال ساحل طرفاية سنة 1878م، وادعاء وزيرها المفوض بالمغرب جون درومند هاي بأن هذا الساحل خارج عن حدود البلاد المغربية ولا يخضع لسلطة ملك المغرب الذي لا تتجاوز سلطته حدود بلاد درعة¹. استفز هذا التصريح الرسمي السلطان مولاي الحسن الأول وعبر عن غضبه الشديد واستدعى الوزير البريطاني لمرakash حيث أبلغه احتجاجه الكبير عن ما فاه به ورد عليه بالقول.

"... وبعد فقد تكلمنا مع باشدورهم حيث كان بحضرتنا العالية بالله في شأن ما ذكر والمحل الذي نزل به فادعى أن ذلك المحل خارج عن إيالتنا فلم نقبل منه ذلك ورددناه عليه بما كنا وجهنا لك نسخة منه، ومن جملته الاسترعاء على نزول المذكور هناك بغير إذنا وتصرفه مع قبائل إيالتنا افتيانا وجعل الدرك عليه في كل ما بينا عن نزوله..."².

ولتعزيز سلطته في هذه المناطق الصحراوية، وجعلها خاضعة لأوامره وملزمة بنواهيها. بادر السلطان مولاي الحسن الأول إلى إصدار ظهير سلطاني شريف، عين بموجبه الشيخ ماء العينين نائبا سلطانيا على بلاد السوس والصحراء، وكلفه بالسهر على رعاية مصالح رعاياه هناك، وأن يكون عينا متيقظة للمخزن المركزي لحماية حدود المغرب الجنوبية من أي تدخل أجنبي.

ونعتقد على أن هذا الظهير كاف لإثبات حقوق المغرب السيادية على أقاليمه الجنوبية. لأنه أولا يمنح شرف التسيير والمراقبة لأحد بناء الصحراء البررة. بل جعله في منصب نائب للسلطان وهذا له دلالة في هرم السلطة ووظائف رجال الدولة، وثانيا تاريخ إصدار هذا الظهير كان في سنة 1879م، أي سنة واحدة بعد دخول الإنجليز لساحل طرفاية وخمس سنوات عن دخول الإسبان لشبه جزيرة وادي الذهب سنة 1884م ومما جاء في هذا الظهير.

"... الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله الطابع السلطاني وبداخله الحسن بن محمد الله وليه ومولاه . يعلم من كتابنا هذا أسماه الله وأعز قدره وجعل في الصالحات

1 - ب. ج. روجرز: 1981 تاريخ العلاقات المغربية- الإنجليزية حتى عام 1900 ترجمة: لبيب رزق، الدار البيضاء ص: 258.
2 - Nehli M : 1915- lettres chérifiennes, 1ère partie- Paris p : xLVIII.

طيه ونشره أننا استولينا بحول الله وقوته وشامل يمينه ومنته لحامله الفقيه السيد محمد بن فاضل ماء العينين السوسي الصحراوي تولية تامة شاملة على بلاد بني بعمران وسوس الأقصى ومن وراءهم بني جرار ومن فوقهم من الجزوليين قبيلة بعد قبيلة من الأعرابيين بالصحراء كلهم من بني باعمران إلى وادي نون للساقية الحمراء للطرفايا إلى منتهى العمارة من إيالتنا لتلكم البلاد نائبها أمر الله بأمرنا المعتز بالله وأن يكونوا عند السمع والطاعة لكلمتنا حيث بانت لهم وينصتوا لما فيها من الأمر والنهي وأن الفقيه الشريف المذكور استولينا عليهم ليكون نائبا عنا عليهم تولية تامة شاملة شرعية بحمد الله وعليه في ذلك بحسن السيرة وتقوى الله العظيم في السر والعلن وبذلك صير الإعلام في 12 ربيع الثاني عام 1296هـ³.

وأمام تطاول الإنجليز وتمسكهم باحتلال ساحل طرفاية، هاجمت قبائل الصحراء مركزهم بورت فيكتوريا سنة 1881م وأضرمت النار فيه فاحتج الوزير البريطاني دورمندهاي، وطالب السلطان بدفع غرامة مالية في حدود 12 ألف فرنك كتعويض عن الخسائر. وإذا كان هذا الاحتجاج البريطاني يحمل في ثناياه اعترفا رسميا بتبعية ساحل طرفاية لسلطة السلطان المغربي، فإذا لم يكن هو الحاكم الفعلي فلماذا يطلبون منه دفع تعويض مالي عن الهجوم الذي قام به الصحراويون. لكن السلطان مولاي الحسن الأول رفض الاستجابة لهذا الطلب جملة وتفصيلا، وأمر نائبه بطنجة بإبلاغ الوزير البريطاني بذلك وزاد قائلا:

"... وإذا كانت به أمتعة لرعتهم فإنه ليس بمفتوح للتجارة وأن الاسترعاء على وجود الأمتعة المذكورة بذلك المحل واجب لكون وجودها به خارجا عن القانون ومخالفا للحق"⁴.

بل سنجد هذا السلطان يتشبث بموقفه من تبعية الأقاليم الصحراوية لسلطته، ويقرر النزول إلى الجنوب ويقود بنفسه حركته السلطانية الأولى للسوس سنة 1882م. وهناك وفدت عليه جموع غفيرة من كل الأنحاء والأصقاع الصحراوية. وجددوا له البيعة والتزموا بالدفاع عن كلمته. وكان المشهد رهيبا. إذ كان السلطان يستقبل العلماء والفقهاء والأعيان ويوزع في نفس اللحظة ظواهر تعيين قواد مخزنين جددا مكلفين بالسهر على حدود المغرب الجنوبية وحماية سواحل الصحراء من رسو أي مركب تجاري لا يحمل أي ترخيص مخزني. ويكفي أن نذكر هنا أسماء بعض أولئك القواد الذين تحملوا هذه المسؤولية وأبلوا البلاء الحسن. كان منهم القائد المخزني المحنك دحمان ولد بيروك،

3 - نور الدين بلحداد: التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (1860-1934)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية

جامعة محمد الخامس الرباط، 2008، ص: 257.

4 - Lxi. م.س. ص: Nehli - 4

وأحمد العبوبي، ومحمد بن الكور الزفازي، واللائحة طويلة لا يسعنا الوقت لذكر كل أعضائها، ومن سوس بعث السلطان رسالة إلى الباشا حو بن الجيلاني يخبره فيها بنجاح حركته، ومما قال فيها: "... وذلك والحمد لله أن كافة قبائل القطرين المذكورين أي سوس الأدنى وسوس الأقصى، تلقوننا بأجمعهم بأنواع الأفراح وأصناف المسرات وقدموا من الهدايا ما رأوه من أولى المهمات وأعلنوا بواجب السمع والطاعة وحفيات التحيات ووسطهم شرفاؤهم ومرابطوهم وفقهاؤهم وأعيانهم وكبراؤهم..."⁵.

وتتجدد محاولات الأجانب لاحتلال بعض سواحل الصحراء المغربية وحاولت إسبانيا استغلال انشغال السلطان المغربي بقضية الاحتلال الإنجليزي لساحل طرفاية، فقررت هي الأخرى تعميق جراح المخزن المغربي وأعلنت سنة 1884م عن تمكنها من فرض حمايتها وذلك حسب زعمها على إقليم وادي الذهب⁶.

وهنا لابد من أن نفتح بابا لتصحيح بعض الأخطاء التاريخية والتي روجت لها الدعاية الإسبانية جيدا للحصول على حق وهو في الأصل باطل، فعن أية حماية تتحدث إسبانيا؟ وعن أي إقليم؟ فكل ما هناك هو أن مغامرها المدعو إميليو بونيلي تمكن من النزول في شبه جزيرة وادي الذهب وبنى بها كوخا من الأخشاب أطلق عليه اسم فيلا سيسنيروس "الداخلة حاليا"، ونصبت فيه الحكومة الإسبانية حامية عسكرية قوامها 21 جندي فقط، وهنا نتساءل هل يمثل هذا الكوخ الخشبي الصغير والبسيط كل أرجاء إقليم وادي الذهب الذي تتجاوز مساحته 190 ألف كلم²؟ وهل 21 جنديا قادرون على رد أي هجوم تقوم به القبائل في المستقبل؟

لا نريد الإطالة في هذا الكلام لأن لدينا الحجة الموثقة بأن إسبانيا لم تحتل إقليم وادي الذهب، بل بنت مركزا صغيرا في شبه جزيرة وادي الذهب مطلا على البحر ليسهل على رعاياها الفرار عبره من أي خطر، بالإضافة إلى أنها كانت توزع مبالغ مالية على شيوخ القبائل لكي لا يهاجموا رعاياها. فهل هذا هو الاحتلال. وهل هذه السياسة هي قوانين الحماية المزعومة. المهم أن السلطان لم يسكت عن هذه الادعاءات وقرر التصدي لها وإقبارها في المهدي. فأعلن الاستعداد للقيام بحركة ثانية للصحراء سنة 1886م، خاصة وأن قبائل الصحراء كانت سباقة لحمل السلاح وطرد الإسبانين، إذ تمكن أولاد باعمار وهم فخذة من أولاد دليم من الهجوم سنة 1885م على مركز الإسبانين وأضرمو

5 - رحلة المولى الحسن الأول إلى سوس سنة 1882، مخطوط ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط ص: 58.

6 - Emilio Bonelli : 1885, Nuevos Territorios españoles de la costa del sahara, Madrid.

النار في منشآته واستولوا على بضائعه، ثم أرغموا الإسبانيين على الفرار نحو البحر ومنه نحو جزر الكنارياس.

وتخلد الذاكرة الصحراوية هذا الهجوم تحت اسم معركة الداخلة التي كانت بمثابة جواب أهل الصحراء على هذا التطاول الإسباني وبمجرد وصول السلطان مولاي الحسن الأول إلى بلاد وادي نون في 13 ماي من سنة 1886م، وفدت عليه جموع من شيوخ القبائل وجددت له البيعة والامتثال لأوامره⁷. فنظم البلاد وأقام حامية عسكرية في كليمين ونصب قوادا جددا كلفهم بحراسة السواحل الصحراوية ومنع السفن الأجنبية من الرسو بها⁸. وأعرب للسكان عن رغبته في فتح مرسى بسواحل بلادهم ليسهل عليهم اقتناء كل ما يحتاجونه من مواد غذائية في حياتهم اليومية⁹.

ولتفنيذ المزاعم الإسبانية التي حاولت التشويش بها على القبائل والتي ادعت فيها أن أمير بلاد آدرار الشيخ أحمد ولد عايذة وأتباعه استجابوا لطلبها ودخلوا في حمايتها، توصل السلطان برسالة من قائده بالجنوب محمد بن الكور الزفاضي قال فيها:

"... وليكن في كريم علم سيدنا أيضا أن جميع قبائل الصحراء وأعيانهم كابن أحمد عيد وقبائلهم وابن سويد أحمد وقبائلهم وكمثل أهل الزوايا والشيخ المختار وعال الشيخ سيدي وأهل الحاج المختار وعال بارك الله وأهل التفغ والخطاط وتندغ جميعا وجميع الأبراك وغيرهم من قبائل الصحراء قد فرحوا بقدوم سيدنا لهذه البلاد ويطلبون له النصر والظفر ويطلبون الله أن يمتعهم بلقائه في بلادهم والحاصل أنهم يحبون سيدنا نصره الله وأيده وينصرون كلمته ويحسنون إلى من جاءهم بخبره يسرهم ما يسره ويسوؤهم ما يسوؤه..."¹⁰

وللاطلاع على المزيد من أحوال رعاياه بالصحراء، أمر السلطان نائبه الشيخ ماء العينين بالالتحاق به بكليمين وبعث له برسالة قال فيها:

"... اقتضت الداعية الروحانية والسابقة العرفانية استدعاءكم لملاقاتنا حين نقرب منكم ونحل بوادي نون إن داعية محبتكم لجنابنا قوية وعواطف أردافها عطرة سنية وهي كفيلة بتطلبكم لملاقاتنا..."¹¹

7 - أحمد ابن خالد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج: 9، السنة 1956، ص: 181.

8 - كناش رقم 152: موضوعه: خلاصة الرسائل الواردة على الفقيه الصنهاجي من جهات مختلفة. المكتبة الوطنية، الرباط، ص: 117.

9 - أحمد الناصري، م.س، ج: 9، ص: 181.

10 - انظر النص الكامل لهذه الرسالة ضمن كتاب: نور الدين بلحداد: التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية، ص: 278.

11 - نفسه، ص: 279.

وبعد نجاح هذه الحركة السلطانية واستجابة جميع القبائل للوقوف خلف السلطان للدفاع عن سواحل الصحراء، بعثت إسبانيا رسالة لمولاي الحسن الأول تطلب فيها أن يخبرها بحدود بلاده الجنوبية لكي تعرف المناطق التي ادعت أنها خاضعة لها بسواحل وادي الذهب. انتفض السلطان على هذا التدليس التي تسعى إليه إسبانيا. ووجه رسالة إلى نائبه بطنجة محمد الطريس وأمره أن يسلمها لوزير إسبانيا المفوض بطنجة السيد ديوسغادو قال فيها:

"... فأجبه بما حصله من أن حدها حيث الكرسي المستقل وهو مصر من ناحية والسودان من ناحية ومغنية من ناحية وأما وادي الذهب فقد بحث فيه أعراب هذه الناحية فأخبروا أن هذا المحل بناحية أولاد دليم وقبيلة تسمى بالعروسيين الذين هم بخدمتنا الشريفة..."¹².

ومنذ هذه السنة ستلجأ إسبانيا إلى سياسة الإغراء بالمال وبالمواد الغذائية والهدايا الثمينة لعقد تحالفات مع شيوخ القبائل والانضمام إلى صفها لإرغام المخزن المغربي على الخضوع للأمر الواقع والإعلان بأن هؤلاء الشيوخ دخلوا في حمايتها وأنهم غير ملتزمين أو معنيين بالأوامر التي يصدرها سلطان المغرب، لكن مساعيها خابت إذ طرح جل الشيوخ هذه الإغراءات الكبيرة التي كانت تسيل للعباب في وسط صحراوي شحيح من حيث مصادر الغذاء، وتمسكوا بهويتهم الدينية وبانتمائهم لبلدهم المغرب وشدوا بأناملهم بقوة على عقود البيعة التي ظلت تجمعهم بملوكهم كما كانت تجمع بين آباءهم وأجدادهم بملوك المغرب.

ويكفي أن نذكر في هذا الصدد المحاولات التي قام بها كل من الجاسوس اليهودي أسير الذي جندته إسبانيا من جزر الكنارياس ودفعت له للتدليس على قبائل الصحراء على أساس أنه مسلم قادم من الشرق تحت اسم محمد الصابر. ومحاولات القائد العسكري الإسباني كونزاليس الذي حاول إغراء الشيخ ماء العينين بأموال طائلة وقافلة محملة بالهدايا الثمينة والمواد النفيسة، وبعث إليه برسالة سنة 1892م، قال فيها:

"... ثم أخبرك وأثبت لك أن تجارة إسبانيا كلها بيدك وتحت أمرك في كل مكان وزمان وها أنا منتظر هدية كبيرة من ستين إلى ثمانين حمل حمل تريد الحكومة أن ترسلها لك ومتى جاءت أمشي بها بذاتي لك..."¹³.

12 - محمد بن عزوز حكيم: السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية، ج: 1، الدار البيضاء، 1981، ص: 135.

13 - نور الدين بلحداد، م.س، ص: 291.

وحاول السلطان من جانبه تحريك همم قواده بالجنوب، ودعاهم للمزيد من اليقظة والحذر من محاولات الأجانب والتصدي لهم في البحر ومنعهم من النزول إلى البر، وبعث لهم رسالة قال فيها:

"... وقد بلغ لعلمنا الشريف جولان بعض السفن من جهة البحر لناحية الساحل هناكم ورجوعها وذلك مما يوجب إيقاظكم ويقضي حزمكم واستنهاضكم. فجددنا لكم ولغيركم أمرنا الشريف بهذا تحريكا لعزائمكم بمزيد من الاهتمام في تصوين العسس المذكورة وتعاهد وظيفها وتجديد تأسيسها ورد المهمة لجهتها، فلتصرفوا بالكم لضبط أمرها وتقويم عددها وانتخاب رجالها والقيام على ساق الجد فيها. واجعلوا ذلك أكبر هممكم ومظهر عزمكم لأن مواضع التحصين هي معادل المراقبة والنضال وكبائر الرجا والرجال..."¹⁴.

وتكللت مجهودات ومسااعي السلطان مولاي الحسن الأول في دفاعه عن مغربية هذه الأقاليم الصحراوية، بتمكن نجله السلطان مولاي عبد العزيز من استرجاع ساحل طرفاية من يد الإنجليز سنة 1895م، بموجب معاهدة رسمية موقعة بين حكومتي البلدين اعترفت فيها الحكومة البريطانية بمغربية ساحل طرفاية وبكل المناطق الواقعة في شماله وجنوبه¹⁵.

وفي عهد هذا السلطان ستتضاعف العلاقات والروابط بين أبناء الصحراء وإخوانهم في الشمال، وسيستقبل مولاي عبد العزيز أكثر من سبعة وفود من أعيان وشيوخ قبائل الصحراء فيما بين 1896م و1907م وسيساعد نائبه على الصحراء الشيخ ماء العينين في بناء زاوية السمارة. إذ مكّنه بمبلغ مالي قدره 85 ألف ريال حسني. وبمواد البناء من أخشاب وجبص، وأرسل له بعض البنائين المهرة من وجدة، فكيك، فاس، سلا، مراكش، وادي نون، وأمرهم ببناء الزاوية بالسمارة وجعلها بمثابة معلمة إسلامية وبشكل هندسي مثل ما هو معروف في كل أنحاء البلاد المغربية. بل حتى أننا نجد إلى يومنا هذا تلك القباب والأقواس والزخرفة الهندسية ذات الطابع المغربي الإسلامي شاهدة على الأيادي البيضاء لهذا السلطان على رعاياه بالصحراء بل حتى أن الباب الرئيسي للزاوية والذي ما يزال قائما إلى يومنا هذا فقد صنع بمدينة فاس وتم نقله عبر البحر إلى مرسى طرفاية ومنها على ظهر الجمال ليصل سالما إلى السمارة.

وفي سنة 1900م، ستظهر أطماع دولة أخرى بالأقاليم الصحراوية إنها الأطماع الفرنسية التي ظلت راكدة منذ سنة 1845م. وتم تحريكها وإيقاظها في هذه السنة، لفصل الجنوب المغربي عن الوطن

14 - كناش رقم 328: موضوعه: تقييدات متنوعة عن العرائش والعدوتين والبيضاء والجديدة وآسفي والصويرة وفاس ومكناس - المكتبة الوطنية. الرباط، ص: 72.

15 - عبد الهادي مكار: وثائق وبطائق عن طرفاية، مخطوط ميكرو فيلم المكتبة الوطنية الرباط، ص: 4.

الأم، وكانت البداية من بلاد آدرار مع محاولات كزافيي كوبولاني. لكن قبائل المنطقة تصدت له ومنعته من تحقيق هدفه. وسارع النائب السلطاني بالصحراء الشيخ ماء العينين إلى إخبار الوزير الصدر الأعظم أحمد بن موسى بهذه التحركات المشبوهة للجيش الفرنسية في بلاد آدرار وبعث له برسالة قال فيها:

"... إن النصاري أهل أندر ثبت عندنا بالتواتر أنهم مشغلون بشراء الجمال والقرب، ويريدون بذلك النهوض لآدرار وبقي من في البلاد متحيرا فيما يفعل معهم. فالبعض يقول نحن في بيعة مولاي الحسن وابنه مولاي عبد العزيز ولا نقدر على فعل شيء حتى يخلف لنا مولاي عبد العزيز فيما نفعل والبعض يقول إن خرجوا إلينا وقدرنا على قتالهم قاتلناهم..."¹⁶

وأمام هذا العزم والحزم، حاولت فرنسا التقرب من الشيخ ماء العينين وإغرائه بالمال والجاء، ليخلع هو وأتباعه ومريديه بيعتهم للسلطان المغربي، فكان الجواب جازما وحازما ومعبرا من خلال رسالة هامة بعثها الشيخ ماء العينين للوزير أحمد بن موسى، قال فيها:

"... وليكن في كريم علمكم أنهم كثيرا ما يطالبونني بالعهد معهم وأنا أمتنع من ذلك إلا إذا كان على أيديكم، وفي أيامنا هذه أتاني كتاب من عند أخينا الشيخ سعد بوه أنه يريد مني أن أعاهدهم وقلت له إني لا أعاهدهم إلا إذا أرسلوا لي. وإن فعلوا فإني أعطيهم لهم على الوصف الذي يعطيهم لهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وقصدي بذلك أنهم إن أرسلوا لي أقول لهم إن الله تبارك وتعالى قال أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. ونحن أولوا أمرنا السلطان نصره الله وأنا لا أعطيكم عهدا إلا به..."¹⁷

واجتمعت كلمة أعيان القبائل الصحراوية وشيوخهم على ضرورة التعجيل بالذهاب إلى فاس لإخبار السلطان بالتهديدات الفرنسية وطلب الحصول منه على السلاح والذخيرة الحربية للتصدي لجيوشها. وتوصل كذلك الشيخ ماء العينين برسالة هامة من أعيان وشيوخ بلاد شنقيط يجددون فيها بيعتهم وولاءهم للسلطان مولاي عبد العزيز ويطلبون غوثه ونجدته من الهجمات الفرنسية، وازداد حنق فرنسا على الصحراويين بعد مقتل مغامرها كوبولاني سنة 1905م على يد أحد أتباع الشيخ ماء العينين ويدعى الشريف ولد مولاي الزين، وبسرعة استجاب السلطان لطلب رعاياه بالصحراء فشكل وفدا مخزنيا وجعله تحت رئاسة ابن عمه الأمير مولاي إدريس بن هشام بن عبد

16 - محمد بن عزوز حكيم، م.س، ص: 188.

17 - محمد بن عزوز حكيم، م.س، ص: 188.

الرحمن. وأرسله إلى الصحراء للدفاع عن حدود المغرب الجنوبية وأرسل معه كميات هامة من السلاح والذخيرة الحربية للمجاهدين الصحراويين¹⁸.

لقي المبعوث السلطاني ترحيبا كبيرا بالسمارة حيث وفد عليه شيوخ القبائل من كل حذب وصوب وجددوا له بيعتهم للسلطان بل أدوا له ما ترتب عليهم من زكاة وأعشار. حوالي 1100 حمل بيعت في الأسواق واشترى بثمانها المجاهدون الأسلحة لمقاومة الأطماع التوسعية الفرنسية، وبفضلها حققوا انتصارات باهرة بمعية المبعوث السلطاني مولاي إدريس انتصارات باهرة تقول بالساقية الحمراء ووادي الذهب المغربيين بل في عمق بلاد شنقيط حيث دارت هناك معارك شهيرة وعنف مع الفرنسيين في: أكجوجت - تيكجة - تشيت - الحوض - تاكانت - آدرار، خسرت فيها فرنسا العديد من جنودها الضباط، فثارت ثائرتها وهددت السلطان مولاي عبد العزيز باستعمال قوة السلاح لإرغامه على الكف عن إرسال السلاح للقبائل الصحراوية. بل نراها ترسل سفيتها الحربية kleber إلى ساحل طرفاية لمنع رسو المراكب المخزنية المحملة بالسلاح للمقاومين الصحراويين. بل ذهبت إلى حد الانتقام بقسوة من قبائل شنقيط وأعطت لنفسها حق قبلة خيامهم وردم آبارهم وقتل إبلهم، لا شيء سوى تمسكهم بأرضهم ومقاومة عساكرها. لكن كل ذلك لم يكن ليثني هذه القبائل عن التعبير عن تمسكها ببيعة السلطان وأعربوا عن ذلك في رسالة وجهوها لمولاي عبد العزيز قالوا فيها:

"... وبعد فإلى ظل الله في الأرض طولها والعرض كهف المسلمين وملاذ المؤمنين وعماد الدين وخليفة سيد المرسلين ومحط رحال الخائفين وغوث الراهبين وغيث الراغبين ومراعي مصالح المسلمين أجمعين أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز بن مولانا الحسن أيدك الله ونصرك وأعزك فمن هم في بيعتكم سلفا عن خلف أجمعون قبائل الشناجطة المتبوءون بلادا لم يكن للنصارى سبيل عليها من قبل وهذه البلاد فيها كثير من أهل الإيمان الحقيقيين فمنها آدرار بلد واسع قيم أمره خديمك سيدي أحمد بن عيد الذي عقده طابعك... كما أننا لا نرجو أن يخيب رجاء من رجاكم لنصرة دينه بل نرجوه أن ينصركم ويبلغ لكم ولمن رجاكم..."¹⁹.

وبسبب تعنت السلطان مولاي عبد العزيز ومواصلته إرسال السلاح للقبائل الصحراء قررت كل من إسبانيا وفرنسا نهج سياسة عسكرية موحدة على طول السواحل المغربية. وأرسلتا بعض

18 - رصدت عيون فرنسا أن السلطان بعث مع مولاي إدريس حوالي 2500 بندقية و16 صندوقا من الذخيرة الحربية.

وثائق وزارة الخارجية الفرنسية، مجموعة المغرب (مراكش). نانط.

19 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين: الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وسيط، ص: 26.

سفنهم الحربية la lande و alvaro Bazan لحصار المراكب المخزنية في ساحل طرفاية. ثم أخذت فرنسا تنسج خيوط الفتنة وإشعال نيران الثورات للضغط على السلطان مولاي عبد العزيز بل ذهبته إلى حد التدخل عسكريا واحتلال مدينة وجدة سنة 1907م والدار البيضاء في نفس السنة. وتتسارع الأحداث وتنجح خطة فرنسا الانقلابية للإطاحة بمولاي عبد العزيز وتنصيب أخيه مولاي عبد الحفيظ في أواخر سنة 1907م. وتصادفت هذه الأحداث مع وصول وفد من الصحراء برئاسة الشيخ ماء العينين إلى مدينة مراكش، وظن أتباع فرنسا أن الوقت مناسب لجعل هذا الوفد يخلع بيعته لسلطان المغرب. لكن الشيخ ماء العينين ومرافقيه ترفضوا في أمرهم ووجهوا صفة قوية تركت ندوبا ظاهرة على خذ فرنسا وحكامها في كل من بلاد الجزائر والسينغال وأعلنوا عن تجديد بيعتهم للسلطان مولاي عبد الحفيظ والاستمرار في الالتزام بأوامر السلطان والوقوف عند نواهيهم وبادلهم مولاي عبد الحفيظ نفس المشاعر. وشد من عضدهم وأمدهم بالمال والسلاح لمواصلة مقاومتهم ضد الجيوش الفرنسية ولم يعبأ بتهديدات قنصل فرنسا بفاس هنري كايار بل أمر أمناء الصورة وآسفي ومراكش بضرورة تخصيص نسبة من مداخيل الأموال التي يتحصلون عليها من الأسواق والمراسي وإرسالها عند نهاية كل شهر للشيخ ماء العينين نائبه بالصحراء لمساعدته على مقاومة أطماع فرنسا التوسعية²⁰.

آنذاك اقتنعت فرنسا أنه لا محيد لها إلا اللجوء إلى العنف واستعمال أسلحتها الفتاكة لإسكات صوت القبائل المناوئة لها. فتمكنت من احتلال بلاد آدرار سنة 1908م، وأخذت جيوشها تتطلع نحو المناطق الشمالية. فأصبحت وضعية الشيخ ماء العينين وأتباعه جد حرجية فطلب منه السلطان مولاي عبد الحفيظ الإسراع بالخروج من السمارة والالتجاء إلى مدينة تيزنيت للاحتماء فيها لكي لا يقع في أيدي الفرنسيين الذين ظلت أعينهم تترصده لقتله أو سجنه. وفي تيزنيت عقد الشيخ ماء العينين تجمعا قبليا شارك فيه كل من قبائل شنقيط ووادي الذهب والساقية الحمراء ووادي نون وسوس سنة 1910م لتدارس السبل الكفيلة لمواجهة الأطماع الفرنسية بفاس، فسارعت فرنسا إلى إقبار هذه المحاولة في مهدها بالقرب من قصبة أولاد زيدان بتادلا في نفس السنة. وعاد الشيخ ماء العينين أدراجه نحو تيزنيت لإعادة ترتيب صفوف أتباعه من المجاهدين والاستعداد الجيد للمواجهة الفاصلة لكن الأجل لم يسعفه إذ لبي نداء ربه وأسلم الروح لباريها في شهر أكتوبر من سنة 1910م، بعد مسيرة حافلة من الوفاء والولاء لخمسة ملوك علويين عاصروهم وبايعهم انطلاقا من مولاي عبد الرحمن إلى مولاي عبد الحفيظ ولم يتبدل تبديلا. ولم يغتر بطيب العيش الذي عرضته

20 - وثائق وزارة الخارجية الفرنسية. المحفوظة رقم 350 مجموعة المغرب (طنجة) فرنسا.

عليه كل من فرنسا وإسبانيا وبريطانيا وعلى الرغم من فرض معاهدة الحماية على المغرب سنة 1912م، واقتسام مناطق النفوذ بين فرنسا وإسبانيا، فقد ظلت أواصر وروابط البيعة والولاء قائمة بين السلطان المغربي ورعاياه بالأقاليم الصحراوية، ويكفي أن نذكر البعض منها ونجملها في:

- رغم القيود ومراكز الحدود والتفتيش، التي أنشأها المستعمر فقد تسلل وفد من أعيان وشيوخ وعلماء وفقهاء الأقاليم الصحراوية إلى العاصمة الرباط لمشاركة إخوانهم أثناء بيعتهم للسلطان سيدي محمد بن يوسف سنة 1927م. وجددوا له بيعتهم في رسالة مدونة بخط أيديهم كتعبير عن الوفاء والالتزام بالبيعة التي كانت في أعناق آبائهم وأجدادهم لأسلافه الكرام.
- رغم بعد المسافة فقد عبر سكان الأقاليم الصحراوية عن رفضهم الصريح للظهير البربري الذي أعلنت عنه فرنسا للتمييز بين سكان المغرب.

- ثمنوا جميعا مبادرة الإعلان عن وثيقة المطالبة بالاستقلال سنة 1944م.
- حلول وفد من أعيان الصحراء بالقصر الملكي بالرباط سنة 1946م لتجديد البيعة للسلطان سيدي محمد بن يوسف.

- رفض قبائل آيت باعمران بطاقة التجنيس التي عرضتها عليهم السلطات الإسبانية سنة 1947م، لفصلهم عن وطنهم المغرب.

- انتفاضة قبائل الصحراء قاطبة بسبب العمل الشنيع الذي أقدمت عليه السلطات الاستعمارية الفرنسية بنفي ملك البلاد محمد الخامس خارج أرض الوطن سنة 1953م، وعبروا عن استعدادهم للتضحية في سبيل عودة الملك الشرعي لبلده رغم أن من قام بهذا الفعل الشنيع هو فرنسا وليس إسبانيا التي يخضعون لسلطاتها. بل أعلنوا عن عدم الامتثال للأوامر الإسبانية بدفع الضرائب، وقاموا بتقصير الصلاة في كل المساجد وامتنعوا عن ذبح أضاحي العيد لستين، وألغوا كل مظاهر الزينة والأعراس والأفراح وارتدوا الأزياء ذات اللون الأسود الداكن تعبيرا عن حزنهم الشديد. وخرجوا في المدن والبادي في مظاهرات حاملين صور الملك محمد الخامس بيد والعلم المغربي بيد مرددين "ملكنا واحد هو محمد الخامس" وهنا نتساءل من دفع بهذه القبائل للتعبير عن سخطها واحتجاجها؟ هذا في وقت كان مناسبا لها لتعلن عن انفصالها عن المغرب.

- مشاركة وفد هام وكبير من أعيان القبائل الصحراوية في احتفالات المغرب بحصوله على الاستقلال، وجددوا بيعتهم للملك وأعربوا عن استعدادهم لمواصلة النضال حتى يتحقق الاستقلال التام ويلتحقوا هم الآخرون بوطنهم المغرب.

- تسمينهم لخطاب الملك محمد الخامس بقرية محاميد الغزلان سنة 1958م، على مواصلة الكفاح لاسترجاع الصحراء وإلحاق أبنائها بوطنهم الأم.

• رفض الجماعة الصحراوية لطلب فرانكو رئيس الدولة الإسبانية أثناء استقباهم بقصره بمديرية سنة 1975م، لمعرفة موقفهم من قضية المسيرة الخضراء. وهل سينضمون للجيش الإسباني لمواجهة الجنود المغاربة. فكان جواب الشيخ خاطري ولد سيدي سعيد الجماني كقطعة ثلج على قلب فرانكو عندما صرح أمامه بكل جرأة، لن نحارب معكم ولن نطلق أية رصاصة على أبناء عمومتنا المغاربة. فرد عليه فرانكو بملامح وجهه الشاحب. إذن انتهى الاجتماع، ثم انصرف يجر وراءه خيمة أمل كان يمني النفس بها لإحباط المسيرة الخضراء التي أعلن عنها المغفور له الحسن الثاني.

ثم وقف العالم مشدوها لحدث القرن وهو يتابع أطوار انطلاق المسيرة الخضراء ومدى استجابة شعب بكامله لنداء ملكه ونداء وطنه في مقولة شهيرة "لنصل الرحم مع إخوان لنا بالصحراء".

وانضافت معلمة أخرى إلى سجل أبناء الصحراء، وهم يرون رئيس الجماعة الصحراوية ووفود القبائل الصحراوية تجدد البيعة والولاء لملك البلاد المغفور له الحسن الثاني. وتستمر مسيرة الحق، ومشروعية المطالب المغربية باسترجاع إقليم وادي الذهب سنة 1979م، وتقبل ملك البلاد بيعة السكان بمدينة الداخلة في لحظة تاريخية معبرة وعفوية جدد من خلالها أبناء الصحراء بيعتهم وبيعة أبنائهم وأحفادهم للملوكهم العلويين الأماجد.

وتستمر حلقات الروابط التاريخية والقانونية التي تجمع العرش العلوي المجيد ممثلا في مولانا أمير المؤمنين الملك محمد السادس نصره الله برعاياه بالأقاليم الصحراوية وتزداد متانة وقوة رغم كيد الكائدين وأعداء وخصوم الوحدة الترابية وتفتح أبواب مشاريع تنمية هائلة لتحقيق حياة كريمة لسكان الصحراء وتمكينهم من الحصول على كل مستلزمات الحياة اليومية. وللتعبير عن حسن نية المغاربة قاطبة وسعيهم الحثيث لتحقيق سلم عادل بدون غالب أو مغلوب وتمسكهم بخصلة حسن الجوار التي دأبوا على نصرتها والقيام بها مع جيرانهم كلما دعت الظروف لذلك. وقد أعلن صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأعز أمره عن رغبته الصريحة لإنهاء هذا الخلاف المفتعل حول مغربية الصحراء. وقدم هدية للخصوم وللأصدقاء ومن خلاهم لكل دول العالم بإعلانه بكل جرأة وشجاعة رغم إيمانه بعدالة قضيته عن منح حكم ذاتي لسكان الصحراء وتمكينهم من تدبير شؤونهم الحياتية بأنفسهم تحت السيادة الكاملة للمملكة المغربية. ويكفي أن نستحضر في هذه اللحظات والقلم يرتجف بين أناملنا تلك اللحظة التاريخية التي استقبل فيها أبناء الصحراء مولانا أمير المؤمنين بمدينة العيون يوم 6 نونبر 2015م لتخليد الذكرى الأربعين لانطلاق المسيرة الخضراء، بشبابهم وشيخهم ونسائهم ورجالهم والكل يهتف بحياة الملك ويردد كلمات الحب والوفاء. عاش الملك، عاش المغرب، والصحراء مغربية وستبقى مغربية.

الجهوية المتقدمة بالصحراء المغربية عربون وفاء للبيعة الشرعية للملوك العلويين

ذة. ماجدة كريمي
رئيسة مركز الدراسات والأبحاث
حول الصحراء المغربية والامتداد
الإفريقي والتنمية الجهوية

لقد شكلت البيعة لأكثر من اثني عشر قرناً آلية أساسية للسلطة السياسية بالمغرب، فهي إحدى الركائز الملزمة لتثبيت الحقوق والواجبات المتبادلة بين أمير المؤمنين ورعيته، بين الملك وشعبه من أجل تحقيق العدل والإنصاف، وعليه تبقى البيعة الوسيلة المثلى للاستقرار والأمن.

وهي تقوم منذ عهد الشرفاء الأدارسة إلى حدود الشرفاء العلويين على أساس إسلامي مستمد من القرآن والسنة. فإذا كان القرآن الكريم قد شدد على ضرورة أخذ البيعة لولي الأمر¹، فالأحاديث النبوية الشريفة عملت على تركيتها وتثبيتها بحكم أن نظام البيعة يجسد الشرعية الدينية لإمارة المؤمنين².

والحق أن البيعة بالمغرب لا تعد مقوماً روحياً دينياً فحسب، ولكنها تتجاوز ذلك بكثير، فهي أساس قانوني لإثبات سيادة المغرب على امتداده الترابي. فإذا كان يشهد بانتماء كافة الأقاليم للمملكة المغربية الشريفة بتقديم البيعة، فمحكمة العدل الدولية لاهاي وقفت على هذا العنصر كمعطى أساسي يؤكد سيادة المغرب على صحرائه، الأمر الذي يثبت أن الالتزام حتمي بين البيعة والسيادة، الأولى تنتج الثانية مباشرة ولا تقوم بدونها، والاقتصار على إقرار وجود روابط بيعة دون سيادة هو طرح فارغ من أي معنى.

1 - «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يد الله فوق أيديهم، فمن نكث فإنها ينكث على نفسه، ومن أوفى بها عاهد عليه الله فسنوته أجرًا عظيمًا». سورة الفتح، الآية: 10.

2 - "من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية".

ولنستحضر جميعا بعض تجليات هذه العروة الوثقى بالصحراء، فمن أهم المظاهر التي تؤكد تقديم القبائل الصحراوية للبيعة هي تلك الظواهر التي كان السلاطين العلويون يرسلونها لأشهرها. فالتوسع رقعة الإيالة الشريفة دفع بالسلاطين إلى تعيين أشخاص يمثلونهم حتى يمكن للأوامر السلطانية السريان في مجموع البلاد، وكانت مهمة ممثلي السلطان هي الحفاظ على الأمن والطمأنينة بالمنطقة وإخاد كل ما من شأنه أن يشعل نار الفتنة، وكذا جمع الجبايات الشرعية وتوطيد علاقات البيعة الشرعية بين الطرفين³.

هذا وكان الدعاء بالمساجد في صلاة الجمعة أحد المظاهر التي تركز عملية تقديم البيعة. فانتفاء سكان الصحراء لمجتمع رحالة لم يمنع من ممارسة ذلك أمام غياب أماكن ثابتة للصلاة (المساجد) فقد كانت تقام صلاة الجمعة أينما حلت القبيلة ويلقى الدعاء للسلطان العلوي، وهنا نستدل برسالة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى الشيخ سيدنا المختار الكبير وفيها يقول: "وبعد ... فقد وصلنا كتابكم وعرفنا ما فيه، وعلما ما أنتم عليه من المحبة لجانبنا ومواظبة الدعاء الصالح لنا فذلك الظن بكم والمعهود منكم جزاكم الله خيرا"⁴.

فإذا كانت هذه شذرات طفيفة من أشكال بيعة أهل الصحراء فماذا عن تجليات هذه البيعة المقدمة من طرف القبائل الصحراوية للسلاطين العلويين في ظل ما خوله لهم مغرب العهد الجديد؟.

3 - للمغرب طابع خاص بشأن "البيعة"، فهو الدولة الوحيدة التي لم تكف بالبيعة الشفوية، بل حرص على أن تكون مدونة، وقد تم اعتماد تقنية العقد المكتوب في ذلك.
للتوسع أكثر انظر:

- القلقشندي، "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، تصنيف وإعداد: محمد قنديل البقلي، إشراف: سعيد عبد الفتاح عاشور 1972.
- ابن زيدان، "العز والصولة في معالم نظم الدولة"، المطبعة الملكية، الرباط 1961.

هذا وعمل المغرب على تطوير هذه الطريقة فضمنها خلال الفترة المعاصرة في دساتيره (من دستور 1962 إلى حدود دستور 2011). ففي هذا الدستور تأتي مؤسسة أمير المؤمنين، والتي يكون فيها عقد البيعة عقدا ملزما يتجدد من طرف الشعب لكل سلطان يتولى الحكم، ممثلة في الملك باعتباره الممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها وضامن دوام الدولة واستمرارها والضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة. (انظر الفصل 41 - 42 من دستور 2011).

- عبد الحق الذهبي، "قضية الصحراء المغربية ومخطط التسوية الأممي: دراسة قانونية وسياسية في مسارات التسوية في نطاق المنظمات الدولية"، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2003، ص: 99 - 107.

- السعيد بوركبة، "أضواء على عمق الروابط بين قبائل الصحراء المغربية وملوك الدولة العلوية"، مجلة دعوة الحق، العدد: 341 مارس 1999، ص: 97 - 98.

4 - محمد بن عزوز الحكيم، "السيادة المغربية في الأقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية"، ج: 1، الدار البيضاء 1981، ص: 136.

من أشهر القبائل تذكر: ولاد دليم / أسرة آل بودميعة / أسرة آل بيروك / أسرة الشيخ ماء العينين.

منذ استعادة المغرب لصحرائه سنة 1975 والقبائل الصحراوية لا تتأخر عن التعبير عن مبايعتها للعرش العلوي المجيد.

وإذا كان عهد المغفور له الحسن الثاني وهو الذي قال: "يمكننا أن نذهب في اللامركزية إلى أبعد الحدود ما دما نؤمن بالبيعة" قد سجل بيعة مشهورة هي بيعة السيد خطري ولد سيدي سعيد الجماني في 2 نونبر 1975، فقد تلتها بيعة سكان الداخلة ووادي الذهب وهي مؤرخة ب 13 غشت 1979 ومحركة من قبل القاضي السيد حبيب الله بن أبوه وموقعة من طرف ممثلين عن مختلف القبائل الصحراوية.

وقد استمرت هذه المبايعة على عهد جلالة الملك محمد السادس فاتخذت تجليات جديدة. بالفعل، وإلى جانب شكلها التقليدي الذي يتم فيه الحفاظ على الطقوس المتوارثة عن الأجداد، اتخذت البيعة شكلا عمليا جسده بامتياز الانخراط الفعال للقبائل الصحراوية في ورش الجهوية المتقدمة استجابة لما يوفره لهم أمير المؤمنين من عدالة وحسن تدبير⁵.

وإذا كان من حديث عن العدالة، فلنستحضر بداية المفهوم الجديد للسلطة الذي بات متبعاً بالمغرب منذ سنة 1999، وهو مفهوم يؤسس لثقافة قوامها الاقتراب أكثر من المواطن واستيعاب مطالبه ثم إشراكه في التدبير طبقاً للمقاربات المتعارف بها دولياً في هذا المجال. فقد بات المواطن في صلب كل المبادرات التنموية خاصة بعدما عاشه المغرب مما يمكن تسميته بتوافق تاريخي حول مشروع ديموقراطي اجتماعي⁶.

بالفعل فالمغرب بسننه دستور 2011، قد أسس لديموقراطية فعلية حقيقية، حصلت فيها الأقاليم الصحراوية المغربية على ضمانات صيانة هويتها الثقافية باعتبارها؛ إذ ينص الفصل الخامس من بابه الأول على أن الدولة ستعمل على صيانة الحسانية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الهوية الثقافية المغربية الموحدة⁷.

5 - الشروط التي يجب أن يتصف بها أمير المؤمنين هي: الإسلام/ العلم/ العقل/ العدالة/ حسن التدبير والإدارة.

6 - بعد الخطاب الملكي التاريخي بتاريخ 9 مارس 2011، سجل المغاربة بل والعديد من الأنظمة من المجتمع الدولي، انخراط المغرب انخراطاً كلياً وقوياً في مسار ديموقراطي متطور. وكيفنا دليلاً على ذلك: تعيين المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي/ تحويل المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان إلى مجلس وطني/ تحويل ديوان المظالم إلى مؤسسة الوسيط ... وغيرها من الإصلاحات الكبرى.

7 - لقد شدد الدستور الجديد التأكيد على أن الديمقراطية والتنمية الاجتماعية باتت إحدى الثوابت الأساسية للمغرب وبهذا فدعوته لصيانة الحسانية تعد بحق شكلاً من أشكال الديمقراطية الثقافية، بل ومكبساً للتنمية الاجتماعية بالأقاليم الصحراوية المغربية إذا ما تمت الاستفادة من التراث الحساني المادي منه واللامادي.

وإذا كان من حديث عن حسن التدبير فاختيار المغرب لنفسه نظاما جهويا متقدما انخرطت فيه جميع ربوع المملكة المغربية الشريفة بما فيها الأقاليم الصحراوية، يعتبر أقوى دليل على حكمة إدارية حقة. فهذا النمط من التسيير يعتبر بحق نموذج التدبير الإداري الرصين بما يتحقق فيه من المستوى المطلوب من اللامركزية⁸.

وهنا أريد أن أعود إلى سنة 1992 وبالذات إلى 15 من شهر شتنبر إذ جاء الحديث عن الجهوية على لسان المغفور له الحسن الثاني حيث قال: "إن المغرب بمثابة سيفساء بشرية وجغرافية، ولهذا الغرض أريد تحقيق اللامركزية لأترك يوما الجهات تتمتع باستقلالية كبيرة (...)" وذلك سيكون بالتأكيد في مصلحة المغرب الحديث".

فإذا كانت بداية الحديث عن هذا الورش في التسعينات، فتفعيله تم بكل عزم مع العهد الجديد انطلاقا من الخطاب الملكي الذي ألقى في 6 نونبر 2008. وهو خطاب جاء لإخبار المغاربة بأجراً ما تبناه المغرب من إصلاحات شاملة تعد الأقاليم الجنوبية منطلق تفعيلها بحكم أنها المختبر المجالي المؤهل ليترجم بامتياز ممارسة للامركزية الترابية في إطار الدولة الموحدة.

وهذا ما تمت الإشارة إليه بشكل واضح إذ قال جلالتة: "قررنا، بعون الله، فتح صفحة جديدة في نهج الإصلاحات المتواصلة الشاملة التي نقودها، بإطلاق مسار جهوية متقدمة ومتدرجة تشمل كل مناطق المملكة، وفي مقدمتها جهة الصحراء المغربية مؤكدين عزمنا الراسخ على تمكين كافة ساكنتها وأبنائها من التدبير الديمقراطي لشؤونهم المحلية ضمن مغرب موحد".

فالمغرب سار إذن في نهج تنموي حدائي استلهم من المرجعية الدولية، لكنه اعتمد بشكل قوي على المتطلبات والمقومات الداخلية المحلية خاصة وأن الجهوية المتقدمة ليست غريبة على الممارسات السياسية التي ميزت الدول المغربية في العديد من مراحلها.

فلنغوص في أقدم حقب تاريخ الدولة المغربية مستلهمين منها لبنات هذا التدبير الإداري بالأقاليم الجنوبية⁹ وتكون الدولة الإدريسية محطتنا الأولى.

8 - إن الأسرة الدولية اليوم - وهي تراهن على تحقيق التنمية- تعمل على ترسيخ نظام اللامركزية، وبما أن التنمية لا تخضع لنمط أحادي بل كل دولة لها من الخصوصيات والمؤهلات ما يجعلها تختلف عن دولة أخرى في اختيار النهج الذي تبناه لتحقيق تلك التنمية، فإن المغرب - ضمن هذه المنظومة الدولية- اختار لنفسه الجهوية المتقدمة.

9 - للتوسع أكثر انظر:

ماجدة كريمي، "الحكم الذاتي بأقاليمنا الصحراوية: المراكز التاريخية"، مطبعة فاس بريس، 2010.

إن تقسيم محمد بن إدريس بن إدريس الدولة الإدريسية إلى ثمانية أقاليم يعد إقليم لمطة وما يليه جنوباً، يبرهن على سمو الإبداع السياسي؛ إذ يمثل أعلى مستويات الحنكة في التدبير السياسي، لأن توفير تسيير ديمقراطي لم يكن يتسنى له الوجود بدون تقطيع الدولة الإدريسية المترامية الأطراف.

لنسجل نفس المنحى على عهد المرابطين، فبظهور الدولة المرابطية على يد يوسف بن تاشفين ظلت أشهر البطون الصنهاجية (جدالة/ مسوفة/ لمطة/ لمتونة) ومن ينضوي تحت لوائها من بطون صنهاجية أخرى بزعامة - أبي بكر بن عمر - تؤكد تمثيلية حكم "أمير المسلمين" يوسف بن تاشفين بالمجال الصحراوي، خاصة وأن الامتداد المجالي الواسع للمغرب آنذاك، لم يتوقف عند حدود سبتة شمالاً وإنما تخطاها ليشمل الأندلس وجزءاً مهماً من المغرب الأوسط، مما تطلب الجنوح إلى هذا النوع من التدبير المجالي سياسياً وهو ما نسميه اليوم "باللامركزية الإدارية"/ "الجهوية المتقدمة"

ولعل المحطة الحاسمة في تبني هذا التسيير الإداري تجسده بقوة الإمبراطورية الموحدية، فهذا العهد عرف توسعاً كبيراً في أجهزة الدولة سواء منها المركزية أو الجهوية إذ أقام الموحدون "مجلس العشرة" و"مجلس الخمسين" وتم تقسيم الإمبراطورية الشاسعة الأطراف (يحدها المحيط الأطلسي غرباً وبرقة شرقاً وجبال الشارات بالأندلس شمالاً ثم بلاد السودان جنوباً) إلى جهات وأقاليم على رأس كل واحدة منها مسؤول له سلطات واسعة في تدبير أمر الجهة (مثل: التعيين/ العزل/ جباية/ الخراج/ تقليد القضاة مهامهم..). فتمكنت باستراتيجيتها تلك أن تتحكم في المجال الواسع التابع لها بما فيه الصحراء الكبرى. ويكفي دليلاً على ذلك أن العديد منها ساهم في عمليات الجهاد بالأندلس على عهد المنصور وذلك تطوعاً منها. ونحن نعلم أن المساهمة في العمليات العسكرية التوسعية بجانب الخليفة تعد شكلاً من أشكال تقديم البيعة والولاء.

أما بالنسبة للدولة المرينية والتي عانت من منافسة شرسة من طرف عبد الواديين شرقاً على تدبير أمور المجال الصحراوي إذ حاولوا استعمال ورقة ضغط مهمة ألا وهي القبائل المعقلية، فقد تجاوزت محنة هذا التضييق حتى في أقصى الحالات حينما حاول هذا الجار خلق مناوشات من طرف بعض الأمراء المرينيين على السلطة المركزية. فكانت سياسة التسيير الذاتي لهذه الأقاليم من طرف الأمراء والقبائل الصحراوية في تبعية تامة للمركز سر مفتاح نجاح المرينيين في الرد على مناوشات الزيانيين.

كما أنه على عهد السعديين تم اتباع نفس النهج، بدليل أن فتح السودان الغربي تم بمساعدة القبائل الصحراوية المبايعة للسلطان السعدي.

وأخيرا على عهد العلويين "فالحركات" أو "الرحلات التفقدية للرعية" خاصة على عهد المولى الحسن الأول لهذه الأقاليم تؤكد استمرارية هذا النمط من التدبير الإداري بها حيث نجد "الظهائر" وما يتم معها من "تقديم البيعة" عنوان هذه الممارسة من التسيير.

فباستحضار هذه التجارب من عقب تاريخ المغرب بصحرائه نقف على اللبنة الأولى لنظام للامركزية في إطار الدولة الموحدة. وهو نظام يصون حقوق السلطة المركزية فهي التي تتكلف بتعيين من يمثلها بمختلف المناطق وهي التي تتلقى البيعة منها.

وختاما نقول إن ما قدمناه من معطيات هو إضاءات تاريخية عن جانب من أشكال البيعة التي كانت تقدمها القبائل الصحراوية ولا زالت للدوحة العلوية الشريفة، والهدف من هذه المقاربة لم يكن هو استقصاء هذه "العروة الوثقى" بدقائقها الفقهية وتفصيلاتها التاريخية وإنما كان القصد هو إبراز استمرارية هذه الممارسة في أشكال تتماشى مع روح العصر الذي قدمت فيه، فالقبائل الصحراوية لم تتأخر أبدا عن التعبير عن بيعة متتالية مستمرة، ولعل انخراطها في ورش الجهورية المتقدمة أكبر دليل على امتداد هذه العروة الوثقى التي تربط القبائل الصحراوية بملكها. فأمر المؤمنين محمد السادس أيده الله اختار "الثورة الهادئة" بإبداعه جهورية متقدمة حظيت فيها الأقاليم الصحراوية المغربية بشرف تدشين مشاريع كبرى من شأنها أن توطن أكثر البيعة التي تربط ساكنتها بعاهلها المفدى.

سوس والصحراء في صلب اهتمامات السلطان الحسن الأول

"كناش عن رحلة الحسن الأول إلى سوس عامي 1299-1303هـ"¹

ملؤلف مجهول

ذ. محمد البغياي

باحث في التاريخ - تطوان

شكلت منطقة سوس والصحراء المغربية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، قطب الجاذبية والاستقطاب بالنسبة للدول الأوروبية الإمبريالية وشركاتها الرأسمالية التجارية، نظرا لأهميتها الاقتصادية الفلاحية والمنجمية، وموقعها الجغرافي على الطريق الرابطة بين المغرب والسودان الغربي مروراً بالساحل الأطلسي بحراً. فاستغلت بعد المنطقة - الجغرافي - عن السلطة المركزية، وأطماع بعض الزعامات القبلية المحلية في مغنم السلطة وتكوين الثروة²، للقيام بمحاولات فاشلة في إنشاء مراكز تجارية على طول الساحل الممتد بين قبيلة أيت باعمران (نواحي سيدي إفني) ورأس جوبي (طرفاية) وصولاً إلى الداخلة (وادي الذهب). وقد حظيت بعض تلك المحاولات، أو المشاريع الاستعمارية بعبارة أدق، بدعم الحكومات الإمبريالية ومساندتها، ويتعلق الأمر على وجه الخصوص بالمحاولات الإسبانية التي كانت تنبني على أساس ادعاء وجود حقوق تاريخية لإسبانيا في هذه المنطقة تعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، أي منذ تاريخ احتلال جزر الكنارياس سنة 1476م. وفي معاهدة الصلح ل 26 أبريل 1860م التي أعقبت حرب تطوان، طالب الإسبان بالحصول على

1 - يحمل هذا الكناش عنواناً آخر وجدناه مثبتاً على الورقة الأولى منه، إلى جانب رقمه الترتيبي، وهو: "نمر 95، كناش مختلف التاريخ ببيان فرق قبائل سوس الأقصى والأدنى وتوليتهم في الحركة الأولى السوسية، مفردات المهات خصوصاً في شأن سوس". انظر الصفحة الأولى من الكناش.

2 - نشير هنا بالخصوص إلى الحسين بن هاشم شريف تزوالت، الذي كان يطمح إلى إعادة بناء أمجاد إمارة إليغ السملالية، وأسرة آل بيروك المشهورة بمنطقة طرفاية والصحراء. انظر: محمد المختار السوسي: إليغ قديماً وحديثاً، المطبعة الملكية، الرباط، 1966م، صص 248 - 277 / عمر آفا: التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، البنيات والتحويلات (1830 - 1912م)، مطبعة الكرامة، الرباط، ط 1، 2006م، ص 405.

قطعة أرض على ساحل المحيط الأطلسي قرب "سنتاكروز"، كمركز للصيد والتجارة، بموجب الفصل الثامن من هذه المعاهدة³، كما زعم الإسبان "أن تلك الناحية لا تنفذ فيها الأوامر المخزنية، ولا تعترف بأنها من الإيالة السلطانية"⁴. وإلى جانب المحاولات الإسبانية، لم تكن المحاولات الإنجليزية أقل خطورة، رغم مزاعم السياسة البريطانية بأنها تبذل جهدا دبلوماسيا من أجل بقاء سيادة المغرب وترايه بمنأى عن أية سيطرة أجنبية، فقد شجعت بريطانيا رعاياها على الاستقرار وممارسة الأنشطة التجارية غير المشروعة في الجنوب المغربي، ولعل أبرز تلك المحاولات الإنجليزية، مشروع المهندس دونالد ماكينزي (Donald Mackenzie)، الذي ضمنه في كتابه الصادر سنة 1877م⁵، ومحاولة جيمس كورتيس (James Curtis) وشركائه سنة 1880م⁶.

جاء رد فعل المخزن المغربي على هذه التحرشات والتسربات، التي استهدفت بسط السيطرة الأوربية على منطقة سوس والصحراء المغربية، سريعا وحازما؛ وذلك بقيام السلطان مولاي الحسن الأول بحركتي سوس الأولى والثانية سني 1882م و1886م، حيث كشف السلطان عن دواعي وأسباب حركة سوس الأولى، قائلا: "وحيث كان المقصد الأهم من هذه الوجهة المباركة، [حركة سوس الأولى] هو حماية ديار هؤلاء المسلمين، والدفاع عن بلادهم ورقابهم وأموالهم، مما طمحت إليه نفوس المؤمنين، وكان ملاك ذلك هو فتح المرسى بوادي نون بمحل يسمى أصك ببلاد قبيلتي تكتة وأيت بوعمران، إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع، ويسهل على أهل المحل البيع والابتاع، ويقوى الضعيف ويهتدي الحيران يقينا، بأن سد أبواب الضرر من الأمر المحتوم"⁷.

ارتأينا مقارنة هذا الموضوع الهام، اعتمادا على وثيقة تاريخية رسمية، تؤكد - بما لا يدع مجالا للشك - الروابط المتينة بين العرش العلوي المجيد وقبائل الصحراء المغربية، وتعكس الحضور المخزني الدائم والمستمر في المنطقة، من خلال ممارسة السلطة بمعناها الكامل⁸، عن طريق تعيين

3 - محمد داود: تاريخ تطوان، مطبعة المهدية، تطوان، 1965، المجلد الرابع، ص 284.

4 - عبد الرحمان ابن زيدان: إتخاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، مطابع إديال، الدار البيضاء، الطبعة 2، 1990م، ج2، ص 206.

5 - Mackenzie (Donald), The flooding of the Sahara, an account of proposed plan for opening central Africa to commerce and civilization from the north- west coast, with a description of Soudan and western Sahara, and notes on ancient manuscripts, London, 1877.

6 - حول هذه الشخصية والمحاولة التي قامت بها انظر: خالد بن الصغير: كورتيس وشركة سوس وشمال إفريقيا، ندوة تيزنيت وباديتها، منشورات كلية الآداب بأكادير، 1996، ص 73 وما يليها.

7 - مجهول: كناش عن رحلة الحسن الأول إلى سوس عامي 1299-1303هـ، دراسة وتخرّيج الدكتور محمد البغياي، غير منشور، ص 62.

8 - محمد أعفيف: الحركات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان، مجلة كلية الآداب، الرباط، عدد 7، 1980م، ص 60.

القواد والعمال والقضاة والخطباء، وإنجاز مشاريع إصلاحية كمرسى أساكا وأركسيس، وتفقد أحوال الرعية بتلك الربوع الغالية على قلب كل مغربي .

1 - وصف نسخة الكناش المعتمدة في الدراسة، وإبراز قيمتها التاريخية :

توجد نسخة الكناش، الذي اعتمدنا عليه في هذه الدراسة، بالخزانة العامة بالرباط⁹، وهي مصورة على الشريط (ميكروفيلم رقم : 21)، تقع في 64 لوحة (103 صفحة)¹⁰، مقياسها : 14×17 سنتمتر، ومسطرتها مختلفة، تصل في المتوسط إلى 21 سطرا، وهي مكتوبة بخط مغربي مختلف¹¹ ومن النوع السريع المدمج (الخط الزمامي)، وعارية عن اسم الناسخ وتاريخ النسخ، ما عدا بعض الصفحات التي يرد فيها تاريخ التقييد¹²، والذي يرجع في الغالب إما إلى سنة 1299 هـ أو إلى سنة 1303 هـ.

أولها : "الحمد لله، المأذون لهم في الكتابة للجانب العالي بالله من قبائل وادي ولغاس" وآخرها: "ما يجب من العلف كل يوم خرايب 0178".

تتميز هذه النسخة بكثرة الجداول¹³ والعمليات الحسابية، التي تتضمن مقادير وأصناف المؤونة المفروضة على القبائل، وأنواع وكميات الأسلحة والعتاد الموجهة مع الحركة ...

كما تتميز النسخة أيضا بكثرة الاستدراكات والتصحيحات والطرر بالهوامش، وأحيانا بوجود تشطيب على بعض التقايد التي تبين لصاحب الكناش فيما بعد أنها أصبحت ملغاة.

يكتسي هذا الكناش أهمية وقيمة تاريخية بالغة؛ بالنظر إلى ما اشتمل عليه من معلومات دقيقة ومتنوعة عن منطقة سوس والصحراء، تتوزع بين الجغرافية والتاريخية والأنثروبولوجية، بالإضافة إلى احتوائه على معلومات عسكرية ولوجستية، تبين مقادير تموين الجيش خلال الحركة، وتوضح كمية العتاد وأنواع الأسلحة الموجهة معه.

فعلى المستوى الجغرافي، يقدم لنا الكناش مسحا طبوغرافيا للمنطقة الممتدة من مراکش (نقطة انطلاق الحركة) إلى كلميم (نقطة الوصول)، يتضمن وصفا دقيقا جدا للطرق والمسالك، وما يحيط

9 - المكتبة الوطنية بالرباط حاليا.

10 - ذكر الأستاذ المنوني رحمه الله أن عدد لوحات هذا الكناش هو 83 لوحة، إلا أننا وجدنا - بعد فحصه - 71 لوحة فقط، منها سبع لوحات مكررة، كما توجد صفحتان منه (ص 49 - 71) ذات وجهين "أ" و"ب". انظر : محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب، الفترة المعاصرة (1790 - 1930م)، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة فضالة، المحمدية، 1989م، ج 2، ص 122.

11 - هذا يدل على أن تقايد هذا الكناش كتبت من قبل ناسخين متعددين.

12 - انظر مثلا الصفحة 3 والصفحة 10 والصفحة 31 من هذا الكناش.

13 - ترد الأسماء والأرقام على شكل جداول.

بها من أشكال تضاريسية (سهول/ جبال)، وأنواع الغطاء النباتي المنتشر في المنطقة (أشجار الأركان - السدر)، ومصادر الماء ومنابعها.

أما على المستوى التاريخي، يقدم لنا الكناش وثائق تاريخية رسمية تتمثل في الظهائر والرسائل السلطانية، التي توضح لنا موقف المخزن الرسمي من الأطماع الأوربية التي تشوفت إلى بسط نفوذها وسيطرتها على الجنوب المغربي، كما تعكس لنا الإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي قام بها السلطان الحسن الأول في المنطقة لصدد تلك الأطماع ومجابتها.

وفي الجانب الأنثروبولوجي يقدم لنا الكناش صورة دقيقة عن قبائل سوس الأقصى والأدنى في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، مبينا فرقتها وبطونها وكونانها المختلفة.

ولإبراز القيمة التاريخية الكبيرة لهذا الكناش، يكفي عقد مقارنة بسيطة بينه وبين مؤلفين آخرين ألفا في نفس الموضوع (حركتي سوس الأولى والثانية)، الأول هو : مخطوط "رحلات السلطان المولى الحسن الأول"¹⁴ لمؤلف مجهول الاسم، والثاني هو: "تقييد مراحل حركة السلطان مولاي الحسن لسوس سنة 1303هـ"¹⁵ لمؤلف مجهول الاسم أيضا، فهذان المؤلفان تضمنا فقط مراحل الحركتين محددة بالساعات والدقائق وأيام الإقامة، دون التفصيل في وصفها وبسط القول في التعريف بقبائل المنطقة، أو إبراز المنجزات التي قام بها السلطان خلال هاتين الحركتين ... في حين نجد كناشنا، جاء جامعا، شاملا، يستوعب كل التقايد المتعلقة بهاتين الحركتين؛ بدء بوصف المراحل وتحديداتها، ومرورا بذكر القبائل وفرقها، وتحديد المؤونة المفروضة عليها، وبيان قوائم بأنواع العدة والعتاد وكميتها، وانتهاء بالأعمال والإصلاحات التي أقرها السلطان في منطقة سوس والصحراء. فهو إذن مؤلف شامل وجامع ومانع لكل ما يتعلق بحركتي سوس الأولى والثانية.

2 - مضامين الكناش :

إذا كان المضمون العام للكناش يتمحور حول حركتي السلطان الحسن الأول إلى سوس عامي 1299هـ/1882م - 1303هـ/1886م. فما هي المضامين الأساسية التي أولاها صاحب الكناش عناية خاصة ؟

هذه المضامين سألجلها، ليس اعتمادا على الطريقة التعاقبية الزمنية، وإنما على طريقة النظرة الشمولية ووحدة المواضيع :

14 - يوجد هذا المخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم : 12059، جامع غير مذكور.

15 - الخزانة الحسنية، رقم : 6870.

1-2- وصف مراحل الحركتين :

أولى صاحب الكناش عناية قصوى لوصف ثم تحديد مراحل حركتي سوس الأولى والثانية، وإن كان اهتمامه انصب بشكل أكبر على حركة سوس الأولى.

أ - وصف المراحل :

ركز المهندس / الميقاتي أحمد بن الشاذلي البخاري في وصفه للمراحل، على عدة نقط أساسية، كالزمن الذي يمكن أن تقطع فيه المراحل من طرف المحلة السلطانية، فحدده بدقة متناهية بالساعات والدقائق أو الأقسام (5 دقائق)، والماء الذي كان يشكل هاجسا حقيقيا بالنسبة للحركة، فنجد أنه يتحدث عنه عند وصفه لكل مرحلة مبينا المناطق التي يتواجد فيها الماء والمناطق التي لا ماء بها، مبرزاً مصادره (عيون - آبار - أودية - مطافي - ضايات ...) وحجمه (قليل / كثير). وفي نفس السياق نجد السلطان يركز في أسئلته واستفساراته للمهندس على الماء وحجمه هل هو كاف للمحلة أم غير كاف؟ وبعد هاجس الماء يأتي التركيز على الجانب الطبيعي باعتباره قد يشكل عائقا في طريق المحلة، ويمكن أن نميز فيه بين التضاريس والغطاء النباتي، فبخصوص التضاريس نجد المهندس دائما يقرن وصفه للمراحل بتحديد نوع الشكل التضاريسي للمنطقة التي تمر فيها الطريق، مبينا مدى صلاحيتها لمرور المحلة أو عدم صلاحيتها، وكمثال على ذلك يقول: "وأما طريق الساحل لا تصلح للمرور؛ لكونها بين الجبل والبحر"¹⁶.

أما الجانب الطبيعي الآخر الذي حظي باهتمام المهندس في وصفه، فهو الغطاء النباتي، الذي كان يشكل في بعض المناطق حاجزا طبيعيا وعائقا أمام تقدم المحلة، وفي هذا السياق يقول في وصفه للطريق بين اصبوية وأصكا: "ففي بعض المواضع الاتساع مقدار مرور أربعة من الخيل، وفي بعضها الضيق مقدار ما يسع مرور اثنين، وسبب الضيق من كثرة أشجار السدر"¹⁷.

إنه بحق وصف دقيق جدا لعرض الطريق. وللتأكد من صلاحيتها لمرور المحلة نجد المهندس يعرض هذه المرحلة على شخص عارف بالمنطقة وهو الحاج الطاهر الرداني الذي قال: "لا يخدم مرور المخزن الكثير كالمحلة الكثيرة"¹⁸. لذلك فإن السلطان بعد توصله بتقرير المهندس، بعث برسائله إلى عماله وقواده للعمل على إصلاح بعض الطرق وإزالة كل العوائق التي تجعلها صعبة السلوك، وكمثال على ذلك الرسالة التي وجهها للقائد المحجوب القلوي، والتي جاء فيها: "فناؤمرك

16 - الكناش، ص 7.

17 - نفسه، ص 6.

18 - نفسه.

أن تجعل التوزيع من إيالتك إذاو قلول، على إصلاح الطريق المارة لتمدة جموس، وتقطعوا ما يمنع من سلوكها من شجر أركان وغيره، وتقلعوا ما فيها من الحجارة حتى تتسع بالمارة بها، وتصير سهلة السلوك بحول الله¹⁹.

ولم يفت المهندس أحمد بن الشاذلي البخاري في وصفه لمراحل الحركتين، الإشارة إلى القبائل والأسر المشهورة بالزعامة، والتي تتواجد على الطريق التي مر بها. إلى جانب ذلك ركز في وصفه أيضا على مجال العمران، محددًا أهم المعالم العمرانية البارزة في المراحل كقوله: "وبهذه المرحلة بتزيت قصبة المخزن، وهي قديمة متلاشية"²⁰.

وبعد الانتهاء من تسجيل وصفه للمراحل، يعرض المهندس تقريره على عارف بالمنطقة، وذلك حتى يبدي رأيه في مدى صحة المعلومات التي احتواها التقرير، وإضافة ما يمكن إضافته من تعليقات وتصويبات وتصحيحات، فنجد المهندس يعرض كل مرحلة على الحاج الطاهر الرداني - الذي بعد التأكد من صحة معلوماتها - يسلمها ويصادق عليها. وبعد هذه المراقبة الأولى، يرفع التقرير كاملا إلى السلطان الذي يخصص وقتا لقراءته ثم يعيده إلى المهندس / الميقاتي مع عدد من الأسئلة الدقيقة؛ فحول مرحلة أولاد جرار - بونعمان، يتساءل السلطان: "هل المارة فيه الطريق أم غيره؟" فكتب المهندس جوابا عن السؤال المطروح: "نعم بين المارة فيها الطريق بوسطها"²¹، وبعد توصله بأجوبة المهندس عن مختلف الاستفسارات والتساؤلات التي كانت تشغل باله، يوقع السلطان على المراحل بالموافقة.

ب - تحديد المراحل :

* مراحل حركة سوس الأولى :

يمكن أن نميز فيها بين مراحل الذهاب ومراحل الإياب.

- مراحل الذهاب :

انطلاقا من الجدول ص: 81 - 82 من الكناش فإن رحلة سوس الأولى انطلقت يوم الاثنين 11 رجب عام 1299هـ/ 17 ماي 1882م، ووصلت الرحلة إلى آخر نقطة لها وهي أمزور بزاوية سيدي عبد الرحمان بن إبراهيم (أكلو) يوم الأربعاء 25 شعبان 1299هـ/ 30 يونيو 1882م، قاطعة 25 مرحلة في مدة

19 - الكناش، ص 22.

20 - نفسه، ص 5.

21 - نفسه، ص 5.

96 ساعة و360 دقيقة، وبلغت مدة الإقامة في هذه الرحلة 27 يوما، خصص منها للسلطان ثمانية أيام للإقامة بمدينة تارودانت، وسبعة أيام بزاوية سيدي عبد الرحمان، وباقي الأيام متفرقة على مراحل مختلفة. وإذا جمعنا أيام السفر والترحال مع أيام الإقامة، تكون الرحلة قد استغرقت 52 يوما. وعموما يمكن أن نلخص مراحل الذهاب في حركة سوس الأولى كالآتي :

مراكش - وادي نفيس - مشرع العناية - نزالة المزوشي - وادي شيشاوة - سيدي المختار - عين أماست - جمعة الكريمة - وادي بوريقي - دار أنفلوس - إداو كلون بأركن - وادي بني تامر - تمرغت - مرسى أكدير أرمي - أربعاء مسكينة - اثنين أولاد تيمة بهوارة - البعيرير بالمفش - الأحدف بالقلاشة ردانة - بين البراريك وأيت عبد الله - أم الجريد - بيكرن إذا لجران بإذاو محمد - وادي ماسة - دوار سيدي علي - تزيت - أكلو - أمزور بزاوية سيدي عبد الرحمان.

والمراحل نفسها وردت عند صاحب الإتحاف²²، وصاحب مخطوط رحلات السلطان المولى الحسن الأول²³.

- مراحل الإياب :

في يوم 4 رمضان عام 1299هـ/ 8 يوليوز 1882م، انطلقت مراحل الإياب من حركة سوس الأولى، ووصلت محلة السلطان إلى مدينة مراكش يوم الجمعة 26 رمضان 1299هـ/ 30 يوليوز 1882م، قاطعة بذلك 18 مرحلة في مدة زمنية قدرها 74 ساعة و180 دقيقة. وبلغت أيام الإقامة خمسة أيام فقط : ثلاثة منها ببدار بلاد مسكينة، ويومان بكل من زاوية أمكدار ووادي بوريقي. وبذلك تكون رحلة العودة استغرقت 23 يوما، وجاءت مراحلها على الشكل الآتي :

أمزور - الكرمة - بكرة بوادي والغاس - الدحوس - طكظ (هشتوك) - بدار بلاد مسكينة - أسركاو - تمرغت - وادي إذاو تامر - تبصريت - زاوية أمكدار - وادي بوريقي - جمعة الكريبات - عين أماست - وادي شيشاوة - نزالة المزوشي - عدوة وادي نفيس بأكدير - بوعكاز - حضرة مراكش السعيدة .

والمراحل نفسها وردت في مخطوط رحلات السلطان المولى الحسن الأول²⁴، وأيضا في الإتحاف²⁵.

22 - ابن زيدان : الإتحاف، ج 2، صص 207 - 209.

23 - مجهول : انظر ورقة 2.

24 - نفسه، ورقة 3.

25 - بعد مقابلة ما أورده المؤرخ عبد الرحمان بن زيدان عن مراحل حركة سوس الأولى، بما جاء في الكناش الذي نحن بصدد دراسته، تبين لنا - بما لا يدع مجالا للشك - أن ابن زيدان قد نقل تلك المراحل عن هذا الكناش. أنظر : الإتحاف، ج 2، ص 217.

وعموما فإن حركة سوس الأولى استغرقت ذهابا وإيابا 75 يوما (شهران و15 يوما)، وقطعت في مدة 170 ساعة، ويمكن التمييز فيها بين أيام الترحال والتنقل التي بلغت 43 يوما، وأيام الإقامة والاستقرار التي بلغت 32 يوما.

* مراحل حركة سوس الثانية :

قبل انطلاق حركة سوس الثانية، يشير صاحب الكناش إلى أنه تم استدعاء أعيان القطر السوسي وعلى رأسهم سيدي محمد بن سيدي الحسين أوهاشم والقائد دحمان بن بيروك التكني والحاج مسعود الراشدي والقائد أحمد العبوي السרגيني، والعمال الذين يتصارفون معهم من أيت باعمران وبعقيلة وتيزنيت وغيرهم، بالإضافة إلى المهندس أحمد بن الشاذلي البخاري. فعقد معهم الوزير سيدي محمد بن العربي الجامعي اجتماعا يوم 20 ربيع الأول عام 1303هـ/ 27 دجنبر 1885 م، وخلالها تم إعلامهم بعزم السلطان مولاي الحسن الأول على السفر لناحتهم، فرحبوا بذلك. ثم عرضت عليهم المراحل المسجلة في السفارة الأولى، فوافقوا على بقاء البعض منها على الأصل وأشاروا بتبديل البعض الآخر.

وقد قسم صاحب الكناش مراحل هذه الحركة إلى مراحل كبرى تضمنت كل واحدة منها عددا من المراحل القصيرة، وفيما يلي تلخيص لهذه المراحل :

- من مراكش إلى الصويرة :

مراكش - وادي أسمار - زاوية الشراي - مشرع الحلوف - المغسلة - قصبة زيمة - العقلة - غدران الخيل - أسفي - الملح بلاد البحاترة - الرتنانة - سيدي عبد الله الحمرة - عين الحجر - الصويرة .

- مراحل حاحا :

بورريقي - دار أنفلس - بادلنت - إفني تبصررت - فم وادي تامر - أكدير .
- من أكدير إلى ماسة :

دار الحاج أحمد الجسيمي - أولاد عميرة من هشتوكة - تبخنكيت - ماسة .
- مراحل تزنيت :

دوار سيدي علي - تزنيت .

- مراحل تزنيت - كلميم :

أولاد جرار - بونعمان - إيسك - أيت بوبكر - تانكارفة - فم تيكتن - كيسل - كلميم .

ثم بعد ذلك، يفصل في مراحل ماسة - كلميم، فيحددها بالساعات والدقائق، كما يذكر اسم العامل المشرف على كل مرحلة من هذه المراحل، ويشير أيضا إلى مصادر الماء والعمارة مبينا الطريق السهل والأقرب: "إن المسلك المهل المتواصل العمارة والماء إلى كلميم، إنما هو على بلاد الاختصاص لقربه واتصال الماء والعمارة"²⁶.

إن أهم ما يمكن تسجيله على مراحل حركة سوس الثانية، هو أن صاحب الكناش لم يعر اهتماما كبيرا للمراحل: مراكش-الصويرة، حاحا، أكادير - ماسة، تنزيت، على اعتبار أنه قد ذكرها بالتفصيل والتدقيق في حركة سوس الأولى، لذلك نجده يركز بالأساس على المراحل من تنزيت إلى كلميم، لأن الحركة اتخذت هذا الطريق لأول مرة.

كما أنه يشير بين الفينة والأخرى إلى أوجه الاختلاف بين التقييد القديم الخاص بحركة سوس الأولى، والتقييد الجديد المتعلق بحركة سوس الثانية، وفي هذا السياق يقول: "في التقييد القديم من هذه المرحلة (بونعمان - إيسك) لمحل يسمى إيسك بالترقيق، وفيه من إيسك لقصة آيت جمل، ومن قصة آيت جمل لأكلميم"²⁷.

أما في التقييد الخاص بالحركة الثانية، فإنه يبين طريقا آخر كالآتي: إيسك - بين تانكارفة والخميس بأيت بوبكر - تانكارفة - فم تيكتن - كيسل - كلميم²⁸.

كما نلاحظ أنه في حركة سوس الثانية، لا يذكر تاريخ انطلاق الحركة ولا تاريخ وصولها إلى كلميم أو تاريخ إياها، كما لا يبين تاريخ المراحل بالتقويم الهجري والميلادي كما فعل في الحركة الأولى.

أشار ابن زيدان - في الإتحاف - إلى مراحل حركة سوس الثانية، وبالتحديد إلى المراحل من ماسة إلى كلميم²⁹ والتي نعتقد - بعد مقارنتها بما هو وارد في الكناش - أنه نقلها منه. كما يوجد في الخزانة الحسنية كناش آخر خاص بحركة سوس الثانية لمؤلف مجهول، تحت عنوان "تقييد مراحل حركة السلطان مولاي الحسن لسوس سنة 1303هـ"، أورد فيه صاحبه مراحل هذه الحركة من مراكش إلى كلميم، محددة بالساعات والدقائق وأيام المقام³⁰، وقد لاحظنا اختلافا بينا في بعض

26 - الكناش، ص 100.

27 - الكناش، ص 100.

28 - نفسه.

29 - الإتحاف، ج 2، صص 242 - 243.

30 - مجهول: تقييد مراحل حركة السلطان مولاي الحسن لسوس سنة 1303هـ، مخ، خ، ح، رقم: 6870.

المراحل بينه وبين الكناش الذي بين أيدينا. كما وردت مراحل هذه الحركة أيضا في مخطوط "رحلات السلطان المولى الحسن الأول"، بنوع من التفصيل³¹؛ حيث ذكر صاحب هذا المخطوط الأيام بتواريخها الهجرية وما يقابلها من التاريخ الميلادي، وانطلاقا من هذا المخطوط تكون حركة سوس الثانية قد انطلقت يوم الخميس 12 جمادى الثانية/06 مارس 1886م من مراكش، ووصلت إلى كلميم يوم 17 شعبان عام 1303هـ/10 ماي 1886م، قاطعة 39 مرحلة في مدة زمنية قدرها 122 ساعة و55 دقيقة، وبلغت أيام المقام 38 يوما.

وكان الإياب من هذه الحركة يوم الخميس 29 شعبان/22 أبريل من أقليم، حيث وصلت المحلة السلطانية إلى مراكش يوم السبت 20 ذو القعدة/9 غشت، قاطعة 34 مرحلة في مدة 104 ساعة و30 دقيقة، وبلغت مدة المقام 46 يوما.

وبالتالي يكون مجموع أيام هذه الحركة هو 157 يوما، منها 73 يوم رحال و84 يوم مقاما.

3 - مؤونة الحركتين ومساهمة القبائل فيهما :

من المواضيع التي تطرق إليها هذا الكناش، موضوع تموين الحركة الذي يكتسي أهمية بالغة، حيث زودنا صاحبه بمعلومات دقيقة عن مقادير المؤونة وكيفية توزيعها على طول مراحل الطريق الذي سلكته الحركة السلطانية.

فبالنسبة لمؤونة حركة سوس الأولى؛ يشير الكناش إلى طريقة تحديدها بدقة مضبوطة، وذلك بإجراء إحصاء شامل ودقيق للجيش المشاركة في الحركة من عسكر ورماة المسخرين ورماة الحناطي البرانيين والداخليين والحمارة وأصحاب الخيل والعبدة الراجلين، والذي بلغ 15900 فرد، قدر لها 63 خروبة من القمح يوميا، وخلال الرحلة التي ستدوم ثلاثة أشهر 5724 خروبة. أما علف الخيل، فقد قدر عدد الخيل ب 4188 فرس، وتحتاج يوميا إلى 130 خروبة، وخلال ثلاثة أشهر 11778 خروبة، وأضيف إلى ذلك تقدير علف البغال التي قدر عددها ب 750 بغلا، تحتاج يوميا إلى 29 خروبة، وخلال ثلاثة أشهر إلى 2677 خروبة، وخلال شهر إلى 1875 خروبة³².

بعد هذه التقديرات المتوقعة لما ستستهلكه الحركة خلال ثلاثة أشهر، يشير صاحب الكناش إلى إحصاء لما هو متوفر عند القواد والأمناء في الشاوية ودكالة والشياطمة، فوجد أن عند أهل الشاوية 6690 خروبة، وعند قبائل دكالة 8491 خروبة، وعند الشياطة 5683 خروبة. وبعد مقارنة اللازم بما

31 - انظر الورقات : 4، 5، 6.

32 - الكناش، ص 15.

هو متوفر، لوحظ أن هناك فرقا حاصلًا، فصدر الأمر الشريف - على حد تعبير صاحب الكناش -
لأمناء الدار البيضاء والجديدة، لشراء من المواد ما هو ناقص في هذا التقدير وهو: 33328 خروبة .

كما أشار صاحب الكناش إلى مساهمة القبائل في هذه الحركة الأولى؛ حيث ذكر القائد الدليمي:
"أن العادة في الحركة، أن تعطي كل قبيلة مائتي حارك بين خيل ورماة، فيمن لهم خيل كأهل السهل،
أما الجبال فإنها يعطون الرماة"³³. وبناء على هذه العادة يصبح واجبا على قبائل سوس أن تساهم ب
2225 حارك. إلا أنه لم يتم الالتزام بهذه العادة نظرا لما كانت تعرفه منطقة سوس من جفاف وقحط،
فتم تخفيض حجم مساهمة القبائل إلى 50 من الخيل، و150 من الرماة لكل قبيلة حسب عدد
كواينها³⁴.

بعد تحديد مساهمات القبائل في الحركة، يشير صاحب الكناش إلى مسألة تقسيم المؤونة حسب
المراحل المسطرة، وتعيين العمال والقواد والأمناء المشرفين على ذلك بالنسبة لكل مرحلة³⁵.

أما بالنسبة للحركة الثانية، فإن تحديد مؤونتها كان أكثر دقة مقارنة بالحركة الأولى، وقد
وزعت المؤونة على القبائل، وشملت الشعير والدقيق والأكباش والسمن، وفيما يلي تقديراتها موزعة
حسب المراحل التي قطعتها المحلة السلطانية :

بالنسبة لمراحل حاحا - التي بلغت ثمان مراحل - تبتدئ من واد بوريقي وتنتهي عند أكادير،
قدر لها 1000 خروبة من الشعير، و640 خروبة من القمح ذهابا، ومثلها في الإياب؛ أي ما يعادل
390400 مثقال أو 3123 ريال .

ومن أكادير إلى ماسة أربع مراحل، قدرت مؤونتها ذهابا وإيابا ب 2000 خروبة من الشعير
و640 خروبة من القمح؛ أي ما يعادل 275200 مثقال / 2201 ريال.

أما مرحلتا تنزيت مع الإقامة بها ثمانية أيام، قدرت ب 3000 خروبة من الشعير و960 خروبة
من القمح؛ أي ما يعادل 136808 مثقال / 3420 ريال.

ومن تنزيت إلى كلميم، ثمان مراحل، قدرت مؤونتها ذهابا وإيابا ب 6000 خروبة من الشعير
و1920 خروبة من القمح / 273600 مثقال / 6840 ريال.

نستنتج أن تقدير المؤونة في حركة سوس الثانية كان دقيقا ومضبوطا مقارنة مع تقديره في
حركة سوس الأولى.

33 - الكناش، ص 13.

34 - نفسه، ص 25.

35 - نفسه، ص 28.

إلى جانب المؤونة، أورد صاحب الكناش مجموعة من التقايد تضمنت قوائم مفصلة بأنواع وأعداد الأسلحة وعدتها الموجهة مع الحركة، واللافت للانتباه في هذه القوائم، أنها تشتمل فقط على بيان العدة والعتاد الخاص بفرقة الطبقجية (المدفعية)، من مدافع ومهاريس مختلفة الصنع والأشكال، وكور (بومب) مختلفة الأحجام، وصناديق القرطوس والبارود ... وكان الهدف من تجهيز الحركة بهذه الكميات الكبيرة من الأسلحة والعتاد، هو إبراز قوة وهيبة السلطان أمام القبائل تركيزا لاستقرار الدولة في نفوس الناس وكذا بيان قدرتها على تثبيت الأمن والحماية لهم.

تضمن هذا الكناش - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - مجموعة معتبرة من نسخ الظهائر والرسائل السلطانية، التي احتوت على معلومات هامة جدا؛ تتعلق بالإنجازات الإصلاحية التي قام بها السلطان الحسن الأول خلال حركته الأولى إلى سوس عام 1299هـ/1882م .

وسنحاول من خلال هذه الظهائر والرسائل السلطانية أن نستجلي أهم مظاهر وملامح هذه الإصلاحات حسب المجالات التي توطرها؛ إدارية ودينية واقتصادية.

يعتبر مشروع إصلاح إدارة قبائل سوس من بين الأهداف الرئيسية والمعلنة لحركة سوس الأولى كما صرح بذلك السلطان مولاي الحسن في الرسالة التي وجهها إلى الطالب الطيب بن هيمة، والتي جاء فيها : "[...] وصرنا إليهم عنان الترتيب، بعد أن وطأنا لهم كنف الترحيب، فبوأنا من توسمنا فيه الأهلية للتولية على إخوانه مهادا، وقلدناه أمرهم جمعا وفردا، وضربنا لكل فيها على مقتصر السياسة بمعونة الله بسهم مصيب، وأرعيناه من مربع خدمتنا الشريفة المرعى الخصيب، حتى وقع التمكن من أزمته، وأجلسنا خواصهم وعمالهم على أسرته، فاتصلت بهم المخزنية اتصال الأرواح بالأجساد، واستنارت هذه الأرجاء بقدر الله استنارة عمت الحاضر والباد، فأدوا من الطرف والهدايا ما فيه غنيمة لمن ركب مشن المزايا، مع كون بلادهم لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين. ولو لم نل من هذه الفتوح الباهرة بفضل الله إلا عشرا، لكان في جنب من قدم عهده بالمخزنية كنزا"³⁶.

يبدو جليا من خلال هذه الرسالة، أن إدارة قبائل سوس كانت تعيش أزمة حقيقية في علاقتها مع السلطة المركزية، هذه الأزمة استغلت من طرف القوى الاستعمارية الأوربية، التي كانت تسعى - بواسطة مؤسساتها الرأسمالية - إلى تكوين مناطق نفوذ لها بالمنطقة الساحلية الممتدة بجنوب المغرب، بين واد ماسة والساقية الحمراء، متحججة بذرائع واهية، مفادها أن منطقة سوس خارجة

36 - الكناش، ص 61.

عن نفوذ وسلطة المخزن وطاعته. لذلك كانت ظهائر الولاية التي أقرها السلطان الحسن الأول في صفوف العمال والقواد والأشياخ في منطقة سوس، بمثابة اعتراف من هؤلاء بسلطة المخزن المركزي على هذه المنطقة، وإقرارهم بفروض الولاء والطاعة لهذه السلطة، وبالتالي دحض وتفنيـد كل الادعاءات المناوئة التي روجتها القوى الاستعمارية الأوربية حول سلطة المخزن على منطقة سوس، وسد أبواب التسرب في وجهها، فكان ذلك الإنجاز في نظر السلطان الحسن الأول كنزا ثميناً على حد تعبيره.

تضمنت ظهائر التولية - التي كانت بمثابة تركية قانونية لاقتراح وفود القبائل - ما التزم به الأعيان من تقديم فرض الحركة وهدية الأعياد، والاستجابة للأوامر المخزنية، وتحديد سلط ممثلي المخزن بالقبيلة، وكمثال على ذلك ما التزمت به قبيلة أولاد جرار : "والتزموا بالحركة وتوجيه العيادة إذا كان مولانا بالغرب ونحو ذلك"³⁷. فبعد تعيينه رسمياً، يصبح القائد صلة وصل بين القبيلة والمخزن، أما الأشياخ فقد انحصرت مهمتهم بربط الصلة بين فرقهم وبين القائد المولى على القبيلة. وتختتم مراسيم الولاية بإنعام السلطان على وفود القبائل بتقديم الكسوة تعبيراً عن رضاه عنهم، وكان توزيعها يتم بطريقة تراتبية يراعى فيها المكانة الاجتماعية لكل فرد من أفراد الوفد³⁸.

تشكل بجانب ممثلي المخزن بداخل القبيلة، جهاز آخر تولى السلطان اختيار عناصره بنفسه، وأسندت المناصب السامية فيه إلى ضباط عسكريين، منهم من ينتمي إلى قبائل الكيش ومنهم من ينتسب إلى عبيد البخاري³⁹. وقسم سوس الأقصى إلى قسمين : الأول منها ولى عليه خليفة مقره تزنيـت هو القائد مسعود الراشدي، والثاني أسنده إلى نظر خليفة آخر مقره بوسط أيت باعمران.

وقد حدد السلطان في ظهيري تولية هذين الخليفين المهام والاختصاصات الموكولة لكل واحد منهما، فبالنسبة للخليفة الأول جاء في ظهير تعيينه : "اقتضى نظره السيد، ورأيه الموفق الرشيد، أن يعين كبيراً من جيشه السعيد، يكون بركة وسط عمال قبائل جزولة، وواسطة لهم فيما عساه أن يعرض لهم، وإعانة لسائرهم، وتقوية لأزرهم، وشادا لعضدهم، ومرشدا لهم ومبصراً، ليستشيروا معه فيما يكون من الأقوال والأفعال في الحال والمآل، مما تدعو الضرورة إليه، وتتوقف

37 - الكناش، ص 53.

38 - انظر مثلاً ما قبضه وفد أهل أكلو : الكناش، ص 43.

39 - المحمدي : السلطة والمجتمع في المغرب نموذج أيت باعمران، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1989م، ص 111.

الأوامر المخزنية عليه، ويبعد عليهم تناوله مع جانب مولانا المؤيد حين يكون نائيا عن البلد، لدراية المعين وخبرته ونجدته وفطنته"⁴⁰.

لقد أنيطت بهذا الخليفة إذن مهمتان أساسيتان، تتمثل المهمة الأولى في لعب دور الوساطة بين عمال قبائل جزولة والمخزن المركزي، أما المهمة الثانية فتتجلى في تقديم الدعم العسكري والمشورة لهم عند الاقتضاء والضرورة.

وقبل التعرض لمهام واختصاصات الخليفة الثاني، تجدر الإشارة إلى أن تعيينه جاء بطلب من قبائل أيت باعمران وتكنة والاختصاص : "بيد أن قبائل أيت بو عمران وتكنة والاختصاص، طلبوا كبيرا آخر يكون وسطهم كذلك على وجه الاختصاص، معتردين بكونهم قبائل شتى، وصيرورة قضاياهم بدونه في معرض أين وأنى ومتى وحتى، لبعد عامل جزولة عنهم"⁴¹. فاستجاب السلطان الحسن الأول لطلبهم، وعين عليهم الوصيف الطالب بو عزة السريفي، وجعل مقره بأسكا بقبيلة أيت بوبكر، وأنيطت به - بالإضافة إلى المهتمي السالفتي الذكر - مهمة ثالثة وهي الإشراف على أعمال إنجاز مرسى أسكا "وينسحب نظر المعين المذكور، على عمل المرسى التي أراد نصره الله إنشاءها بالساحل بالمحل الذي يعرف بأصك"⁴².

وعموما، فإن السلطان الحسن الأول عمل - خلال هذه الحركة الأولى - على إعادة التقسيم الإداري لإقليم سوس، فقسمه تقسيما جديدا انبنى على فكرة تجزئ القبائل الكبرى إلى عدة قيادات، حيث عين على رأس كل فرقة صغيرة قائدا يتولى تدبير شؤونها، وفي هذا السياق يقول المختار السوسي : "ووضع كل قائد على فرقة صغيرة من القبيلة، يريد بذلك تشتيت أمر هذه القبيلة في أيد متفرقة على عادته في كل قبيلة"⁴³. يتضح من كلام المختار السوسي أن هذا التقسيم الذي طبقه السلطان الحسن الأول في سوس، ليس خاصا بهذا الإقليم فحسب، وإنما يندرج ضمن سياق السياسة الداخلية العامة التي كان يتبناها هذا السلطان. ولعل الهدف من هذه السياسة، هو الحد من نفوذ القواد بحصر سلطاتهم في مناطق جغرافية ضيقة من جهة، ومراقبة تحركات الدول الأوربية في جنوب البلاد والتصدي لأطماعها من جهة ثانية. وفيما يلي ندرج جدولا يلخص هذا التقسيم

40 - الكناش، ص 67.

41 - نفسه، ص 73.

42 - نفسه، ص 65.

43 - السوسي محمد المختار : م . س، صص. 100 - 101.

الإداري في إقليم سوس، استقيننا معلوماته من الكناش موضوع الدراسة. لذلك قد يلاحظ القارئ وجود بعض الفراغات أو غياب ذكر بعض القبائل، فإن ذلك راجع إلى نقص في المعلومات التي زودنا بها صاحب الكناش :

القبائل	فرقها	قوادها
أهل أكلو	أهل إدرن - أهل الزاوية - أهل الزاوية فم الساقية - مجاط - أيت علي - أيت شديد	القائد الحسن بن محمد البركوي الكلوي
أهل المعدر	أيت عباس - أيت أشريف - أيت تزر ألفتي - آل أغفة	القائد محمد بن عبد الله ويحيى المعدري
أهل تزنيث	أيت محمد أيت عدي - إذاوكف - أيت طلحة أيت زكري - أيت محمد إذاوعم	القائد محمد ولد الشيخ حماد أحسون التزنيثي
أيت باعمران	أيت بوبكر (أهل الساحل - إذاوشوقم - إذاومستي) أيت به ويحيى (أيت السومر - أيت عبد الله - اصبويا)	القائد باكر بن إبراهيم التسلاني البوعمراني القائد حسون بن هم بن عمارة الساحلي البوعمراني القائد علي بن أحمد العبدلاوي البوعمراني القائد أحمد بن عبد الله بن محمد اصواب الغزاوي البوعمراني القائد أحمد بن محمد البوبكري البوعمراني القائد إبراهيم بن سعيد

البوبكري القائد لحسن بن عليات الصبوي البوعمراني القائد علي بن عبد الله العبدلاوي		
القائد موسى بن الشيخ أحمد بكاس خليفة القائد أحمد بن الطاهر أبلاغ	أيت عمرو أزالان (أهل الوطاء) أيت إيسفن (أهل الويدان)	إذاو بعقيل
	أهل أغبال وافلان - أهل تسيلة - أخرفان - الزاوية - إفتاس - إذاولون - يكوت - أيت إلياس - أفنس - الجوابر - تسنولت -	أهل ماسة
القائد محمد بن علي بن عبد الرحمان	العين - واعراس - أولاد محمد - البوير - الركادة	أولاد جرار
القائد الحاج بلقاسم بن يحيى أعدي القائد إسماعيل بن عد بيروك الشيخ القائد أحمد والحسين	أزغننان - أيت الشيخ - يشوخ اتن	رسموكة
القائد يحيى بن محمد البريمي	أيت خلوف - أيت همان	أيت ابراهيم
القائد أحمد بن المختار السعيد الهوري	أولاد سعيد	هواره

القائد صالح بن الحاج ابيه الحفائي النعائمي	القائم	
القائد سعيد بن بلعيد الكرومي الطالعي الكرداني الهواري	الكراردة	
القائد مبارك بن العليم الحفائي النعائمي الهواري	النعائم	
القائد بومهدي بن حماد الكرداني الكرومي الهواري	الكردان	
القائد محمد بن احمد الزفطي	الزوافظ - أيت مسعود - أيت ياسين - أولاد بن حويلة - أيت توسة - أيت حماد	أيت بلة (تكنة)
القائد دحمان بن بيروك التكني القائد محمد بن الكوري التكني القائد محمد ولد ميلود التكني		تكنة
القائد سعيد الجعيدي اليحياوي		إداوزدوت أيت عبد الله إداونضيف إداوسك أهل إمنزارا
القائد الرجراجي الدوبلاي	أهل الساحل	مسكينة

القائد محمد اليزيد	أهل القبلة - أيت عباس	
القائد بورحيم الإقاسي		أيت إيكاس
القائد عثمان المجاطي		مركيتة - إذاوزال (الوطاء) - متاكة - وزيوة - سجتانة - اندوزال (الجل) - جطيوة - أهل تارودانت تيوت
القائد أحمد ولد باشا		أيت سمك
القائد علي بن الشيخ مسعود القائد إبراهيم بوفوس.	أيت علي - أيت بوياسين - أيت عرب - أيت بويافود	الاخصاص

بجانب مشروع الإصلاح الإداري، حمل السلطان مولاي الحسن الأول معه مشروعاً يمكن اعتباره مهماً، إنه مشروع فتح مرسى على الحدود بين قبيلتي تكنة وأيت باعمران بالمحل المسمى بأساكا، ليقام عبره التبادل التجاري بين القبائل المذكورة والتجار الأوربيين تحت مراقبة المخزن، معللاً ذلك بقوله: "ليسهل عليكم وعليهم بقرها، تعاطي البيع والشراء فيها، لبعد مراسي إيالتنا السعيدة عنكم، ولحاق المشقة لكم في سفركم لها بقصد ذلك، مع ما بلغ لعلمنا الشريف من تشوفكم ورغبتكم في فتحها، وتضييع أموال لكم لها بال في الاختلاس بالبيع والشراء هناك، مع ارتكاب أمور في تعاطيها محرمة، وشراء الرخيص بأغلى ثمن، وبيع الغالي مبخوساً، حتى إن البعض منكم أراد أن يخلع بسبب فتحها ربة الطاعة ويفارق الجماعة، وهذا من جملة المقصود الأهم عندنا في وجهتنا السعيدة لبلادكم"⁴⁴.

بالإضافة إلى ما لهذا المشروع من فوائد تجارية كبيرة تعود بالنفع على المخزن وتجار المنطقة، كانت له نتائج سياسية أفصحت عنها الرسالة التي وجهها الحسن الأول إلى الخديم الطيب بن هيمة، جاء فيها: "إذ بفتحها يستقيم أمر الدفاع، ويسهل على أهل المحل البيع والابتاع"⁴⁵.

44 - الكناش، ص 58.

45 - نفسه، ص 62.

وفي سياق التصدي للمحاولات الأوربية التي استهدفت سحب البساط من تحت أقدام المخزن، بالدخول في علاقات تجارية مباشرة مع بعض أعيان القبائل السوسية، وعلى رأسهم آل هاشم وآل بيروك، أصدر السلطان أوامره إلى قواد وعمال القبائل المطلة على الساحل الأطلنطي، بتشديد الحراسة في المراسي كمرسى أكلو ومرسى سيدي محمد بن عبد الله ومرسى سيدي ورزيك ومرسى أساكا اصبويا بحيث: "لا يدخل منها شيء ولا يخرج إلا بأمر مولوي"⁴⁶.

تعكس لنا حركتا سوس الأولى والثانية، العناية الفائقة التي أولاها السلطان الحسن الأول لمنطقة سوس والصحراء، من خلال تفقد أحوال رعاياه بالجنوب المغربي، وإعادة ترتيب إدارة المنطقة بما يضمن يقظة هذا الجهاز الإداري وفعاليته في حمايتها والذود عن ترابها، الذي يعد جزء لا يتجزأ من وطننا العزيز، والانفتاح على القبائل والاستماع إلى مشاكلها والعمل على حلها بعين المكان، والاستجابة لاقتراحات وفودهم بشأن تعيين من يختارونه لتولي شؤونهم وإدارة ناحيتهم، وكأننا بالحسن الأول رحمه الله يجسد المعنى الحقيقي للحكم الذاتي الذي اقترحه المغرب لطبي صفحة النزاع المفتعل حول الصحراء المغربية.

بيعة الشناقطة للدولة العلوية الشريفة

ذ. محمد الترصالي
باحث في علم الاجتماع،
كلية الآداب ظهر المهرز - فاس

يعود أصل البيعة إلى التشريع الإسلامي باعتبارها نظاما أساسيا، أطلق عليه تسمية "نظام البيعة".

والبيعة هي المبايعة على السمع والطاعة، بواسطة إشراف الناس في اختيار أميرهم عبر نظام المبايعة، الذي هو دعامة أساسية لطريقة الحكم في الإسلام.

ولهذا يقول الله تبارك وتعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنَّا أَغْنَىٰ عَنْهُ﴾¹.

وفي السورة ذاتها يقول عز وجل: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾². كما أن هناك بيعة للنساء جاء بها القرآن الكريم، فقال جل جلاله: ﴿فَبَايَعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾³.

وفي الحديث النبوي الشريف تأكيد على أهمية أخذ البيعة لولي الأمر عند المسلمين جميعا خاصتهم وعامتهم، ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"، وقال صلى الله عليه وسلم: "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية".

ويشكل هذا الاهتمام الديني بالبيعة في القرآن والحديث الأسس التي يبنى عليها نظام الحكم في الإسلام.

فلقد بايع الصحابة النبي محمدا صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة. وبهذا يتأكد أن البيعة واجبة على الرعية تجاه الراعي، ويكون بذلك أميرا للمؤمنين.

1 - سورة الفتح، الآية: 10.

2 - سورة الفتح، الآية: 18.

3 - سورة الممتحنة، الآية: 12.

وإسوة بذلك بايع المغاربة جميعا شرقا وغربا شمالا وجنوبا الأسرة العلوية الشريفة على السمع والطاعة، وبذلك نشأ عقد اجتماعي وسياسي يستمد مشروعيته من الإطار الديني الذي يكون بين طرفين، السلطان والرعية / الشعب والحاكم.

وستتناول في هذا المقال بيعة الشناقطة للدولة العلوية الشريفة، وذلك لنؤكد على ارتباط منطقة شنقيط بالمغرب، وأنها جزء لا يتجزأ من الدولة المغربية، ماضيا وحاضرا ومستقبلا. وبذلك، فهي علاقة ضاربة في عمق التاريخ. ترى ما هي حدود منطقة شنقيط؟ ومن هم الشناقطة؟ وكيف كانوا يقدمون البيعة؟

تعد بلاد شنقيط من البلاد العربية الموجودة في أقصى المغرب، والمعروفة بعلم أهلها وفصاحة ألسنتهم، وهذا ما هو متداول على ألسنة كبار السن في المنطقة حيث يقولون إن العلم متواجد في مكانين اثنين: في شنقيط، وفي فاس.

وما يميز الشناقطة هو تعاطيهم للشعر، حيث سميت منطقتهم ببلدة المليون شاعر، وهذا راجع للحضور التام للشعر في الثقافة العربية على وجه العموم، وفي الثقافة الحسانية بصفة خاصة. ويعرف أهل شنقيط أيضا بكثرة الحجيج.

أما من حيث التحديد الجغرافي لمجال شنقيط، فيحد هذا القطر شمالا: الساقية الحمراء، وهي تابعة له وجنوبا قاع ابن هيب، وهو تابع له أيضا، وشرقا: ولات والنعمة، وهما تابعتان أيضا له، وغربا السنغال، المعروفة عند أهل البلد بأندر، وهي خارجة عنه⁴.

إن شنقيط في الأصل اسم بلد، وألحق به ما جاوره، فسمي الكل باسم البعض، وبهذا تنقسم بلاد شنقيط إلى أقسام. أحدهما: أدرار، وينقسم إلى قسمين، الظهر: وفيه شنقيط الأصلية. والباطن: وفيه أطار، إحدى مدن شنقيط المشهورة. وباقي الأقسام، يحتاط بأدرار من جهاته الأربع⁵. كما أن شنقيط بنيت سنة 660هـ 1262م، ومعناه عيون النخل، كانت تحوي أحد عشر مسجدا، بالمسجد العتيق العامر اليوم. وكان الركب يمشي من شنقيط إلى مكة كل عام، ويتعلق بهم كل من أراد الحج من سائر الآفاق، حتى إن أهل هذه البلاد الممتدة من الساقية الحمراء إلى السودان يعرفون عند المشاركة بالشناقطة⁶.

4 - أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدياء شنقيط، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة 2008م، ص: 422.

5 - نفسه، ص: 427.

6 - المختار ولد حامد: موسوعة حياة موريتانيا، التاريخ السياسي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م، ص: 63.

وفي هذا الصدد يقول ياقوت في معجمه: "والسوس أيضا، بلد بالمغرب، كانت الروم تسميها قمونية. وقيل السوس بالمغرب: مدينة كورثها طنجة وهناك السوس الأقصى، كورة أخرى مدينتها طرقله. ومن السوس الأدنى إلى السوس الأقصى، مسيرة شهرين، وبعد بحر الرمل، وليس وراء ذلك شيء يعرف"⁷.

وفي هذا المنوال المتعلق بجغرافية شنقيط ذهب الشيخ محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين إلى وصف القطر بأنه قطر مغربي عربي مشهور، ذائع الصيت شهرة، فضله بالغ مبلغ صيته، فكأنها فرسا رهان أو جناح طائر.

ويطلق على بلاد شنقيط أيضا مراكش منذ صار مراكش يطلق على حكومة سلطان المغرب الأقصى.

وأما تسميته شنقيط، فهي كانت تطلق على قرية من قرى أدرار معناها عيون الخيل في لغتهم القديمة، بنيت عام ستمائة وستين هجرية في موضع يقال له أبير⁸. وبلاد شنقيط بلاد كبيرة جدا تحتوي على واحات كثيرة ومدن وقرى قديمة.

وأول من فتح بلاد شنقيط، هو عقبة بن نافع الفهري. عندما فتح المغرب الأقصى في القرن الأول الهجري. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت شنقيط جزءا من المغرب الإسلامي على اختلاف الظروف وتعدد الولاة، وفي عهد سلطان المغرب مولاي إدريس رحمه الله تعالى، كانوا من أخلص شيعته القائمين بدعوته على بعد دارهم. ومنذ ذلك الحين وشنقيط منضم إلى سلطان مراكش راضيا بما عقد عليه⁹.

ويعلق صاحب "الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط" على أهل هذا القطر من المغرب بكونهم من الرعايا الأوفياء وأخلصهم طاعة لسلطان مراكش من بداية الفتح الإسلامي وحتى الآن، حيث لم يخرجوا يوما عن طاعته ولا عن إمرته، ولم ينزعوا منه يدا، ولم تطمع عيونهم إلى سواه ولم ينشغلوا فيما يظلم الجو ويكدر الوقت بينهم معه. بل على العكس من ذلك، فهم منقادون إلى طاعته طبعاً معترفون به، وكلما سمعوا أن البيعة انعقدت في مراكش شدوا الرحال إلى السلطان

7 - المختار ولد حامد: مرجع سابق، ص: 427.

8 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين: الجأش الربيط في النضال عن مغربية شنقيط وعربية المغاربة من مركب وبسيط، مطبوعات دار القلم، بدون تاريخ النشر، ص: 11.

9 - نفسه، ص: 12.

وجددوا له بيعتهم، ولا يتدخلون في غير ذلك من الجزئيات الداخلية، معتقدين في ذلك كونهم جزء من الرعية تنسحب عليهم البيعة عند انعقادها، وكذلك السلطان يعتقد فيهم ذلك، ويتحققه منهم، ولذلك يكتفي في شأنهم بأن يبعث لهم الكتب والرسائل بأوامره ويعين عليهم العمال من أنفسهم في بلادهم. والسلطان لم يحتاج تجهيز الجيوش، خلافا للكثير من الرعايا، وذلك راجع لصفاء قلوبهم. فمهما وصلهم، لا يلقي إلا البشارة والسرور على وجوههم، محتفلين بقدومه والتمن بطلعته¹⁰.

وما يؤكد صلة شنقيط بالمغرب، هو كون الإمبراطورية العثمانية لم تصل المغرب وبقيت شنقيط تابعة له.

تنتمي شنقيط إلى المغرب الإسلامي، وذلك معروف عند أهل شنقيط وأهل المغرب، إلا أن بعض المشاركة أنكر ذلك وادعى أنها من السودان؛ وذلك أن بعض الشناقطة كان مقيما في المدينة المنورة، فكان يأخذ من وقف المغاربة العمومي، فتعصب عليه الجزائريون خاصة وقالوا إن الشناقطة ليسوا مغاربة، فمنعوه من أخذ حصته¹¹.

ولكن هذا لا يعني صحة زعمهم، بل إن السلطان سيدي محمد بن عبد الله بين أن الشناقطة مغاربة في حكمه الذي أصدره على خلفية أحداث مشابهة.

ولم يقبل مفتي المدينة المنورة تاج الدين إلياس رحمه الله ما في الكتابين بكون الشناقطة مغاربة، واعتبرهم من السودان متخذا في ذلك مقتضى ما هو موجود في الجغرافيا، إلا أن الصفوة الأزهرية، نصت على أن شنقيط من المغرب تقطنها قبائل مغاربة مسلمون¹².

وبعد ذلك اتضح خطأ ذلك المفتي رحمه الله، إلا أن ما تأسف عليه أحمد بن الأمين الشنقيطي، هو أنه نبذ خط السيد مرتضى بيده، وكلام سيدي العربي بن السائح، وحكم بالجغرافيا، إلا أن الجغرافيا ليس فيها ما نسبته إليها¹³.

تنتمي شنقيط إذا إلى المغرب الإسلامي، وليس إلى السودان كما هو معروف عند العامة والخاصة من ساكني المشرق والمغرب، وذلك في سياقها التاريخي وعلاقة قبائل تلك البلاد بسلطين المغرب، وقبائله التي تشكل امتداده السياسي والعنقي والاجتماعي والثقافي.

10 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، مرجع سابق، ص: 13.

11 - أحمد بن الأمين الشنقيطي: مرجع سابق، ص: 423.

12 - أحمد بن الأمين الشنقيطي: مرجع سابق، ص: 423.

13 - المرجع نفسه، ص: 423.

فأهل هذه البلاد الممتدة من الساقية الحمراء إلى السودان، إذا رؤوا، لا يعرفون عند أهل المشرق إلا بالشناقطة إلى الآن، ويصفونهم بكثرة الحج، حيث تحج العائلة كلها منهم، حتى لا يبقى لا صغير ولا كبير إلا وأدى فريضة الحج، من شدة اعتنائهم بتلك الفريضة. وقد كان العلويون يقدمون من كان معهم من الزوايا للإمامة، فكانت أولا للسائدة، ثم جعلوها للأغلال، فتغيروا من ذلك وخرجوا من شنقيط، فذلك سبب خروج السائدة منها. وقد خرج يوما من شنقيط، اثنان وثلاثون ألف جمل موقرة بالملح؛ عشرون لأهله، واثنان عشر لأهل تيشيت. وباعت الرقعة كلها في زار، فتعجب الناس أي البلدين أعمر، مع اتفاق الكلمة. وكانوا إذا مات شيخ، رأسوا عليهم آخر. فبقيت دولتهم بشنقيط، دولة دين ودنيا ثلاثا وثمانين سنة، مدة حياة الشيخ سيدي أحمد بن الوافي. فلما توفي وقعت الحرب بينهم¹⁴.

ومن خلال هذه النظرة التاريخية المتعلقة بقطر مغربي مهم من بين الأقطار المعروفة بالعلم، يعرج بنا الحديث نحو الانتقال بالكلام عن عرب معقل شنقيط، وفي هذا النحو يعرفهم الشيخ محمد الإمام بأن لفظة عرب المقصود بها الطبقة العليا من عرب معقل، لا يشاركون فيها غيرهم، فقد صارت علما عليهم وليس المقصود هنا انتفاء الانتماء العربي عن غيرهم بالكلية، لكن أهل هذه البلاد لم يكونوا عربا، كما أن شنقيط لم تكن خالية من العرب بالكلية قبل قدوم عرب معقل¹⁵، ومن المتفق عليه أن المنطقة قطنها صنهاجة قبل قدوم العرب.

وبعد قدوم العرب إلى شنقيط في ضربين مختلفين وفي زمنين متفاوتين، واحد منهما في زمن أبي بكر، والثاني في زمن ابن عمر اللمتوني في القرن الخامس، وذلك أنه لما تخلى عن الملك لصالح ابن عمه يوسف بن تاشفين هم بالرجوع إلى شنقيط، واصطحب معه بعض أهل الفضل وذرية عقبة بن نافع، ومن انضم إليهم تبركا وتيمنا، وتجملا بصحبته فنموا وكثروا واندرجوا في قبائل صنهاجة، لكنهم لم تنقلب بهم البلاد عن آدابها القديمة، ولغتها الأصلية، بل هم الذين انسحب عليهم حكم البلاد لأنهم لم يدخلوها على وجه عصبية، وتغلب وظلم بل دخلوا تحت راية أمير من جملة حاشيته ورعيته، ومع ذلك حافظوا على أنسابهم¹⁶.

14 - المرجع نفسه، ص: 426.

15 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، مرجع سابق، ص: 27.

16 - المرجع نفسه، ص: 27.

أما بخصوص عرب معقل فإنهم على العكس من هؤلاء قد دخلوا البلاد على كيفية عصبية وتغلب، ينتقلون ويقيمون بأحيائهم ووطنهم محافظين على زيهم وعوائدهم وطبائعهم ولغتهم. فانقلبت بهم البلاد من اتجاه إلى اتجاه، فاقبست الناس من آدابهم العربية¹⁷.

وتطلق عرب معقل اليوم على قبائل كثيرة من إقليم شنقيط، كما أنه يطلق عليها قبائل حسان تغلبيا للجزء على الكل¹⁸.

وأصل بني حسان يعود إلى بطن من بطون معقل. والمعقل ثلاثة: معقل جعفري يرفع نسبه إلى جعفر الطيار بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعقل قضاعي يرفع نسبه إلى معقل بن كعب بن عليم بن جناب ينتهي نسبه إلى قضاعة، ومعقل كهلاني يرفع نسبه إلى معقل بن كعب بن ربيعة بنت الحارث بن كعب. ينتهي نسبه إلى كهلان أصحاب نجران، الذين كان منهم بنو عبد المدان ملوك نجران جاهلية وإسلاما¹⁹.

وهكذا تنتمي منطقة الساقية الحمراء إلى شنقيط، وهي حدودها الشمالية كما ذكر ذلك صاحب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، غير أنها "كانت في القديم من مجالات اللمتونيين، وكانت تعرف في لسان صنهاجة بإسم (تازكاغت) أصله هو مؤنت الكلمة البربرية (أزكاغ) وتعني الحمراء. وأقدم ذكر عربي لها -حسب علمنا- ورد في كتاب العبر لابن خلدون، حيث سماها الحمراء. أما اسم (الساقية الحمراء) فموجود على خريطة أبراهام اكريسك (abraham cricques، ق14) بإسم الأمار²⁰.

ومما تقدم، يظهر جليا أن المنطقة الممتدة من الساقية الحمراء إلى السودان (السينغال)، أطلق عليها تسمية أرض شنقيط، وعلى ساكنتها تسمية الشناقطة، والتي كانت بدورها امتدادا لتسمية جديدة، وهي تراب، البيضان، حيث أطلقها بالأمس القريب الفرنسيون على المنطقة.

إلا أنه بالرغم من هذه التسميات التي أعطيت للمنطقة، ظل اسم شنقيط هو الأكثر شيوعا وانتشارا بين الأوساط السودانية والمشرقية والمغربية، وظل لأهلها تعلق ووفاء للسلطين المغاربة، ماضيا وحاضرا مستقبلا.

17 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، مرجع سابق، ص: 27.

18 - محمد الإمام بن الشيخ ماء العينين، مرجع سابق، ص: 27.

19 - المرجع نفسه، ص: 28.

20 - سيد محمد الخليفة الكنتي: الرسالة الغلاوية، تحقيق ودراسة د حماد الله ولد السالم، مؤسسة الشيخ مربيه ربه لإحياء التراث والتبادل الثقافي، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، الطبعة الأولى، 2007، ص: 258.

مظاهر من الدفاع عن الوحدة الترابية بمغرب السعديين: أسلوب الدفاع العسكري أنموذجا

ذ. نور الدين احجيرة
الكلية متعددة التخصصات - تازة

عندما اعتزمت المشاركة في هذه المجلة العلمية القيمة، فكرت في أن أعالج موضوعا يتيح لي:
- أولا: فرصة تسليط مزيد من الضوء على المشاهد البطولية من التاريخ العسكري المغربي.
- ثانيا: قراءة هذه المشاهد وتقديمها في إطار ملحمة الدفاع عن وحدة المغرب الترابية، المتجددة صورها في التاريخ المغربي العريق.

وقد أثار اهتمامي، وأنا أنجز عملا أكاديميا حول التاريخ العسكري للمغرب في العصر الحديث، زخما من النصوص والإشارات ضمن الإستغرافيا التقليدية، تستدعي وقفة أطول وقراءة دقيقة لاستنباط نتائج جديدة وهامة. فتعاملت مع هذه النصوص وجلت في ثناياها وتبين لي جليا أنها تغري بالبحث حول تجدر الحس الوطني لدى المغاربة ومدى أهمية الدفاع العسكري في الحفاظ على وحدة المغرب الترابية. لذلك وقف اختياري في تحديد موضوع هذه المداخلة عند معالجة الأسلوب العسكري كمظهر من مظاهر الدفاع عن التراب المغربي إبان عهد الدولة السعدية.

وقبل هذا وذاك، هناك ثلاث أدوات لا بد من الإشارة إليها للإحاطة بسياق هذه المساهمة العلمية وفهم إطارها العام:

الأداة الأولى هي وصول الحملات العسكرية الإيبيرية إلى السواحل المغربية واجتزاها لعدد من الثغور والمناطق في إطار عملية استعمارية واسعة النطاق زمنيا ومجاليا.

الأداة الثانية تتمثل في الزحف التركي عبر الشرق وامتداده إلى حدود تخوم المغرب الشرقي مما أصبح يشكل خطرا حقيقيا على التراب المغربي ومجالاته الحدودية.

الأداة الثالثة هي التغيرات العميقة التي طرأت خلال الفترة نفسها على مستوى الأسلحة والتقنيات المرتبطة بها، وما واكب ذلك من تطورات في توجيه المعارك والحروب وكذا النتائج التي أصبحت تنتهي إليها.

ومن الملاحظ أن كل هذه الأخطار والتحويلات تزامنت وتكاثفت على المغرب مع قيام الدولة السعدية، وهو ما سيعطي لمسألة الدفاع عن التراب المغربي طابعا خاصا، ويجعل الحزم في ذلك مطروحا بحدّة.

- التطورات والأخطار التي واجهت المغرب خلال القرنين 16 و17م:

أ- الحملات العسكرية الإيبيرية وكابوس الاحتلال:

يمكن الحديث عن هذه الحملات في سياقين اثنين:

أولهما: إن بلدان غرب أوربا وخاصة شبه جزيرة إيبيريا استفادت من النهضة الأوربية وطورت أوضاعها الداخلية مما عاد عليها بنتائج كبرى جعلتها تهتم ببناء الأساطيل البحرية وتشجيع التجارة مع الخارج والتطلع للوصول إلى مواطن الذهب والتوابل.

وكان من الطبيعي أن تدفع هذه التطلعات بالإيبيريين إلى الاهتمام بالجانب العسكري والاستفادة مما توصلت إليه باقي البلدان الأوربية في ميدان الصناعة الحربية؛ ذلك أن التحولات التي شهدتها المجتمع الأوربي، قد واكبها تطور في أشكال الحرب وتقنياتها¹. وبذلك استفاد الإيبيريون في وقت مبكر من استعمال الأساطيل الحربية القوية، واستخدام الأسلحة النارية والتقنيات المتعلقة بها.

وهكذا شكل القرن 15م فترة تحول في العلاقة بين المغرب وأوربا، تحول ظهر بشكل واضح على مستوى العمليات العسكرية. فبعد أن كانت هذه الأخيرة تتم باتجاه جنوب شمال مع انطلاق المبادرة من المغرب وانتهائها بانتصاره، انعكست هذه العلاقة من حيث الاتجاه ومن حيث المبادرة ومن حيث نتيجة المعارك أيضا، وبالتالي كان أن فقد المغرب عددا من مدنه الساحلية والبوادي المجاورة لها².

ثانيهما: إن هذه الحملات الإيبيرية سلكت أساليب متنوعة في تحقيق السيطرة على الثغور المغربية، اختلفت وفقا لأهمية تحصينات المدن وكذا الظروف المحيطة بعمليات الاحتلال.

وتكاد تجمع مصادر الفترة وما بعدها على أن هذه العمليات انبنت في جوهرها على تخطيط دقيق وعمليات استطلاعية حاولت تفحص خصوصيات كل مدينة على حدة وتمهيد السيطرة

1 - CONTAMINE (Philippe) : La guerre au moyen âge, Imprimerie des presses universitaires de France, 1986, P 227.

2 - عبد اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17م، ط1، 1982، ص15.

عليها³. وهكذا ظلت الحرب ضد الإيبيريين الهاجس الملازم بخصوص هذه الثغور التي عرفت بفعل ذلك متاعب جمّة ظهرت على مستوى ساكنتها البشرية ومصادر تموينها؛ بل عرفت خلخلة عميقة في بنيتها ومكوناتها العمرانية⁴.

ب- الأتراك العثمانيون على الواجهة الشرقية:

الأتراك العثمانيون من القوى الكبرى التي ظهرت على مسرح أحداث البحر الأبيض المتوسط منذ مطلع القرن 16م. سيطروا على جل الشرق الإسلامي وشرق أوربا، لتتجه أنظارهم توا نحو الجبهة الغربية لتأمين حدود إمبراطوريتهم من أخطار القوى الأوروبية الصاعدة في الغرب من جهة، والتطلع إلى التحكم في الطريق التجارية عبر المحيط الأطلسي من جهة ثانية⁵.

في هذا السياق سعى الأتراك العثمانيون إلى ضم المغرب إلى إمبراطوريتهم بهدف الاستفادة من موقعه الاستراتيجي. ومع منتصف القرن 16م، شرعوا في بسط نفوذهم على مجالات، أصبحوا من خلالها في اتصال وتماس بالتراب المغربي من جهة الشرق؛ وهو ما بات يجسد تهديدا حقيقيا للمغرب ويفرض هاجسا أمنيا سيتحكم في طبيعة العلاقة بين الأشراف السعديين من جهة، والأتراك العثمانيين من جهة ثانية⁶.

3 - ذكر مارمول كاريخال أنه في إطار التمهيد لاحتلال سبتة، أوفد الملك البرتغالي جون الأول (Jean I^{er}) سفينتين للقيام بمهمة استطلاعية تستهدف معرفة طبيعة منطقة سبتة وفحص الأماكن الداخلية للمدينة والمناطق المحاذية. ينظر: مارمول كاريخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1989م، ج. 2، ص 218.

وشكلت هذه العمليات الاستطلاعية قاعدة صلبة وضرورية لكل عمل حربي على الساحل المغربي، فقد ذكر دو كويش أن الملك البرتغالي دون مانويل (D.Manuel) أرسل دون جواو دي مينيزيس (D. João de Meneses) سنة 1507م رفقة شخصين آخرين على متن ثلاث سفن لمعرفة أحوال أزموور، المعمورة، سلا والعرائش. وقد ضم الوفد مهندسين طبغرافيين تولوا مهمة إنجاز الخرائط للمراكز المذكورة. ينظر بهذا الخصوص:

DE GOIS (Damião), Les portugais au Maroc de 1495 à 1521, Tra. Robert Ricard, Edi. Felix moncho Rabat, 1937, P 58.

4 - EVIN (Paul Antoine), Un musée portugais à mazagan, Mélanges d'études luso-marocaines dédiés à la mémoire de DAVIDE LOPES et PIERRE DE CENIVAL, Publié avec le concours de l'Instituto Para A Alta Cultura et de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines de rabat, PP 67-73.

5 - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، شركة الطبع والنشر البيضاء، 1977م، ص 4.

6 - اعتبر محمد مزين أن جل الكتابات التاريخية التي أهتمت برصد الخطاب المعتمد في علاقة المغرب بالدولة العثمانية منذ القرن 16م إلى القرن 20م قد خضعت للمعطي المتمثل في الصراع الدائم بين العثمانيين من جهة، والغرب الإسلامي من جهة ثانية، حيث كان العثمانيون يحاولون إدخال هذه البلاد تحت نفوذهم في الوقت الذي حرص فيه المغرب على الإفلات من السيطرة العثمانية. وقد شكلت فترة حكم السعديين، حسب محمد مزين، خير دليل عن هذا الصراع. ينظر: محمد مزين، الكتابات التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقة المغرب بالعثمانيين، المجلة التاريخية المغربية، السنة العاشرة، ع 29، 30، يوليو 1983، تونس، ص 458.

ج- مسألة السلاح الناري:

اعتبر جل من كتب حول السلاح الناري أن القرن 14م شكل مرحلة الظهور الحقيقي لآلة الحرب النارية وأن القرن 15م مثل البداية العملية لوظيفة السلاح الناري في توجيه الحروب⁷. غير أنه بالرغم من ذلك ظلت وظيفته محدودة في الحصار والتحصين وهو ما فسر محدوديته في حسم المعارك والمواجهات العسكرية⁸.

ومع القرن 16م استكمل السلاح الناري أهم وظائفه الحربية، حيث أصبحت المدافع، مثلاً، تصاحب الجيش أثناء الحملات العسكرية، وبالتالي، جعل ذلك من هذا القرن مرحلة تحول عميق في مجال إنتاج واستعمال السلاح الناري بشكل عام⁹.

وبالفعل، فقد جسدت بداية انتشار السلاح الناري في المغرب من حيث الإنتاج والاستعمال ظاهرة ميزت عصر السعديين، أي تلك الفترة التي شهدت تزايد وتكالب الأطماع الأجنبية حول المغرب. وهذا يعني أن هذه التهديدات أصبحت تشكل أخطاراً جمة على وحدة المغرب الترابية بفعل ما أصبحت تعتمد من آلات الحرب النارية من جهة، ومن جهة ثانية فإن مواجهة هذه التحديات طرح أمام الدولة السعدية توفير مجموعة من الشروط والأدوات التي تيسر تكاليف تملك السلاح الناري وأساليب استعماله¹⁰؛ وهي جوانب ستعطي في مجملها للدولة السعدية طابعاً جديداً وخصوصية واضحة في نهج الأسلوب العسكري للدفاع عن التراب المغربي وحمايته من الأطماع الأجنبية. وهذا يأتي بنا إلى المستوى الثاني من المساهمة.

- السعديون وملحمة الدفاع العسكري عن وحدة المغرب الترابية:

في خضم التطورات والأخطار التي تكاثفت حول المغرب والتي شكلت بالفعل مخاضاً عسيراً عاشته البلاد منذ مطلع العصر الحديث، ظهرت الدولة السعدية كدولة إنقاذ لمجابهة الأطماع الأجنبية ودرء أخطارها عن المغرب. وتجدر الإشارة إلى أن العمليات العسكرية الأولى التي قادها السعديون قد اتجهت في بداية الأمر لمحاربة الإبريين على السواحل التي سيطروا عليها لتنتقل جيوشهم توا نحو الشرق بهدف حماية حدود البلاد وصد الأخطار التركية عنها. وقد تبلورت كل

7 - BRAUDEL (F), Civilisation matérielle, économie et capitalisme XV - XVIII siècle, Paris, Armand Colin, 1979, T1, P 338.

8 - CONTAMINE (Ph), Op cit. PP 341, 342.

9 - محمد المهناوي، السلاح الناري بمغرب السعديين، رسالة لنيل د.د.ع في التاريخ، كلية الآداب ظهر المهرز، فاس 1988م، ص 6.

10 - نفسه.

هذه الجهود في صبغة رد الفعل الوطني، وجسدت مدى وعي المغاربة بضرورة تراص صفوفهم وانتمائهم إلى أمة موحدة وصلبة لا تقبل التجزيء¹¹. بناء على هذا المنهج إذن يمكن أن نتحدث في البداية عن:

أ- الجهود العسكرية السعدية على السواحل وتحرير الثغور:

يجب التأكيد منذ البداية أن كل المصادر التاريخية التي أرخت لنشأة الدولة السعدية قد ربطت بقوة بين ظهور هذه الدولة من جهة، ومواجهة الأجنبي وحماية التراب المغربي من جهة ثانية¹². ومما تجمع عليه هذه المظان التاريخية أن الأسرة السعدية أخذت على عاتقها، منذ أن بايعتها قبائل سوس بإشارة من أكبر أولياء الجنوب، الولي أقا سيدي محمد بن مبارك، محاربة البرتغاليين على الساحل. وقد انطلق محمد بن عبد الرحمان السعدي الملقب بالقائم بأمر الله ب (500 فارس) تم جمعهم من خمسين قبيلة شكلوا النواة الأولى للجيش السعدي. وقد استهدف هذا الجيش منذ البداية، أي منذ 1511م، محاصرة أكادير وتمكن من طرد البرتغاليين من حصن تافتنا الذي كان يشرف على طرق المواصلات بين أكادير والمناطق المجاورة لها. وبعد بضع سنوات استرجع السعديون ماسة وتركوكو وحصن أكوز. ولعل ما يمكن استنتاجه من خلال ما بدر من السعديين من عمليات عسكرية خلال العقد الأول من بدايتهم، أنهم وجهوا اهتمامهم نحو المراكز والثغور الصغرى ذات المواقع الاستراتيجية التي لم تكن مراقبة بشكل كبير من طرف البرتغاليين، لخلق جبهة أمامية من جهة، وفتح منافذ بحرية على التجار الأجانب لاقتناء السلاح الناري من جهة ثانية. ويمكن القول إن هذه المراكز الصغرى وخصوصا تافطنا وتاركوكو لعبت أدوارا هامة في تزويد السعديين بالسلاح الناري؛ وهو ما مكنهم من فتح واجهتين حربيتين أمام البرتغاليين: أولاهما في عبدة انطلاقا من مراکش بقيادة أحمد الأعرج، وثانيهما في سوس بقيادة أخيه محمد الشيخ. وقد تجند كل سكان هذه المناطق لدعم الجهود السعدية¹³.

هنا نتحدث عن مرحلة تمتد إلى حدود 1541م، هذه المرحلة ستعرف احتدام الحرب بين السعديين الذين انصب اهتمامهم على تطوير قدراتهم العسكرية بشتى الوسائل والطرق، وبين

11 - جرمان عياش، دراسات في تاريخ المغرب، الشركة المغربية للنشر المتحدين، ط 1، 1986م، ص 337.

12 - يمكن مراجعة بهذا الخصوص على سبيل المثال لا الحصر: مؤلفات ابن القاضي: المنتقى المقصور ودرة الحجال وجدوة الاقتباس ثم مؤلف الفشتالي: مناهل الصفا، ومؤلفات اليفراني وخصوصا نزهة الحادي، ثم تاريخ الدولة السعدية التكميلية لمؤرخ مجهول.

13 - محمد حجي، جولات تاريخية، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، 1995م، ج 1، ص 63.

برتغاليي الثغور الذين انتقلت بهم الأوضاع إلى طور الدفاع. والواقع أنه طيلة هذه المرحلة، قليلة هي السنوات التي لم تكن تشهد هجمات سعدية على البرتغاليين بحيث لو رجعنا، على سبيل المثال، إلى المصادر التقليدية المغربية بخصوص فترة 1535-1539م لوجدنا أن عدد الهجمات التي تعرض لها برتغاليو أكادير، أسفي وأزمور يفوق العشرين هجوما¹⁴.

وهكذا، فمع نهاية الربع الأول من القرن 16م، أصبح الوجود البرتغالي بالسواحل المغربية يعرف صعوبات همة. ولم تصل سنة 1525م حتى توقفت تلك الغزوات المربحة التي كان يقوم بها البرتغاليون انطلاقا من الثغور التي أصبحوا يسيطرون عليها، بل يمكن القول إنهم أصبحوا محاصرين بصفة فعلية منذ بداية الثلاثينات من القرن نفسه. وقد جاء ذلك نتيجة للتحول الذي عرفته الاستراتيجية العسكرية السعدية التي انتقلت إلى محاصرة الحصون البرتغالية والتضييق عليها¹⁵؛ وهو ما أجبر برتغاليي الثغور على توقيع عدد من الهدن مع السعديين لأنهم أصبحوا يجدون فيها متنفسا مهما لوضعيتهم المتأزمة، كما أنها كانت بالنسبة للأشراف السعديين خيارا استراتيجيا حتى يتسنى لهم تمكين قوتهم العسكرية وضمان حظوظ الانتصار¹⁶.

وبالفعل، فقد ظهرت نتيجة هذه الاستعدادات السعدية خلال الحصار الذي فرضه الجيش السعدي على أكادير بمجرد انتهاء الهدنة في شتنبر 1540م. وقد أدرك برتغاليو الحصن أنفسهم أن تحولا ما قد طرأ على القوة العسكرية السعدية، وهذا ما حدا بحاكم الحصن إلى طلب الإغاثة من البرتغال¹⁷. وقد اتبع السعديون خطة حربية مهمة جعلتهم يقومون في البداية بفرض حصار على المدينة، حيث أحاطوا بها أعدادا مهمة من المغاربة حددها صاحب تاريخ سانتاكروز في عشرين ألف فارس وأربعين ألف بندقية واثنى عشر ألف من أصحاب القذافات بالإضافة إلى خمسين ألف فرد

14 - محمد مزين، المقاومة الشعبية المغربية للتدخل الأجنبي في بداية القرن 16 حسب ما جاء في حوليات يوحنا الثالث، مجلة المناهل، ع 27، السنة 10، 1983م، ص 206.

15 - محمد المهناوي، مرجع سابق، ص 91.

16 - مجهول، تاريخ سانتاكروز - أكادير، تحقيق بيار دوسينفال، تعريب أحمد صابر، مطبعة المعارف الجديدة 1994، ص 50، 51.

راهن السعديون كثيرا على سياسة عقد الهدن مع برتغاليي الثغور خصوصا بعد فشلهم في استرجاع حصن أكادير 1533م وأسفي 1534م، حيث أكدت لهم هاتان المحاولتان بما لا يدع مجالا للشك أن الاعتماد على الكم البشري في غياب قوة عسكرية صلبة وخطة حربية مهمة لا يمكنهم من طرد البرتغاليين؛ لذلك فقد استغلوا هذه الهدنة وحاولوا تطوير قدراتهم العسكرية، ينظر:

- نور الدين أحجية، المدينة المغربية والحرب على عهد السعديين، بحث لنيل الدكتوراه، مرقون بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس - فاس، 2001 / 2002م، ص 45.

17 - مجهول، مصدر سابق، ص 15.

من إبدراين المكلفين بالحفر وحمل العتاد الحربي¹⁸. وقد شددوا الخناق على الحصن بحفرهم لعدد من الخنادق حوله للاحتماء فيها من المدفعية البرتغالية وفي الوقت نفسه قاموا بملء الخندق البرتغالي المجاور لسور الحصن بالحجارة لكي يجعلوا منه ممرا نحو الأسوار.

واستكمالا للخطة التي رسمها السعديون لاسترجاع الحصن، قاموا بعد خمسة عشر يوما من بداية الحصار بجلب المدفعية، من بينها ستة قطع من نوع "ميمونة"، وقد استعملوا الجمال والعربات في نقلها إلى ضواحي أكادير ونصبوها بحصن "البيكو" الذي كان يرتفع عن حصن أكادير بعلو يتراوح بين 200م و300م¹⁹. وقد استغرق القذف من هذا الحصن مدة عشرين يوما²⁰، إلى أن أحدثوا ثلثة بسور المدينة فاستغلها المغاربة بسرعة مما أجبر البرتغاليين على الانسحاب عبر السلام وتسلق الأسوار وبذلك تمكن السعديون من استرجاع أكادير.

إن الكيفية التي تم بها استرجاع ثغر أكادير تنهض دليلا على التطور الكبير الذي عرفه الجهاز العسكري السعدي. ولعل ذلك أيضا ما أجبر، حتى البرتغاليين الذين حضروا هذه المعركة، من أمثال صاحب تاريخ سانتاكروز، على أن يعترفوا بأن استرجاع السعديين لهذا الثغر يعزى إلى كون البرتغاليين لم يعوا في الوقت المناسب تلك التحولات التي عرفها القطاع العسكري عند السعديين²¹.

لقد جسد استرجاع ثغر أكادير في 12 مارس 1541م تحولا عميقا في علاقة المغاربة بالبرتغاليين. ومنذ هذه الفترة، أصبح الجيش السعدي يحسب له حسابه الخاص حيث بعد ستة أشهر من هذا الحدث، أمر الملك البرتغالي باتخاذ تدابير لإخلاء ثغري أسفي وأزمور إذ تم ترحيل برتغاليي هاتين المدينتين إلى مازيغن التي تم تعزيزها بالجنود وتمتين تحصيناتها²².

18 - نفسه، ص 57.

19 - محمد المهناوي، مرجع سابق، ص 93.

ارتأى محمد الشيخ السعدي بناء حصن على قمة "البيكو" المحاذية لأكادير حتى يتمكن من إحكام ضرباته لها. ولعل انبثاق هذه الفكرة لدى محمد الشيخ هو ما جعله يطلب هدنة من حاكم سانتاكروز لمدة شهرين؛ وهي الفترة التي تمكن خلالها السعديون من إكمال بناء الحصن. وقد اعتمدوا في ذلك على بعض العناصر التركية المختصة في بناء المعقل وطرق إقامة الحصار. وفي هذا السياق لم يسع المؤرخ البولوني دزيانسكي إلا أن يعتبر السرعة التي تم بها بناء هذا الحصن حجة دامغة على التطور الذي شهده الجهاز العسكري السعدي، ينظر:

- DZIUBINSKI (A), L'armée et la flotte de guerre marocaines à l'époque des Sultans de la dynastie Saadiens, Hespéris -Tamuda, Vol. XIII, Fasc. Unique, 1972, P 73.

20 - S.I.H.M, Port. T III, P 356.

21 - مجهول، مصدر سابق، ص 13.

22 - كان لإخلاء ثغري أسفي وأزمور أثر كبير على ثغر مازيغن، حيث ركز البرتغاليون منذ هذه الفترة على هذا الحصن وشرعوا في أعمال البناء والتحصين منذ صيف 1541م. وقد ارتفع مثلا عدد العمال من 1000 عامل يوم 16 يوليوز إلى 1170 عامل يوم 19 غشت من نفس السنة، ينظر:

==

ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه بهذا الصدد، أنه بعد أقل من عقد من الزمان على استرجاع أكادير، بمعنى بعد أن تمكن السعديون من توحيد المغرب تحت حكمهم بدخولهم إلى فاس 1549م، اضطرب البرتغاليون مرة أخرى إلى إخلاء ثغرين آخرين بشمال المغرب هما أصيلا والقصر الصغير دون حرب نظرا لصعوبة إغاثة الأول بفعل الرصيف الرملي الذي يميز مرفأها، ولقرب الثاني من طنجة التي ارتأى البرتغاليون تركيز جهودهم للحفاظ عليها نظرا لموقعها الاستراتيجي والحيوي.

وإذا كانت الكتابات البرتغالية اعتبرت في تحليلاتها أن إخلاء أسفي وأزمور سنة 1541م وأصيلا والقصر الصغير سنة 1550م جاء نتيجة لأسباب أخرى تتعلق بالأزمة التي أصبحت تتخبط فيها الدولة البرتغالية، جاعلة بذلك الخطر الذي أصبح يحسده الجيش السعدي على البرتغاليين لا يقوى أن يكون سببا ثانويا في عملية الإخلاء²³، فإننا من جهتنا نعتبر أن الخطورة التي أصبح يشكلها الجيش السعدي على برتغالي الثغور واتساع نفوذ الدولة نحو الشمال، كانا سببين مباشرين في ذلك؛ وهو نفس الاستنتاج الذي ذهب إليه صاحب "أخبار المنصور" حيث اعتبر أن الجلاء عن أصيلا والقصر الصغير كانا لنفس أسباب إخلاء أسفي وأزمور وهي استرجاع السعديين لثغر أكادير 1541م²⁴.

لقد استمر السعديون في تسخير جهودهم العسكرية لتحرير الثغور المغربية ومواجهة الأخطار الأجنبية. ولعل ما يميز النصف الثاني من القرن 16م، في سياق مواجهة الإيبيريين، هو محاولة عبد الله الغالب استرجاع ثغر مازيغن في مارس 1562م. هذه المحاولة التي وصفها المصادر التاريخية بأنها من العمليات العسكرية الكبرى التي نظمها السعديون ضد برتغالي الثغور والتي أبانت بقوة عن تكتل المغاربة وتشبثهم بالروح الوطنية في حماية وحدتهم الترابية. ولولا التهديد التركي الذي كان يستهدف فاس والذي أجبر عبد الله الغالب السعدي على رفع حصاره عن مازيغن، لكان قد استرجعها²⁵.

= محمد فاتحي، أضواء حول بداية السعديين، مجلة تاريخ المغرب، ع 4، 1984م، ص 36. ثم أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور (قبل 28 غشت 1481م - أكتوبر 1541م)، دار الثقافة، ط 1404هـ - 1984م، ص 423.

23 - يمكن الرجوع بخصوص هذه المصادر إلى:

حسن الفيكيكي، مقاومة الوجود الإيبيري بالثغور الشمالية المحتلة 1415م-1574م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، ط 1، 2012، ص 347.

24 - DE SALDANHA (De Antonio), Chronique d'AL- Mansour: Sultan du Maroc (1578-1603), Etude critique, Introduction et notes par Antonio Dias Farinha, trad. Léon bourbon, lisbonne, 1997, P L.

25 - S.I.H.M, Esp. T III, P 21, Note 1.

أما الحدث الثاني فهو معركة وادي المخازن 4 غشت 1578م الذي كان بمثابة الملحمة الكبرى التي عبرت بها لا يترك مجالا للغموض أو الشك، عن وحدة المغاربة وقوة تماسكهم كلما تهدد خطر سلامة المغرب أو طمع طامع في اجتزاء أراضيه. ولا يسع المجال هنا للتعرض لظروف هذه المعركة وأطوارها وكذا نتائجها ولا حتى لسرد الكتابات والأبحاث التي تناولتها، وهي طبعا يصعب عدها وحصرها، ولكن يجدر بنا أن نقول: إن هذه المعركة كانت تتويجا لسلسلة من الحروب التي خاضها السعديون منذ مطلع القرن 16م ضد الإيبيريين، وبالتالي أكدت من جهة ما وصلته القوة العسكرية السعدية من تطور وتنظيم، ومن جهة ثانية أبانت عن مدى نضج الوعي بضرورة الدفاع عن وحدة المغرب الترابية بالنظر إلى من شاركوا فيها من مختلف أطياف المجتمع المغربي²⁶.

غير أن ما تهدد المغرب من أخطار أجنبية لم يقتصر على المد الإيبيري فحسب، وما أبان عنه السعديون من دفاع عسكري مستميت لم يكن موجها ضد البرتغاليين والإسبان بالثغور المغربية فقط، بل عاش المغرب على الواجهة الشرقية، خلال هذه الحقبة من التاريخ، حروبا حاول من خلالها السعديون إبعاد الخطر التركي عن التراب المغربي؛ وهذا ما سنعمل على إبراز أطواره بشكل مقتضب خلال العنصر التالي:

ب- السعديون في مواجهة الخطر التركي على الواجهة الشرقية للمغرب:

تجدر الإشارة في البداية إلى أن تزامن ظهور الدولة السعدية الناشئة مع وصول الامتداد العثماني إلى المغرب الأوسط، قد أعطى للهاجس الأمني المرتبط بالمناطق الحدودية من جهة الشرق بعدا جديدا وجعل السلطة السعدية تدرك في وقت مبكر خطورة مشكل الحدود والعواقب التي يمكن أن تترتب عنه. لذلك فقد وجه السعديون أنظارهم صوب هذه الجهة منذ دخولهم إلى فاس للمرة الأولى سنة 1549م بهدف صد الأطماع التركية عن البلاد، أي قبل استكمال توحيد المغرب تحت حكمهم.

ومن الملاحظ أن تحركات الجيش السعدي في اتجاه الشرق بهذا الصدد قد اتخذت طابعا مغائرا لما عرفته مواجهات الجبهة الساحلية ضد الإيبيريين. فلم تعد هذه التحركات تقتصر على تجريد فرق من الجيش وتنظيم هجمات خاطفة كما كان يحدث في محاربة الحاميات البرتغالية والإسبانية، بل حتم بعد المسافة الواصلة بين الأقاليم الشرقية ومراكش، إلى جانب صعوبة الظروف المناخية التي كانت

26 - محمد الخطيب، حول معركة وادي المخازن، مجلة الإيمان، ع 77، السنة 8، يوليو 1978م، ص ص 20، 21.

تعيق في بعض الأحيان تحركات الجيش إن لم نقل تمنعها نهائيا²⁷، على الدولة السعدية تجريد حملات كبرى آخذة بعين الاعتبار خطورة هذه العوائق من جهة، والدور الذي يمكن أن تقوم به الثغور الشرقية باعتبارها قواعد عسكرية ذات قيمة كبرى في دعم مجهودها الحربي بهذه الجهة من المغرب من جهة ثانية.

في بحر هذه التطورات، جرد محمد الشيخ السعدي جيشا من 6.000 فارس وجعل على قيادته ابنه محمد الحران بهدف استرجاع المناطق التي سقطت تحت السيطرة العثمانية²⁸. وقد انطلق هذا الجيش صوب المناطق الشرقية في أبريل 1549م، ودخل في نفس الشهر مدينة وجدة التي اضطرت القوات العثمانية أن تتراجع عنها مع وصول الجيش المغربي. ويبدو أن توقف محمد الحران بوجدة بعد طرد الأتراك العثمانيين منها قد لعب دورا مهما في كسب تأييد مجموعة من القبائل للسعديين كطراة وولهاصة وغيرهما²⁹، إلى جانب تمكين عناصر الجيش من أخذ الترتيبات اللازمة لمواصلة الزحف العسكري.

وبعد أربعة عشر شهرا من هذا التاريخ، أي في ماي 1550م، جرد محمد الشيخ حملة عسكرية أخرى بقيادة أبنائه الثلاثة: محمد الحران ومولاي عبد الله ومولاي عبد القادر استهدفت طرد العثمانيين من تلمسان. وقد انطلقت هذه الحملة المكونة من 21.000 فارس و10.000 من المشاة³⁰ دون الإفصاح عن مقاصدها. وتمكنت من الدخول إلى تلمسان بعد استسلام الحامية التركية التي بعث الحران كل عناصرها وعلى رأسهم حاكم المدينة إلى فاس³¹.

ومن الملاحظ أن دخول الجيش السعدي إلى تلمسان، كان دافعا لمزيد من العمليات نحو الشرق، حيث توجهت القوات السعدية إلى مستغانم وكانت تعتمد في تثبيت سيادتها بالمناطق التي تمر منها إلى

27 - تحدث الوزان في معرض حديثه عن "حركات" نظمها محمد الشيخ الوطاسي على دبدو عن خطورة الظروف المناخية كعائق أمام تحرك الجيش، يقول بهذا الصدد: "وقد عانت جيوش فاس الأمرين في هذه الحركة، لأنها وقعت في شهري يونيو ويوليه، ولأن البادية شديدة الحر والجفاف على مسافة ثمانين ميلا الفاصلة بين دبدو وتازا، بحيث لا يوجد الماء إلا في ثلاثة معسكرات، فاضطر الجنود إلى الإسراع لقطع هذه المناطق الحارة، ومات الكثير منهم من شدة الحر في الذهاب والإياب"، ينظر:

الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1983م، ج 1، ص ص 353، 354.

28 - S.I.H.M, Esp, TI, P 203.

29 - إبراهيم شحاتة حسن، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 1578م، دار الثقافة، ط 1، 1979، ص 95.

30 - HAMET (Ismael), Histoire du Maghreb, Edi. Ernest Leroux, Paris, 1923, P 279.

31 - إبراهيم شحاتة حسن، مرجع سابق، ص 100.

إقامة معسكرات مثل الذي أقامته بالقرب من وهران³². غير أن سقوط مستغانم في يد السعديين، دفع الأتراك العثمانيين إلى التحرك عسكريا بهدف استدراك الوضع إذ جردوا قوات ضخمة معززة ب 30 قطعة من المدفعية، وبذلك أسفرت المواجهة عن تراجع الجيش السعدي نحو تلمسان³³.

وبضواحي هذه المدينة، وقعت معركة أخرى عنيفة بالقرب من وادي متيجة انتهت بانزهاض القوات العثمانية بفعل وصول نجدة عسكرية سعدية مكونة من 20.000 محارب و 15 مدفعا بقيادة عبد الله بن محمد الشيخ من فاس³⁴. وكانت هذه المعركة بداية لسلسلة من المعارك انطلاقا من منطقة تسالة ليشند القتال بضواحي مستغانم وينتقل بعد ذلك إلى تلمسان في معركة قرب نهر بوعزون في فبراير 1551م أسفرت عن تراجع الجيش السعدي عن هذه المناطق³⁵.

وبفعل المد العثماني الذي توغل بعد هذه المعركة في المناطق الشرقية للمغرب، بادر محمد الشيخ السعدي إلى تجريد حملة عسكرية بقيادة ابنه عبد الله والمزوار المنصور استهدفت استرجاع دبدو³⁶. وقد حققت هذه الحملة أهدافها، مما أكد للعثمانيين أن انتصار وادي بوعزون لن يكفي لحسم الموقف مع السعديين.

بعد هذه المعارك، يمكن أن نتحدث عن استراتيجية واسعة النطاق سيعمل من خلالها السعديون على تقوية جانبهم العسكري وحماية المناطق الشرقية للمغرب. فقد أعطوا لحواضر المغرب الشرقي تصورا خاصا، وجعلوا أهمية كل مدينة من هذه المدن ترتبط ارتباطا شديدا بما يمكن أن تقدمه من مؤهلات وأدوار في الجانب العسكري خصوصا، وصد الأخطار الخارجية بشكل عام.

32 - عبد الرحيم بنحادة، المغرب والباب العالي، من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، دكتوراه الدولة، مرقونة، كلية الآداب فاس، 1995م، 1996م، ج 1، ص 100.

33 - المرجع نفسه.

34 - S.I.H.M, Esp, TI, P 205.

35 - لم يكن العثمانيون يبارحهم هاجس الدخول إلى تلمسان، بعد أن أخذها السعديون، باعتبارها ذات موقع استراتيجي بوده مراقبة الخطوط الأمامية للإيالة العثمانية بالجزائر. وكانوا متيقنين من أن حسم الصراع وإبعاد الجيش السعدي عن هذه المدينة لم يتم إلا بمعركة حاسمة لذلك فقد جرد القائد التركي صفاء بك جيشا من 3.000 بنديقي إلى جانب 4.000 فارس وانضافت إليه القبائل الموالية للعثمانيين واتجهت كل هذه القوات لحصار تلمسان.

ومن زاوية أخرى، كان السعديون يدركون صعوبة الوضع الذي سيؤول إليه وجودهم بهذه المناطق، لذلك عملوا على رفع أعداد جيشهم إلى 17.000 فرد دعموها بقطع من المدفعية وتولى المولى عبد القادر قيادة الجيش، وانتهت استعدادات الجيشين إلى الدخول في معركة قرب نهر بوعزون بتلمسان في فبراير 1551م انتهت بتراجع الجيش السعدي عن مدينة تلمسان، ينظر:

إبراهيم شحاتة حسن، مرجع سابق، ص 101.

36 - عبد الكريم اكريم، مرجع سابق، ص 78.

وتحقيق هذه الأدوار في الحقيقة يرتبط لا محالة بالخصوصيات الجغرافية والاستراتيجية لكل مدينة على حدة والنظر إليها في إطار شمولي ومتكامل بشكل يجعل من مدن هذه الواجهة ترسا دفاعيا وجبهة صلبة لوقف أي توسع محتمل.

لذلك إذن، عمل عبد الله الغالب الذي تولى الحكم بعد أبيه محمد الشيخ على بث الحاميات العسكرية بمختلف المدن المنتصبة على جبهة المواجهة ضد الأتراك العثمانيين. وفي هذا الإطار، دعم فجيج بحامية عسكرية دائمة وجعلها قاعدة أساسية لحراسة التخوم الشرقية المحاذية لها³⁷. وأقام فرقة أخرى من الجيش بمدينة تازة تأهباً لمواجهة أي تدخل عثماني محتمل³⁸، ودعم ذلك بيت حامية أخرى بدبدو لحراستها من الخطر العثماني الذي يتهدهدها باستمرار³⁹. وجسدت اهتمامات عبد الله الغالب بتوفير أكبر دليل على محاولة استغلال المواقع الاستراتيجية التي تحظى بها مدن المغرب الشرقي في الحرب ضد الأتراك العثمانيين. فقد دعمها بحامية عسكرية تكونت هذه المرة من فرسان وراجلين ونصب بها قطعاً من المدفعية بهدف تقوية دفاعها العسكري⁴⁰. وجعل من فاس القاعدة الخلفية لدعم المراكز الأمامية بالجهة الشرقية، حيث كانت تستقر بها حامية عسكرية كبيرة العدد من فرسان وراجلين، كما كانت تتوفر على احتياط مهم من العدة الحربية والقطع المدفعية مخصصة لدعم الواجهة الشرقية⁴¹. وقد جاءت اهتمامات عبد الله الغالب بهذا الصدد عقب التدخل التركي المتمثل في الحملة العسكرية التي تجاوزت حدود تازة والتي عبأ هذا السلطان لصدها جيشاً مهماً أسفر عن انهزام الجيش التركي في الثاني من أبريل 1558م قرب وادي اللبن وفرار عناصره عبر جبال ورغة⁴².

وبعد تولية عبد الملك المعتصم الحكم، وبالرغم من قصر الفترة التي قضاها على رأس السلطة بالمغرب، فقد أظهر عناية بالغة لحماية الجهة الشرقية من البلاد. وفي هذا الصدد تصدى منذ بداية حكمه لزحف القوات العثمانية على فجيج⁴³ وأبدى حرصاً شديداً لحماية الجهات الأخرى. كما حظيت هذه المناطق بمكانة خاصة في عهد أحمد المنصور حيث عرفت فجيج استقرار حامية عسكرية دائمة للدفاع عنها وعن المجالات الحدودية المجاورة، بل اتخذها محطة أساسية لجيوشه عندما

37 - محمد بوزياني بنعلي، واحة فكيك تاريخ وأعلام، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، 1987م، ص 45.

38 - مارمول كاريخال، مصدر سابق، ج 2، ص 273.

39 - المصدر نفسه، ج 2، ص 272.

40 - نفسه، ج 2، ص 269.

41 - DZIUBINSKI (A), Op. Cite, P 88.

42 - عبد الكريم أكريم، مرجع سابق، ص ص 86، 87.

43 - محمد بوزياني بنعلي، مرجع سابق، ص 45.

توجهت لإخضاع مناطق توات وتيكورارين⁴⁴. ولتدعيم الدفاع العسكري بمناطق الحدود الشرقية، أضاف هذا السلطان تحصينات عسكرية من الأهمية بمكان، كالحصنين اللذين أنشأهما بفاس وعززهما بحصن أمامي بتازة تحسبا لزحف العثمانيين⁴⁵.

والظاهر من خلال استقراء الأحداث والوقائع، أن الباحث كلما تدرج نحو فترة حكم أحمد المنصور إلا ويلمس ضعف الأخطار الخارجية التي طالما تهددت أطراف المغرب ومجالاته الحدودية. ونحن لا نتفق كلية، في هذا الباب، مع ما ذهب إليه عبد الله العروي نقلا عن فرنان بروديل من كون مصير المغاربة انفلت من أيديهم وأصبح رهينا ومناطا بطبيعة الصراع الدائر في عرض المتوسط بين الإسبان والأتراك بالخصوص؛ وهو ما أدى، على حد تعبير العروي، إلى فشل المحاولات التوسعية الأجنبية في الأراضي المغربية⁴⁶.

حجتنا في هذا الطرح، نوجزها في ثلاث نقط ومن خلالها نأتي إلى ختم هذه المقالة وهي كالآتي.
أولا: منذ دخولهم لفاس الدخول الثاني 1554م وتوحيد المغرب تحت حكمهم، أصبح السعديون يميلون إلى سلوك ما يسمى "بالواقعية السياسية"⁴⁷ (Real-Politik)؛ وهي سياسة تبناها كل السلاطين الذين جاءوا بعد محمد الشيخ، وتقوم على أساس الحفاظ على التوازن في علاقة المغرب بمختلف الدول الكبرى حسب قوتها. وهي الصورة التي يمكن أن يستقيها الباحث من خلال الوثائق الإسبانية، الفرنسية والإنجليزية على الأقل⁴⁸، بحيث تبين هذه الوثائق كيف استطاع المغرب بفعل استغلال التناقضات بين القوى الكبرى وتضارب مصالحها من إبعاد الأخطار عن ترابه.

ثانيا: كان لانتصار وادي المخازن صيت ذائع شرقا وغربا، يمكن أن نزن قيمة نتائجه الحقيقية في التوازن الذي ستعرفه العلاقة بين المغرب ومحيطه الدولي ونقصد هنا المغرب والإمبراطورية العثمانية ثم المغرب ودول غرب أوروبا. وعلى إثر ذلك ستتوقف الأخطار المرتبطة بالمد الإيبيري، كما طويت نهائيا أطماع العثمانيين في ضم المغرب.

44 - المرجع نفسه، ص 47.

45 - عبد العزيز الفتتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1972م، ص ص 264، 265.

46 - عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب من الغزو الإيبيري إلى التحرير، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1999م، ج 3، ص 47.
47 - DAHIRU (Yahya), Morocco in the Sixteenth Century: Problems and Patterns in African Foreign Policy-Edi. Humanities Press, U. S. A, 1981, PP 25, 26.

48 - عبد الرحيم بنحادة، مرجع سابق، ج 1، ص 112.

ثالثا: لا يمكن أن نغفل جانبا أساسيا في سياق الدفاع عن التراب المغربي، وهو الحس الوطني ووقوف المغاربة وقفة رجل واحد كلما واجه المغرب خطرا من الأخطار الأجنبية. والصور التي يمكن أن نقف عندها في هذا الجانب، كثيرة ومتعددة، تعبر في شموليتها على أن صمود المغاربة واستماتتهم كان من وراء تحرير العديد من الثغور التي سقطت في يد الإيبيريين، كما ساهمت بقوة في تجنب المغرب أطماعا أجنبية أخرى. ولهذا، ما يؤكد حس المغاربة بضرورة الدفاع عن وحدة البلاد، هو عندما دخل السعديون في الحرب ضد الأتراك العثمانيين على الواجهة الشرقية وطرحت مسألة مع من تجوز ضدهم الحرب شرعا ومع من لا تجوز، باعتبار الدولة العثمانية دولة إسلامية، تجند المغاربة بتراص ووضعو ضمن أهدافهم الكبرى حماية التراب المغربي من أي الأخطار كانت؛ وبالتالي يمكن القول إن الدولة السعدية كانت بحق دولة إنقاذ، واستطاعت بفعل ما عبأته في الجانب العسكري، وبفعل صمود المغاربة أيضا أن تبعد الأطماع الأجنبية عن المغرب وتفرض هيئته ومكانته بين الدول الكبرى، ولعل هذا الحس الوطني هو الذي استمر خلال عهد الدولة العلوية الشريفة، حيث سجل المغاربة صورا وملاحم كبرى في حياة البلاد وحمايتها من أي عدوان كان.

ديوان العدد

مسيرة الوحدة

للشاعر : محمد البلغمي
فاس

وترنم بيومها الوضواء
خلدتها بطولة الأوفياء
لانتشال الصحراء من دخلاء
في انتظام وهممة ومضواء
للهدى والسلام أسمى للواء
علوي مؤيد بالسماء
ومليكا موفق الآراء
والتقينا بالأهل خير لقواء
جنة تزدهي بكل عطواء
بالمفدى وشعبه البنواء
في أمان وعزة وهنواء
ووقى أهلنا من كل بلاء
في انسجام ووحدة وإخواء
وطنا للأجيال جم الرخاء
لتداني الشعوب لا للتناهي
صوتهم في الفراغ مثل الهباء
يستطيون العيش في الظلماء

حي ذكرى المسيرة الخضراء
وأعد لي من أمسها ذكريات
يوم نادى الملك للزحف شعبا
فاستجابت له الجموع وسارت
تتحدى زيف الحدود وتعللي
معها حقها وبيعة عرش
فأمد الإلاه بالعون شعبا
واستعدنا صحراءنا بسلام
فانظروها وقد غدت بعد جذب
المشاريع فوقها تتباهى
يامغاني الصحراء عشت دواما
وحماك الإلاه من كل شر
نحن في أرضنا السعيدة نحيا
نتحدى كيد الخصوم .. ونبني
هو عصر التكتلات ينادي
ودعاة التفريق حتما سيمضي
مالقوم مضللين أراهم

كلما لاح للسلام بريق
أيها السادرون في الغي ماذا
كم دعاكم إمامنا لابتعاد
لو وعيتم نداءه لرجعتم
فالصحارى بالمغرب الحر تحيا
وجميع الأبناء فيها أبانوا
إنما دعوة المليك إليكم
ونداء من عاهل يتحلى
فدعوا الكبر والعناد.. فكم ذا
واققدوا بالذين عادوا هروبا
واعلموا أن شعبنا كل حين
فهى صحراؤنا برغم الأعداء
لو طوينا من السنين ألوفا
لا نبالي بمن يناور سرا
فخذ العهد سيدي من أباة
ولتدم للحمى وللشعب ذخرا
وهب النصر جندنا.. يا إلهي

حركتهم عقارب البغضاء
قد جنيتم بالغدر غير الفناء
عن طريق الضلالة العمياء
لحماكم من غير ما إبطاء
وهو يحيا بالحق.. في الصحراء
من قديم عن بيعة وولاء
هي عطف أمله روح الوفاء
باتزان وحكمة وذكاء
شقيت أنفس من الكبرياء
للحمى، من مخيمات الشقاء
مستعد لرد كل اعتداء
نفندي أرضها بأزكى الدماء
لصمدنا لهم.. بغير عياء
أو يحاي خصومنا في الخفاء
أقسموا أنهم جنود الفداء
مابدا في الآفاق نور ذكاء
وامنح الخلد سائر الشهداء

صحراء يا عشقي تحية للرجال والنساء الذين لبوا النداء

الشاعر: عبد الكريم الوزاني
فاس

هبوا خفافا للنداء سجلا
يمشون من فرط الأناء ثقلا
يحكي لذا حمى السباق غزالا
واشرب على نخب الوصال حلالا
والحور تعبق فتنة ودلالا
ورد المنيعة أن يروم محالا
فيطيع قلبا لا يطيق جدالا
هل يعرف الصب العنيد كلالا؟!
فتوشحت كوفية وعقالا
برمالها تئد النصال نصالا
أن تصليا ألق العيون نبالا
وتمد بينهما الشغاف حبالا
كالبرق قاطع بالهلال هلالا
لا سحر إلا ما يكون حلالا

صدقتك عينك إذ رأيت رجالا
يطوون متن الأرض حتى كأنهم
فكان صهوتهم خفيف ثقلها
حي الديار وأهلها ورمالها
واذكر مغانيها وضاحك روضها
صحراء يا عشقي! وكم من عاشق
تزجى إليه نصيحة من عاذل
ويرد عاذله على أعقابها
يا فاس أختك حررت أردانها
يا فاس أختك درة مختومة
للضرتين معا إذا ما احتكتا
قالوا وبينهما أتعدل عاشقا
فأجبتهم: قمران إذ ما أومضا
سحران من نفح الجنان مدهما

روض على روض بجانب واحة
صحراء يا أرض الأباة ومعقلا
نزجي السلام إليك من أعماقنا
لا نستريح ولا نريح نصالنا
لله سببته في الأسار وأختها
هذي تئن.. دماؤها مهراقة
يا أيها الباني ألا أدركهما
فإذا عزممت فنائل ما تبتغي
وإذا افتتحت فبالإله تيمنا
وإذا نصحت فبالفصاحة والحجى
جاءت إليك رؤوسهم منصاعة
إذ قولهم رفع وخفض فعلهم
فالسيف يعمل مفردا في جمعه

أترى لكنتا الجننتين مثالا
إننا نشد إلى ثراك رحالا
ونعب من خمر الغرام وصالا
حتى نضم إلى الجنوب شمالا
حسب المذلة أن تكون نكالا
وتمد تلك إلى الهوان قذالا
فلقد يزيدهما الإسار هزالا
وإذا استخرت فما تمل سجالا
وإذا اختتمت فبالبيان مقالا
وإذا زجرت فقد محقت ضلالا
ملئت رؤوس السادرين خبالا
سهم الحقيقة لا يصيب خيالا
والنبل أصدق أن يكون نبالا

فهرس العدد:

افتتاحية 7

مقالات العدد:

المسيرة الخضراء حلقة من حلقات ثورة الملك والشعب

الأستاذ عبد الحق المريني 11

الصحراء المغربية على عهد الشرفاء العلويين قراءة في مضامين الوثائق

الأستاذة بهيجة سيمو 17

قضية الصحراء المغربية والدور المحوري لمغاربة العالم في تفعيل الديبلوماسية الموازية

الأستاذ عبد الله بوصوف 45

الصحراء المغربية بين الشرعية التاريخية وأطماع الجوار

الأستاذ لحسن جنان 61

إيديولوجية "البوليساريو" خارج مقررات القانون الدولي

الأستاذ عز الدين قريوح 75

قضية الصحراء المغربية وإشكالية الاستفتاء: من المثالية إلى النجاعة

الأستاذ خالد شيات 81

الملوك العلويون وقبائل الصحراء: مواءمة دينية وسياسية لواقع الصحراء الإفريقية

93.....الأستاذ عبد الفتاح الفاتحي

الحجج والوثائق التاريخية تأكيد لمغربية الصحراء

105.....الأستاذ محمد زين العابدين الحسيني

بيعة القبائل الصحراوية للسلطان العلوي المولى عبد الحفيظ

115.....الأستاذ عبد المجيد خيالي

روابط البيعة الشرعية بين أهل الصحراء وسلاطين وملوك الدولة العلوية

129.....الأستاذ عبد القادر سعود

جوانب من المقاومة الوطنية بالصحراء المغربية وامتدادها الأفريقي

139.....الأستاذ رشيد بنعمر

المغرب ومشروعية وحدته الترابية من الوجهة التاريخية

149.....الأستاذ لحسن تاوشخت

قراءة في الجزأين 26 و 27 من موسوعة «معلمة المغرب» الخاصين بالصحراء المغربية المسترجعة

169.....الأستاذ مصطفى الشابي

من مظاهر الولاء والبيعة الجامعة بين قبائل الصحراء المغربية وملوكهم العلويين الأماجد

179.....الأستاذ نور الدين بلحداد

الجهوية المتقدمة بالصحراء المغربية عربون وفاء للبيعة الشرعية للملوك العلويين

193.....الأستاذة ماجدة كريمي

سوس والصحراء في صلب اهتمامات السلطان الحسن الأول

199.....الأستاذ محمد البغيال

بيعة الشناقطة للدولة العلوية الشريفة

219الأستاذ محمد الترسالي

مظاهر من الدفاع عن الوحدة الترابية بمغرب السعديين

225الأستاذ نور الدين احجيرة

ديوان العدد

مسيرة الوحدة

241الأستاذ محمد البلغمي

الصحراء يا عشقي

243الأستاذ عبد الكريم الوزاني

245فهرس العدد

248شروط النشر بالمجلة

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. جهود المغرب في تكوين القيمين الدينيين

2. عيد العرش المجيد

3. ثورة الملك والشعب

4. الأدب المغربي: معالم وأعلام





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعصر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية